لويجي بيراندللو



الراحل

ماتيا باسكال

(رواية)

ترجمة: محب سعد إبراهيم



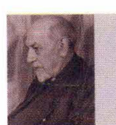


المشروع القومي للترجمة   المركز الثقافي الإيطالي









لويجي بيراندللو

تمثل هذه الرواية أهم أعمال بيراندللو الروائية وتفتح الطريق أمام أعماله المسرحية وتجاربه الجديدة فى المسرح. وفى إطار المسألة الرئيسية فى أعمال بيراندللو، وهى العلاقة بين المظهر والحقيقة، والشكل والواقع التى تتكشف من خلال الأحداث التى تقع لماتيا باسكال، الرجل الذى يموت مرتين ويختزل فى ذاته مأساة أحوال البشر الذين يتطلعون إلى الحرية، ولكنهم يخضعون لواقعهم المرير البائس. وماتيا باسكال هو الإنسان الذى يفقد هويته فيفقد إمكانية العيش فى هذا العالم، وهو رجل ظن أهل بلدته أنه قد مات، فأراد هو أن يحيا حياة جديدة بعيدًا عنها، وعندما أراد العودة إلى بلدته وأسرته ليقوم بدوره الحقيقى فيهما، يجد نفسه مرفوضًا من أسرته ومجتمعه، غريبًا فيهما، بل إنهما يدفعانه دفعًا للقيام بدوره، وهو دور المتوفى.

تصميم الغلاف: عمرو

الراحل ماتيا باسكال

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٧١
- الراحل ماتيا باسكال
- لويجى بيراندللو
- محب سعد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Il Fu Mattia Pascal
Luigi Pirandello

هذا العمل تم نشره بمساهمة وزارة الخارجية الإيطالية
Questo Libro e'stato pubblicato con il contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano





حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومى للترجمة

الراحل ماتيا باسكال

تأليـف : لويچى بيـراندللو

ترجمـة : محب سعد إبراهيم



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيراندللو ، لويجى
الراحل ماتيا باسكال / تأليف لويجى بيراندللو ؛ ترجمة محب
سعد إبراهيم - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ ،
٢٨٨ ص ؛ ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة)
١ - القصص الإيطالية .
(أ) إبراهيم ، محب سعد (مترجم) ٨٥٣

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٠١٩
الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 179 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتـــويات

(١)

تمهيد

كان أحد الأمور القليلة ، بل لعله الأمر الوحيد الذى أعلمه علم اليقين هو : أنى كنت أدعى ماتيا باسكال . وكنت أستغل هذا . فكلما أظهر أحد أصدقائى أو إنسان أعرفه أنه قد فقد عقله إلى المدى الذى يأتى فيه عندى ليسألنى نصحا أو رأيا ، كنت أرفع كتفىّ وأضيّق عينىّ وأجيبه :

« أنا أدعى ماتيا باسكال »

« شكرًا يا عزيزى . أعلم هذا » .

« أو يبدو لك أمرًا هينًا ؟ »

ولكى أقول الحق ، لم يكن يبدو أمرا ذا شأن ، حتى بالنسبة لى . ولكنى كنت أجهل آنذاك مغزى القول بعدم معرفة هذا ، وبعدم القدرة على الرد عندما يلزم ، أى كذى قبل .

«أنا أدعى ماتيا باسكال »

وقد يريد أحدهم أن يرثى لى (ويكلف هذا القليل) ، وقد تخيل حزن من ابتلى حزنا فظيعا وقع له ، أن اكتشف فجأة أنه ... نعم ، لا شىء ، القصد : بلا أب وبلا أم ، ولا كيف كان أو كيف لم يكن ؛ ويريد مع هذا أن يسخط (ويكلف هذا ما هو أقل) على فساد العادات ، وعلى الرذائل ، وعلى شر الزمان الذى قد يكون سببًا فى شقاء مسكين بسيط شقاء كبيرًا .

حسنا ، تفضل . ولكن واجبى أن أنبهك إلى أن الأمر لا يتعلق بهذا مطلقًا . فأنا يمكننى أن أعرض هنا حقيقة ، وعلى شجرة العائلة ، أصل عائلتى وسلالتها ، وأن أظهر كيف عرفت أبى وأمى ، وليس هذا وحسب وإنما أجدادى وأفعالهم على مدى زمن طويل ، وليست كلها فى الحقيقة أفعالا حميدة .

وماذا بعد ؟

نعم : إن حالى غريب ومختلف أيما غرابة واختلاف ؛ وهو من الغرابة والاختلاف بحيث آخذ فى قصه :

كنت لمدة عامين صائد فئران أو أمينا - ولا أدرى أيهما أكثر من الآخر - على الكتب فى المكتبة التى شاء المونسنيور بوكاماتسا أن يهبها عند وفاته لبلدية بلدتنا . ومن الواضح تمام الوضوح أن هذا المونسنيور كان قليل المعرفة بنوازع مواطنيه وعاداتهم ؛ أو لعله تمنى، بمرور الوقت وتوفر سبل الراحة ، أن تؤجج هبته فى نفوسهم حب الدراسة . وحتى اليوم ، وأستطيع أن أشهد بهذا ، لم تتأجج نفوسهم ، أقول هذا مدحًا لمواطنى مدينتى . بل إن البلدية أبدت قلة عرفانها بصنيع بوكاماتسا وهبته ، حتى أنها لم ترد أن تقيم له تمثالاً نصفيًا من أى نوع ، وتركت الكتب لسنوات وسنوات مكدسة فى مخزن واسع ورطب ، ثم استخرجتها منه ، وتصوروا أنتم حالها ، لتضعها فى كنيسة صغيرة نائية هى كنيسة سانتا ماريا ليبرالى المهجورة لسبب لا أعلمه . وعهدت بها هنا بلا أية بصيرة - منحة وامتيازًا - لعاطل يتمتع بالحماية ، تحمّل فى مقابل ليرتين فى اليوم رائحة عفنها وقدمها الكريهة مقابل أن يلاحظها أو ألا يلاحظها قط.

وكان هذا نصيبى أنا أيضا ؛ ومنذ أول يوم شعرت بتقدير ضئيل للكتب سواء كانت كتبا مطبوعة أم مخطوطة (مثل بعض المخطوطات القديمة بمكتبتنا) ، حتى أننى ما كنت لأشرع أبدًا ، ثم أبدأ فى الكتابة لولا أنى ، كما قلت ، حسبت أن حالى وقضيتى غريبة حقًا حتى أنها تصلح لتعليم قارىء فضولى قد يأتى صدفة ؛ ليحقق

أخيراً أمل المرحوم مونسنيور بوكاماتسا القديم ، إلى هذه المكتبة التى أترك لها مخطوطى بشرط الالتزام بألا يفتحه أحد إلا بعد خمسين سنة من وفاتى الثالثة والأخيرة والحاسمة .

هذا لأنى حتى الآن (ويعلم الله مقدار ألمى لهذا) قد توفيت ، نعم ، مرتين ، ولكن أولاهما خطأ ، وثانيتهما ... ستسمعون .

(٢) التمهيد الثانى

(فلسفى) التماسًا للعذر

جاءتنى الفكرة أو النصيحة بالكتابة من صديقى الجليل دون إليچو بللجرينوتو ، وهو الذى يتولى فى الوقت الحالى الحفاظ على كتب بوكاماتسا ، وإليه سأعهد بمخطوطتى بمجرد الانتهاء منها ، إن أنجزتها .

أكتبها هنا فى الكنيسة المهجورة على الضوء الذى يصلنى من مشكاة أعلى القبة ؛ أكتبها هنا فى المحراب المخصص لأمين المكتبة والذى تغلقه بوابة منخفضة من الخشب ذات أعمدة صغيرة ، بينما يستشيط دون إليچو غضبا تحت عبء المهمة التى تكفل بها ببطولة، وهى أن يسعى لترتيب فوضى الكتب هذه . وأخشى ألا يستطيع إنجاز هذه المهمة أبدًا . وقبله لم يهتم أحد بأن يعرف ، ولو إجمالا ، ماهية الكتب التى أهداها المونسنيور للبلدية ولو بنظرة خاطفة لكعوب الكتب ؛ كان من المعتقد أنها كلها أو معظمها تتناول موضوعات دينية . والآن اكتشف بللجرينوتو تنوعًا كبيرًا جدًا فى موضوعات مكتبة المونسنيور ، مما أرضاه رضاء كبيرًا ؛ ولأن الكتب جاءته من المخزن من هنا ومن هناك ، وتكدست كما وصلت ، فإن الفوضى كانت عارمة لا توصف . وربطت بين هذه الكتب – لقربها – صداقات لصيقة تفوق الوصف ؛ فقد قال لى دون إليچو بللجرينوتو ، على سبيل المثال : إنه بذل جهدًا مضنيًا لكى يفصل عن مبحث ماجن مجونا شديدًا حول فنون حب النساء – وهو فى ثلاثة كتب لأنطون موتسيو بورّو يرجع إلى سنة ١٥٧١ – كتاب حياة ووفاة فاوستينو ماتروتشى ، بندكتى من بوليرونى، كان بعض الناس يلقبونه بالمطوّب ، وهى سيرة نشرت فى مانتوڤا سنة ١٦٢٥ . فقد التصق

غلافا الكتابين التصاقًا أخويا بسبب الرطوبة . ويجب ألا نغفل أن الكتاب الثانى من ذلك المبحث الماجن يتحدث حديثًا مطولاً عن حياة الرهبان ومغامراتهم .

كتب غريبة كثيرة ولطيفة التقطها دون إليچو بللجرينوتو ، من فوق أرفف المكتبة ، وهو يتسلق اليوم كله سلم وقاد أعمدة الإنارة . وكلما يجد كتابا منها ، يلقيه من أعلى بلطف فوق المنضدة الموجودة فى المنتصف ؛ فيدوى فى الكنيسة الصغيرة ، وترتفع سحابة من التراب، ومنه يهرب عنكبوتان أو ثلاثة فزعًا ، وأهرع أنا من المحراب وأتخطى البوابة الصغيرة ؛ أطارد فى البداية العناكب بالكتاب نفسه فوق المنضدة المتربة ، ثم أفتح الكتاب وأبدأ فى تصفحه .

وهكذا اعتدت شيئًا فشيئًا على مثل هذه القراءات . والآن يقول لى دون إليچو إن كتابى ينبغى أن يكون على نسق تلك الكتب التى يكتشفها فى المكتبة ، أى أن يكون له مذاقه الخاص . أهز كتفىَّ وأرد عليه أن هذا عبء لا أقوى عليه . ثم يستوقفنى شىء آخر .

ينزل دون إليچو من السلم ، مبللا بالعرق ومكسوًا بالغبار ، ويأتى ليستنشق شيئًا من الهواء فى البستان الصغير الذى وجد سبيلاً لزراعته هنا خلف المحراب ، وقد أحاطه بقصبات وعيدان .

وأقول له وأنا جالس على السور وذقنى مستندة على يد العكاز ، بينما هو يهتم بالخس المزروع : " يا صديقى المبجل ، لم يعد هذا وقتا مناسبا لكتابة كتب ، ولو على سبيل الهزل . ونظرا لأهمية الأدب أيضا ، شأنه شأن غيره ، يجب على أن أكرر قولى المأثور : " اللعنة على كوبرنيكوس !" ويصيح دون إليچو ، وقد رفع خصره ، وبوجهه المشتعل تحت قبعة قديمة من القش : « أوه ، أوه .. أوه ، وما دخل كوبرنيكوس ! » .

« له دخل ، يا دون إليچو . لأنه ، عندما كانت الأرض لا تدور ... » .

« كفى هراء ! فلقد دارت على الدوام ! » .

« ليس هذا حقيقيًا . لم يكن الإنسان يعلم بدورانها ، وبالتالى فكأنها كانت لا تدور. وهى بالنسبة لكثيرين ، حتى الآن ، لا تدور . أول أمس قلت هذا لفلاح عجوز ،

فهل تعلم بماذا رد عليّ ؟ إن هذا عذر جيد للمخمورين . ثم إنك أنت أيضا ، ومعذرة على هذا ، لا يمكن أن تضع موضع الشك أن يشوع قد أوقف الشمس . ولكن دعنا من هذا . أقول إنه عندما كانت الأرض لا تدور وكان الإنسان ، سواء ارتدى ملابس الإغريق أم الرومان ، يظهر عليها بمظهر جميل وكان يشعر بذاته وسموها ويتباهى بسموه تباهيا ، يجعل في رأيي مقبولا قص دقائقها قصا مليئًا بتفاصيل التنعم والرخاء . هل نقرأ أم لا نقرأ في كوينتيليانوس ، كما علمتنى ، أن التاريخ كان لابد أن يُصنع لكى يُروى وليس لكى يختبر؟ » ويرد دون إليجو «لا أنكر ، ولكن الحقيقة كذلك أنه لم تتم كتابة كتب دقيقة هكذا ، بل مفرطة في دقة تفاصيلها الخفية كلها ، مثلما حدث منذ أن أخذت الأرض تدور ، حسب قولك» .

« حسنا نهض السيد الكونت في موعده ، في الساعة الثامنة والنصف تمامًا ... وارتدت السيدة الكونتيسة رداءً أرجوانيا مطرزا بالزهور عند الرقبة ... وكانت تريزينا تموت جوعًا ... وكانت تعاني من لوعة الحب .. أوه يا إلهي القدوس ! وما شأني أنا بهذا كله ؟ هل نحن فوق نحلة دوارة خفية أم لا ، سوطها شعاع من الشمس ، فوق حبة رمل مسها الجنون فتدور وتدور وتدور ، دون أن تدرى لذلك سببًا ، ودون أن تبلغ قصداً أبداً ، وكأنها تستمتع بالدوران ، فتجعلنا نشعر تارة بجو أكثر حرارة ، وتارة بجو أكثر برودة ، ولتجعلنا نموت - وغالبًا ونحن على وعى بأننا اقترفنا سلسلة من الحماقات الصغيرة - بعد خمسين أو ستين دورة ؟ إن كوبرنيكوس ، كوبرنيكوس ، يا عزيزى دون إليجو ، خرّب البشرية تخريبًا لا إصلاح له . وها نحن الآن قد تكيفنا شيئًا فشيئًا مع مفهوم ضآلتنا اللانهائية ، بل ومع اعتبارنا لأنفسنا أقل من العدم في الكون على الرغم من اختراعاتنا واكتشافاتنا الجميلة كلها ؛ فما هي القيمة الحقيقية للأخبار ، لا أقول أخبار تفاهاتنا الخاصة ، وإنما أخبار الكوارث العامة ؟ قصص ديدان صغيرة قد صارت، قصصنا . هل قرأت عن كارثة الأنتيل الصغيرة ؟[1] لا شيء .. فقد تعبت الأرض المسكينة من الدوران - كما يريد ذلك الكاهن البولندى - بلا هدف ، فأتت بحركة

(١) يقصد ثورة بركان لابرليه (١٩٠٢) والذى راح ضحيته الآلاف (المترجم) .

بسيطة تنم عن نفاد صبرها ، ونفثت شيئًا من النار من إحدى فوهاتها الكثيرة . ومن يدرى ما الذى حرك فيها سخطها هذا . لعلها غباوة الناس الذين ما كانوا أبدًا يبعثون على الضجر مثلما هم الآن . كفى . بضعة آلاف من الديدان تشوى . ولنمض قدما . من يتحدث عن هذا بعد ؟ » .

لكن دون إليچو بللچرينوتو ينبهنى إلى أنه مهما كانت الجهود التى نبذلها بقصدنا القاسى أن ننزع وأن نحطم الأوهام التى خلقتها لنا الطبيعة المدبرة من أجل خيرنا ، فإننا لن ننجح فى هذا المقصد . فالإنسان لحسن الحظ ينتابه السهو والشرود بسهولة .

هذا حق . فبلديتنا ، فى ليالٍ معينة مذكورة فى التقويم السنوى لا تضىء أعمدة الإنارة، وكثيرًا – وخاصة عندما تكون السماء ملبدة بالغيوم – تتركنا فى الظلام .

وهذا يعنى فى الحقيقة أننا نعتقد حتى اليوم أن القمر لا يوجد فى السماء لغرض آخر إلا لينير لنا فى الليل ، مثلما تفعل الشمس فى النهار . والنجوم لكى تقدم لنا مشهدا رائعًا. هذا مؤكد . وكثيرًا ما ننسى فى سرور أننا ذرات متناهية الصغر حتى نقدر بعضنا بعضًا وحتى نعجب ببعضنا بعضًا ، ونصبح قادرين على أن نتقاتل من أجل قطعة ضئيلة من الأرض أو أن نتألم لأمور معينة لو أننا أدركنا حقيقة ما نحن عليه لبدت لنا تفاهات لا حساب لها .

حسنا ، بفضل هذه الغفلة القدرية ، بالإضافة إلى غرابة قصتى ، فإنى سأتحدث عن نفسى ، ولكن بأقصى ما أستطيع من الإيجاز ، فأذكر فقط تلك الأخبار التى أحسبها ضرورية.

وبالتأكيد لن يشرفنى بعضها شرفًا كبيرًا ، ولكنى الآن فى حالة فريدة بحيث يمكننى أن أحسب نفسى وكأنى صرت خارج الحياة ، وبالتالى بدون التزامات وبدون وساوس من أى جنس .

لنبدأ .

(٣)

البيت والجرذ

بادرت في البداية بقولي : إني قد عرفت أبي . لم أعرفه . كنت في الرابعة والنصف من عمري عندما توفي . فبعد أن ذهب بزورقه إلى كورسيكا ، للتجارة التي كان يمارسها فيها، لم يعد منها فقد قضت عليه الحمى، في ثلاثة أيام ، وهو في الثامنة والثلاثين من العمر . وترك على كل حال ثروة لزوجته وابنيه : ماتيا (وهو أنا ، أو ما كنت يوما) وروبرتو ، وهو يكبرني بعامين .

ولا يزال بعض شيوخ البلدة يستمتعون بإشاعة أن ثروة أبي (وينبغي ألا تلقي عليه ظلالاً من الشك ، فقد انتقلت منذ فترة طويلة إلى أيدي آخرين) أصلها - فلنقل هكذا - غير معروف .

ويتقولون إنه حصل عليها بلعبه الورق في مرسيليا مع قبطان باخرة تجارية إنجليزية، وأن القبطان بعد أن خسر كل ما كان معه من مال - ولابد أنه لم يكن قليلا - راهن على حمولة ضخمة من الكبريت شحنها من صقلية البعيدة لحساب أحد تجار ليفربول (ويعلمون هذا أيضًا! وما اسمه ؟) كان قد استأجر الباخرة ، وأنه بعد أن أقلع بباخرته ألقى بنفسه يأسًا في عمق البحر . وهكذا رست الباخرة في ليفربول ، وقد تخففت كذلك من وزن القبطان . وهذه الثروة كانت تتوازن معها إساءات أهل بلدتي :

كنا نمتلك أراضيَ ومنازل .

كان أبى بفطنته وجسارته لم يتخذ مقرا ثابتا لتجارته : كان دائم التجوال بزورقه ذاك، فحيثما وجد بضاعة أفضل وأنسب كان يشتريها ويبيعها فوراً ، وهى بضائع من كل صنف ؛ وحتى لا تغريه عمليات تجارية كبرى وذات مخاطر عظمى ؛ فإنه كان يستثمر مكاسبه شيئًا فشيئًا فى شراء الأراضى والمنازل هنا فى بلدته ، ولعله كان قد عقد عزمه على أن يخلد إلى الراحة فيها ، بثروته التى اقتناها بجهده الجهيد ، هانئا سعيدا بين زوجته وابنيه .

هكذا اشترى فى البداية أرض دوى ريڤييرى ، وهى أرض غنية بأشجار الزيتون والتوت ، ثم ضيعة بستيا ، وهى أرض جيدة وبها عين ماء جميلة استخدمت فيما بعد لإدارة الطاحونة ؛ ثم هضبة سبرونى كلها ، وهى أفضل كروم ناحيتنا ؛ وفى النهاية سان روكينو حيث شيد بيتا ريفيا فاتنا . وفى البلدة اشترى منزلين ، غير البيت الذى كنا نقطنه ، وتلك الساحة كلها التى تحولت وجهزت الآن لتكون مخزنًا .

وكانت وفاته المفاجئة خرابًا لنا ؛ فقد اضطرت أمى العاجزة عن إدارة الميراث ، أن تعهد به إلى شخص ظنت أنه لابد سيشعر بأنه مدين على الأقل بشىء من العرفان لأبى ، إذ إنه قد حصل منه على منافع كثيرة غيَّرت من حاله ، وأنه لن يكلفه أية تضحيات غير الهمة والأمانة لأنه سيحصل على مكافأة سخية .

يالها من قديسة ، أمى ! فبطبعها الخجول الهادىء ، كانت خبرتها ضئيلة بالحياة وبالناس ! وعندما كانت تتكلم ، كانت تبدو طفلة . كانت تتكلم بنبرة أنفية وكانت تضحك أيضًا بأنفها ، ففى كل مرة كانت تضغط شفتيها وكأنها تخجل من الضحك . كانت ضعيفة البنيان. وبعد وفاة أبى ، صارت معتلة الصحة دائمًا ، لكنها لم تشك أبداً من أمراضها ، ولا أظن أنها انزعجت منها ، فقد قبلتها راضية وكأنها نتيجة طبيعية لبلواها . ولعلها كانت تتوقع موتها هى نفسها ، حزنًا ، ولهذا كان عليها أن تشكر الله الذى أبقاها على قيد الحياة ، وإن كانت تعيسة متألمة ، من أجل مصلحة ولديها .

كانت تشعر نحونا بحنان مريض تمامًا ، بالوجيب والرعب ؛ كانت تريدنا دائمًا بجوارها ، وكأنها تخشى أن تفقدنا ، وكثيراً ما كانت تبعث بالخادمات يفتشن عنا فى البيت الرحب ، بمجرد أن يبتعد أحدنا عنها قليلاً .

كعمياء ، كانت قد سلمت قيادها لزوجها ، وعندما بقيت بدونه شعرت بضياعها في العالم. ولم تعد تخرج من البيت ، فيما عدا أيام الأحد ، في الصباح الباكر ؛ لتذهب إلى القداس بالكنيسة القريبة بصحبة خادمتين عجوزين كانت تعاملهما معاملة الأقارب . وفي البيت أيضا، قصرت حياتها على ثلاث غرف فقط ، تاركة الغرف الكثيرة الأخرى لرعاية الخادمات اليسيرة ولتصرفاتنا الشيطانية .

في تلك الغرف ، كانت تفوح من أثاثها ذي الطراز العتيق كله ، ومن ستائرها التي فقدت ألوانها ، تلك الرائحة الخاصة بالأشياء العتيقة ، وكأنها تنفس زمن غابر ؛ وأذكر أنني لأكثر من مرة نظرت حولي بذعر غريب انتابني من سكون تلك الأشياء الصامت هنالك منذ سنوات طويلة بلا استخدام ، وبلا حياة .

ومن بين الذين كانوا يأتون كثيراً لزيارة أمنا ، أخت أبي ، وهي عانس غريبة الأطوار لها عينان مثل عيني ابن عرس ، وهي سمراء ومتغطرسة . كانت تدعى سكولاستيكا ولكنها ، في كل مرة ، كانت تبقي وقتا وجيزا جداً ، ففي أثناء الحديث كانت تثور فجأة وتخرج بغتة دون أن تحيي أحداً . كنت في صباي أخشاها وأخاف منها خوفا عظيما . كنت أنظر إليها مندهشا ، وخاصة عندما كنت أراها تهب واقفة في غضب وأسمعها تصرخ في مواجهة أمي ، وهي تضرب بقدمها على الأرض غضباً .

« هل تشعرين بالخواء ؟ الجرذ ! الجرذ ! » .

كانت تلمِّح إلى ملانيا ، مدير أملاكنا الذي كان يحفر لنا مقبرتنا تحت أقدامنا في الخفاء . كانت العمة سكولاستيكا (وهذا ما عرفته فيما بعد) تريد من أمي وبأي ثمن أن تتزوج مرة ثانية . وعادة ، لا تخطر ببال أخوات الزوج أفكار مثل هذه ، ولا يقدمن نصائح من هذا القبيل . أما هي فكان لديها شعور قاس ومزعج عن العدالة ، وكان هذا هو السبب بالتأكيد أكثر من حبها لنا ، في أنها كانت لا تتحمل أن يسرقنا ذلك الرجل هكذا ، ببساطة ويسر. والآن ونظرا لعجز أمي وعماها ، فإنها ما كانت ترى حلا آخر إلا أن يكون لها زوج ثانٍ . وحددت شخصيته كذلك ، وهو رجل مسكين يدعى چيرولامو بومينو .

كان ذلك الرجل أرملا ، وله ابن لا يزال حيا ويدعى چيرولامو مثل أبيه ، كان صديقًا حميما لى ، بل أكثر من صديق كما سأقول فيما بعد . وكان منذ صباه يأتى مع أبيه إلى منزلنا ، وكان سبب استيائى واستياء أخى برتو .

كان الأب فى شبابه قد سعى طويلا لنيل يد العمة سكولاستيكا التى لم ترد أن تعيره اهتماماً ، كما لم تعر أيضا اهتمامها لغيره ، وليس هذا لأنها لم تشعر بميلها للحب ، وإنما لأن أدنى شك فى أن الرجل الذى تحبه قد يخونها ولو بفكره فقط كان سيجعلها تقترف جريمة ، كما كانت تقول . فالرجال ، بالنسبة لها، كلهم منافقون ومخادعون وخائنون . وبومينو أيضا؟ لا : بومينو ، لا . لكنهــا أدركت هذا بعد فوات الأوان . فقد استطاعت أن تكتشف أن كل الرجال الذين طلبوا يدها ، والذين تزوجوا بعد ذلك ، قد اقترفوا خيانة ما ، واستمتعت باكتشافها هذا استمتاعًا ضاريا . أما بومينو وحده فلا ، بل إن الرجل المسكين كان ضحية لزوجته .

ولماذا إذن لا تتزوجه هى ، الآن ؟ ياله من قول جميل ، لأنه كان أرملا ! لأنه كان لامرأة أخرى قد يراوده التفكير فيها ذات مرة . ثم لأنه كان يظهر جليا من على بعد مائة ميل، على الرغم من خجله : أنه كان يحب ، كان يحب .. ومفهوم يحب من ذلك المسكين السيد بومينو! وكان ضرب من الخيال أن تقبل أمى هذا أبدًا . كان هذا يبدو لها تطاولا وتدنيسًا للمقدسات . ولعل المسكينة لم تكن تصدق أن العمة سكولاستيكا كانت تتحدث على محمل الجد، وكانت تضحك بطريقتها الخاصة تلك على غضب أخت زوجها العارم ، وعلى استغراب السيد بومينو المسكين ، الذى كان موجودا هنالك ويحضر تلك المناقشات ، والذى كانت العانس تمطره بثنائها البالغ .

وأتخيل كم مرة عبّر عن دهشته ، وهو يتململ فوق كرسيه ، وكأنه يجلس فوق آلة تعذيب :

« أوه يا اسم الله المبارك القدوس ! » .

كان رجلا ضئيل الجسم ، مهندما ومرتبا ، عيناه الصغيرتان زرقاوان وديعتان ، وأعتقد أنه كان يتزين ويضع غلالة خفيفة من اللون الأحمر على وجنتيه ، ومن المؤكد أنه

كان يتخايل باحتفاظه بشعره حتى بلوغه هذا العمر ، فكان يمشطه بعناية كبيرة ويفرقه نصفين وكان يعيد ترتيبه باستمرار بيديه .

لا أعلم ما كانت ستئول إليه أعمالنا ، لو أن أمى اتبعت نصيحة العمة سكولاستيكا ، وتزوجت السيد بومينو ، ليس من أجلها هى وإنما مراعاة لمستقبل ابنيها . ولكن ما من شك أنها ما كانت ستئول إلى حال أسوأ مما آلت إليه عندما عهدت بها إلى ملانيا (الجرذ!) .

وعندما كبرنا برتو وأنا ، كان جانب كبير من أملاكنا قد ذهب فى الحقيقة أدراج الرياح ، ولكن كان بإمكاننا على الأقل أن ننقذ بقيتها من براثن ذلك اللص ، لتتيح لنا بكل تأكيد أن نحيا حياة بلا عوز ، إن لم تكن حياة أكثر يسرا . كنا عاطلين ؛ لم نرد أن نشغل بالنا وأن نهتم بشىء ، وعشنا ، ونحن كبيران ، كما عودتنا أمنا أن نحيا ، ونحن صغيران.

لم تشأ أمنا أن ترسلنا إلى المدرسة . وكان معلمنا ومربينا شخصًا يدعى بينزونى . كان اسمه الحقيقى فرانشسكو أو چوفانى دل تشينكوى ؛ ولكن جميع أهل البلدة كانوا يدعونه بينزونى ، واعتاد هو على هذا اعتيادا جعله يدعو نفسه بينزونى.

كان نحيفًا نحافة تثير القشعريرة والاشمئزاز ؛ كان طويلاً جدًا ، ولعله ، يا إلهى ، كان سيبدو أطول لو لم يتعب بدنه فجأة ، من نموه نموًا نحيفًا إلى أعلى ، فانحنى تحت قفاه واحدودب بخفة بحيث كانت رقبته تبدو خارجة منه بمشقة ، مثل رقبة دجاجة منتوفة الريش، وكأنها سقّاطة بارزة تعلو وتهبط . وكثيرًا ما كان بينزونى يجتهد فى وضع شفتيه بين أسنانه وكأنه يعض ويهذب ، ويخفى ابتسامة باترة كانت من سماته الخاصة ؛ ولكن جهده كان يذهب سدى ولو فى جانب منه ، لأن ضحكته هذه كانت . لانحباس شفتيه – تنطلق عبر عينيه أكثر حدة وتهكما .

كان قادرًا بعينيه الصغيرتين تلك على أن يرى أشياء كثيرة فى بيتنا لا تراها أمى ولا نراها نحن . كان لا يتكلم ، ولعله كان لا يحسب أن من واجبه أن يتكلم أو لأنه – وهذا ما أعتقد أنه أرجح – كان يستمتع بالحديث سرًا ، بطريقة مسمومة .

كنا نفعل به ما نريد ؛ وكان يدعنا نفعل ؛ ولكنه بعد ذلك ، وكأنه يريد أن يكون ضميره مطمئنا ، وفجأة ودون أن نتوقع منه هذا ، كان يخوننا .

فى أحد الأيام ، على سبيل المثال أمرته أمنا أن يصطحبنا إلى الكنيسة ؛ وكان عيد الفصح قد اقترب ، فكان علينا أن نعترف . وبعد الاعتراف كان علينا أن نذهب لزيارة زوجة ملانيا المريضة زيارة قصيرة ، ثم نعود مباشرة إلى البيت . يالها من متعة ! ولكن ما إن خرجنا إلى الطريق حتى اقترحنا نحن الاثنان على بينزونى أن نقوم بمغامرة بسيطة : أن نشترى له لترا كاملا من النبيذ على أن يدعنا نذهب ، بدلاً من الكنيسة وملانيا ، إلى أرض ستيا فنبحث فيها عن أعشاش الطيور . وقبل بينزونى بسعادة مفرطة . وفرك يديه ولمعت عيناه ؛ شرب ، وذهبنا إلى المزرعة ؛ وجن جنونه معنا لنحو ثلاث ساعات بأن ساعدنا على تسلق الأشجار ، وتسلقها هو نفسه . ولكن عند المساء ، وما إن عدنا إلى البيت حتى سألته أمنا إن كنا قد قمنا بالاعتراف وبزيارة ملانيا :

« ها ، سأقول لك ... » هكذا أجابها بأوقح وجه فى العالم ، وروى لها أدق تفاصيل ما فعلنا .

وكان انتقامنا من خيانته هذه لا نفع من ورائه . ومع هذا فإنى أذكر أنه لم يكن انتقاما طريفًا . فى إحدى الليالى ، على سبيل المثال وكنا نعلم أنه اعتاد النوم جالسًا فوق الخزانة ، فى دهليز المدخل انتظارا للعشاء قفزنا متسللين من الفراش ، الذى أدخلونا فيه قبل الوقت المعتاد عقابًا لنا ، وعثرنا على أنبوبة من الرصاص طولها شبران تستخدم كحقنة ، وملأناها بالماء والصابون من حوض الغسيل ؛ وبسلاحنا هذا ذهبنا إليه فى حرص ، ووضعنا الأنبوبة بالقرب من فتحتى أنفه – وزوف ... ورأيناه يقفز إلى ما تحت السقف .

ولن يكون من الصعب تصور مقدار ما كان يجب علينا أن نحصله من الدراسة مع معلم بهذه النوعية . ولكن الذنب لم يكن كله ذنب بينزونى ، لأنه حتى يجعلنا نتعلم شيئًا كان على العكس لا يتوقف عند طريقة أو نظام ، وكان يلجأ إلى ألف وسيلة ووسيلة لكى يجذب بشكل ما اهتمامنا ، وكثيراً ما كان ينجح معى فى مقصده لأنى

بطبيعتى كنت أتأثر بشكل كبير. ولكنه كان ذا معرفة خاصة به تماما ، غريبة وشاذة . كان ، على سبيل المثال ، ضليعًا فى التورية : كان يعرف شعر فيدنسيو[1] ، والشعر المعكرونى[2] وشعر بوركيللو[3] وشعر ليبورامبيكا[4] وكان يلقى ألوانا من الجناس والطباق وأبياتا شعرية من أوزان مختلفة .

وفى سان روكينو وعلى التل المقابل لها أذكر أنه جعلنا نردد مرات عديدة مقطوعته الشعرية بعنوان صدى .

كم يدوم الحب فى قلوب الفتيات ؟

– (ساعات)

ألم تحبنى ، هى ، كما أحببتها سرمدا ؟

– (أبدًا)

والآن من أنت يامن تشكين منى على المدى ؟

(صدى)

وكان يطلب منا أن نفسر ألغاز چوليو تشيزارى كروتشى ، وسونتات مونيتى ، وسونتات أخرى لشاعر متسكع واتته الجرأة أن يختفى تحت اسم كاتون أوتيشنزى . كان قد نسخها بحبر له رائحة التبغ فى دفتر قديم صارت أوراقه صفراء .

« أنصتوا ، أنصتوا إلى هذه المقطوعة من مقطوعات ستيليانى ، إنها جميلة ! ما هو! أنصتوا :

---

(١) يقوم على المحاكاة الساخرة لكبار شعراء الشعر الغنائى (المترجم) .
(٢) يقوم على استخدام مفردات لغتين أو أكثر ويمزج بينها (المترجم) .
(٣) شعر غريب مستغلق تتوالى فيه الصور على أساس سببى شكلاً (المترجم) .
(٤) شعر له أوزان غريبة وهو مزج بين الشعر والموسيقى (المترجم) .

أنا واحد وفى ذات الوقت اثنان

ما كان واحداً وقسمته هو الآن قطعتان

تحركنى خمسة ، كل منها بنان

ضد ما لا يحصى على رءوس الناس

كلى فم من وسطى إلى الرأس

أقضم بالأكثر بدون أسنان

وفى منتصفى سرتان لصيقتان

وفى رجلى عينان - يدخل فيهما إصبعان

ويبدو لى أنى لازلت أراه ، وهو يلقى الشعر ، ووجهه يضىء بالسعادة ، وعيناه مغمضتان وهو يرسم بأصابعه شكل الحلزون .

كانت أمى مقتنعة أن ما يعلمنا إياه بينزونى يمكن أن يكون كافيا لما نحتاجه ، ولعلها كانت أيضا تعتقد ، وهى تسمعنا نردد ألغاز كروتشى وستيليانى ، أن ما نتعلمه أكثر من المطلوب . ولكن العمة سكولاستيكا لم تكن من الرأى نفسه . فبعد فشلها فى أن تفرض على أمى بومينو - أثيرها - أخذت فى ملاحقتى أنا وبرتو ولكننا ، وقد شعرنا بقوة حماية أمنا ، لم نعرها اهتماما ، فكانت تغضب غضبا عنيفا ، حتى أنها كانت تكاد أن تضربنا ضرباً مبرحاً يسلخ جلدنا ، لو أنها استطاعت أن تفعل هذا دون أن يراها أو يسمعها أحد . وأذكر ذات مرة، أنها فى أثناء خروجها مهرولة غاضبة كالعادة ، التقت صدفة بى بإحدى الحجرات المهجورة ؛ أمسكت ذقنى وضغطت عليها ضغطاً شديداً بأصابعها قائلة : " يا جميل ! يا جميل ! " وكانت تقرب وجهها من وجهى مع كل كلمة من هذه الكلمات ، وعيناها فى عينى ، حتى أصدرت صوتا يشبه الخوار فتركتنى وهى تزأر من بين أسنانها :

« يا بوز الكلب! »

كانت كثيرة الغضب منى ، رغم أنى كنت أتابع تعليم بينزونى الطائش متابعة لاتدانيها متابعة برتو . ولكن لابد أن السبب هو وجهى الهادىء المثير للغضب ، ونظارتى الكبيرة المستديرة التى فرضوها على لتعدل إحدى عينىّ التى كانت - ولا أعرف السبب - تميل إلى النظر لحسابها فى اتجاه آخر .

كانت تلك النظارة تمثل لى عذابا ما بعده عذاب . وفى وقت ما ألقيت بها وتركت لعينى حرية النظر حيثما تشاء . فهذه العين وإن استقام نظرها لن تجعلنى جميلاً . كنت فى كامل الصحة . وكان هذا يكفينى .

عندما بلغت الثامنة عشرة اكتسى وجهى بلحية كثيفة حمراء مجعدة ، فى مقابل أنفى الصغير الذى تاه بين لحيتى وجبهتى العريضة الجادة .

لو أتيح للإنسان أن يختار أنفا مناسبا لوجهه ، أو لو أننا إذا رأينا إنسانا مسكينا مظلوما بأنف ضخم بالنسبة لوجهه المهزول استطعنا أن نقول له : « هذا الأنف مناسب لى ، وسآخذه » ، لغيرت عندئذ أنفى بكل سرور وكذلك عينىّ وأجزاء كثيرة أخرى من جسدى . ولكن بما أنه من المعروف أن هذا ليس ممكنا ، وبما أنى راضخ لملامحى فإننى لم أهتم بها إلا بقدر .

وعلى النقيض منى كان برتو جميل المحيا والجسد (مقارنة بى على الأقل) ، يقف أمام المرآة ولا يتركها ، ويتحسس ويتلمس وجهه ، ويبذّر أموالا لا نهاية لها فى شراء أحدث أربطة العنق وأحلى العطور والملابس الداخلية والخارجية . وفى أحد الأيام أردت أن أضايقه فأخذت من صوانه " فراك " جديدا لامعا ، وصديرى شديد الأناقة من المخمل الأسود، والقبعة الأسطوانية وذهبت للقنص مهندما هكذا .

وكان باتّا ملانيا يأتى باكيا لأمى سوء الحصاد فيجبره على الاستدانة بفوائد مرتفعة، حتى يفى بمصروفاتنا البالغة ، ونفقات الإصلاح التى تحتاجها الأراضى الزراعية احتياجًا مستمراً .

وكلما دخل منزلنا كان يقول : " لقد جاءتنا ضربة أخرى » .

قضى الضباب على الزيتون وهو ينبت فى دوى ريڤييرى ، أو قضى الفلوكسر على كروم سبيرونى . من اللازم أن نزرع شتلات عنب أمريكية ، تقاوم المرض . وبالتالى ديون أخرى . ثم ينصح ببيع ضيعة سبيرونى حتى نتخلص من المرابين الذين يحاصرونه وهكذا بيعت ضيعة سبيرونى فى البداية ، ثم دوى ريڤييرى ، ثم سان روكينو . وبقيت البيوت وضيعة ستيا بطاحونتها . وكانت أمى تتوقع منه أن يأتى يوما ليقول لها إن نبع الماء قد جف.

حقًا ، لقد كنا كسولين ، وكنا ننفق ببذخ ، ولكن لصا أكبر من باتّا ملانيا لن يولد حقيقة على وجه الأرض . هذا هو أقل ما يمكننى أن أقول له ، باعتبار النسب الذى اضطررت إليه معه .

كان من الحذق بحيث لم يمنع عنا شيئًا أبدًا فى أثناء حياة أمى . ولكن ذلك الرخاء ، وتلك الحرية حتى النزوة ، التى كان يتركنا نستمتع بها ، كانت تنفعه فى إخفاء الهوة السحيقة التى ابتلعتنى أنا وحدى بعد وفاة أمى ؛ فقد حالف أخى الحظ فى أن يتزوج زيجة مربحة فى وقت مناسب .

أما زواجى أنا ....

« هل يجب أن أتحدث ، يا دون إليجو ، عن زواجى ؟ »

يرد علىَّ دون إليچو بللجرينوتو وهو فى أعلى سلم أعمدة الإنارة :

« .. ولم لا ؟ أجل بتهذب ... »

« وبأى تهذب ! فأنت تعلم علم اليقين أن ... »

ويضحك دون إليچو والكنيسة الصغيرة المهجورة كلها معه .

ثم ينصحنى :

« لو أنى فى مكانك ، ياسيد باسكال ، لقرأت أولا إحدى قصص بوكاتشو أو باندللو لاكتساب الأسلوب ، الأسلوب » .

دون إليچو مصاب بعقدة الأسلوب .. أف ! سأدون على عجل ، كما يرد على ذهنى. تشجع إذن ؛ هيا !

(٤)

هكذا كان

فى يوم من الأيام – فى أثناء القنص – وقفت متأثرًا تأثرًا غريبًا ، أمام كومة صغيرة من القش منتفخة البطن يعلو عمودها قدر صغير .

قلت له " أعرفك ، أعرفك ... »

وفجأة صحت :

« خذ ! ياباتا ملانيا »

وأخذت مذراة كانت هناك ملقاة على الأرض وغرزتها فى بطنه بكل لذة ، حتى إن القدر الموضوع أعلى العمود كاد أن يسقط . وإذا بباتا ملانيا يتصبب عرقا وينفخ وهو يرتدى قبعته مائلة ميلا طفيفًا .

كان كل شيء يتدلى : من وجهه الضخم الطويل كان يتدلى من هنا وهناك حاجباه وعيناه ؛ وكان أنفه يتدلى على شاربيه البليدين وعلى شعر ذقنه ؛ وكان كتفاه يتدليان من أسفل رقبته ؛ وكان كرشه الضخم يتدلى حتى الأرض تقريبا ؛ لأن قربه من ساقيه القصيرين الثخينين ، اضطر الترزى لتفصيل السروال واسعا حتى يغطى هذين الساقين ، وهكذا كان يبدو من بعيد وكأنه يرتدى ثوبا سفليًا ، وأن كرشه يصل حتى الأرض .

والآن كيف كان ملانيا يستطيع بجسده هذا أن يكون لصًا ، لا أعلم . فاللصوص أيضا ينبغى – كما أتصور – أن تكون لهم هيئة معينة ، لم تكن له كما يبدو لى .

كان يمضى بطيئًا بكرشه المتدلى هذا ، ويداه خلف ظهره دائما ، وكان يخرج صوته الواهن مثل صوت المواء بصعوبة كبيرة . ولكم يسعدنى أن أعلم كيف كان بضميره بعد السرقات التى كان يقترفها دوما للإضرار بنا . ولأنه لم يكن فى حاجة ، أى حاجة ، - كما قلت - لاقترافها ، فلابد أنه كان يبررها لذاته ويجد لها سببًا . ربما - هذا ما أقوله أنا - كان يسرق ليلهو بشكل ما ، الرجل المسكين !.

لابد أنه كان - فى داخل ذاته - مغموما غما هائلا بسبب زوجته ، وهى زوجة من تلك الزوجات اللائى يفرضن احترامهن .

كان قد ارتكب خطأ اختيار زوجته من مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، الذى كان دنيئا جداً . وها هى هذه المرأة ، وقد تزوجت برجل من مستوى مثل مستواه ، تضايقه أيما ضيق وتعلن له فى كل مناسبة - وهذا أمر طبيعى - أنها من أصل طيب وأن فى بيتها كانوا يفعلون هكذا وهكذا . وهاك ملانيا المطيع يفعل هكذا وهكذا - كما كانت تقول هى - حتى يبدو سيداً هو الآخر ، ولكن هذا كان يكلفه الكثير ، وكان عرقه يتصبب ، ويتصبب .

وزيادة على هذا فإن السيدة جوندالينا ، بعد زواجها بفترة وجيزة ، مرضت مرضا لم تستطع الشفاء منه ؛ لأن شفاءها كان يتطلب منها تضحية تفوق قدراتها ؛ أن تحرم نفسها - وليس أقل - من أنواع من الحلوى بالترفاس ، كانت تحبها حبًا شديداً ، ومن ماكولات شهية أخرى وكذلك - بل وعلى وجه خاص - من النبيذ ، وليس لأنها تشرب منه كثيراً ، أتحدى! لأنها من أصل طيب : ولكن ما كان لها أن تشرب منه ولو قيراطًا .

كنت أدعى أنا وبرتو أحيانًا ، ونحن فى صبانا ، للغداء عند ملانيا . وكان من الممتع أن نستمع إليه وهو يعظ - مع الاحترام اللازم - زوجته عن الصوم ، بينما هو يأكل ويلتهم بشهية ولذة أشهى الماكولات .

كان يقول « أنا لا أقر أن يبقى الإنسان مريضا متألما يوما كاملا فى مقابل اللذة التى يشعر بها عندما يبتلع لقمة مثل هذه (ويبتلع اللقمة) . ما هو نوع الصلصة

الموجودة ؟ أنا متأكد أنى سأعانى منها معاناة عميقة فيما بعد . وينادى الخادمة – ياروزينا! أعطنى شيئًا آخر منها . لذيذة ، صلصلة المايونيز هذه ! » .

«خنزيريز!» كانت الزوجة تندفع عندئذ وقد احتد غضبها «يكفى هذا ! انظر ، يجب أن يجعلك الله تحس بما يعنيه مرض المعدة . هكذا تتعلم أن تراعى مشاعر زوجتك» .

فكان ملانيا يهتف وهو يصب بعض النبيذ : «ماذا ، ياجونداليينا ألا أراعيك ؟» فكانت زوجته تجيبه بأن تنهض من جلستها ، وتنتزع من يديه الكوب وتذهب لتلقى بالنبيذ من النافذة .

وكان هو يتنهد وقد ساءه ما فعلت «ولماذا ؟ »

فترد زوجته :

« لأنه سم لمعدتى ! هل ترانى أصب منه قيراطًا فى الكوب لأشربه . خذه منى واذهب لإلقائه من النافذة . كما فعلت أنا ، هل تفهم ؟ » .

وكان ملانيا يشعر بالقهر ، ويبتسم ، وينظر مرة إلى برتو ومرة أخرى إلىّ ثم مرة ثالثة إلى النافذة ثم إلى الكوب ، ثم يقول :

« يالله ، ألعلك طفلة ؟ أمعى أنا هذا العنف ؟ لا ، لا ياعزيزتى : أنت ، وأنت وحدك يجب أن تكبحى نفسك بالعقل .. » .

فكانت الزوجة تصرخ « وكيف ؟ بالغواية قرب عينى ؟ بأن أراك تشرب وتتلذذ وتنظر إليه فى الضوء لكى تغيظنى ؟ اذهب عنى ! لو أنك كنت زوجا آخر ، وحتى لا تجعلنى أعانى .. » .

حسنا ، وصل ملانيا إلى هذا الحال : ولم يعد يشرب نبيذا لكى يقدم لزوجته قدوة فى الامتناع عن الملذات ، وحتى يوفر عليها المعاناة .

ثم .. كان يسرق .. آه أتحدى ! كان يشعر أن عليه أن يفعل شيئًا ما .

إلا أنه ، بعد وقت قليل ، علم أن السيدة جوندالينا كانت تشرب هى النبيذ سرًا . وكأنه لكى لا يؤذيها ، يكفى ألا يلاحظ الزوج هذا . فبدأ ملانيا هو أيضا فى شرب النبيذ ، ولكن خارج البيت ، حتى لا يؤذى مشاعر زوجته .

وعلى الرغم من هذا استمر فى الحقيقة فى السرقة . ولكنى أعلم أنه كان يريد من كل قلبه أن يحصل من زوجته على تعويض عن الشقاء الذى لا نهاية له والذى كانت تسببه له ؛ أى أنه كان يرغب أن يقر قرارها يوما ما بأن تهبه ابنا . نعم ، إذن فللسرقة هدف وسبب. ماذا لا يفعل الإنسان من أجل أبنائه ؟

ولكن زوجته كانت تذبل يوما بعد يوم ؛ وما كان ملانيا قادرًا على أن يعبر لها عن رغبته الجامحة هذه . قد تكون أيضا عاقرًا بطبيعتها . وكان ينبغى أن يراعى مرضها مراعاة كبيرة . وإن ماتت بعد هذا بسبب الولادة ، اللهم احفظها ! ثم كانت هناك مخاطرة ألا تستكمل فترة حمل الابن .

هكذا كان يرضى بالبلاء .

هل كان صادقًا ؟ لم يُظهر صدقه بدرجة كافية عند وفاة السيدة جوندالينا . بكاها ، نعم بكاها كثيرًا ، وذكرها دوما بوفاء كله تقدير ، حتى أنه لم يرد أن تحل مكانها سيدة أخرى . لا ! لا ! وكان يمكنه هذا تمامًا بثرائه الذى حققه ؛ لكنه أخذ ابنة عامل زراعى صحيحة البدن ، ويافعة ، وقوية ومرحة ؛ وهكذا فقط حتى لا يكون هناك شك فى أنه سيرزق منها بالبنين المرغوبين . ولكن ألم يتعجل الأمر ؟ بلى... ولكن ينبغى أن يأخذ أيضا فى اعتباره أنه لم يعد شابا ، وأنه لا وقت يضيعه هباء .

وأوليفا[1] ، ابنة بيترو سالڤونى ، عاملنا فى مزرعة دوى ريڤييرى ، كنت أعرفها جيدًا منذ صباها .

---

(١) اسم أوليفا يعنى زيتونة (المترجم) .

بسببها ، كم من الآمال عقدت أمي ؛ أي أن آخذ في التعقل وأن أستمتع برعاية المزرعة . لم تعد ملابسها تسعها من الفرح لهذا الأمل ، مسكينة ! ولكن في يوم من الأيام فتحت العمة سكولاستيكا المروعة عينيها :

« ألا ترين أيتها البلهاء ، أنه يذهب دائمًا إلى دوى ريڤييرى !؟ »

« نعم ، لجمع الزيتون » .

« لأوليڤا ، لأوليڤا واحدة ، لزيتونة واحدة ، يا حمقاء ! »

عندئذ وبختني أمي توبيخًا شديدًا ؛ أن أنتبه ألا أقع في الخطيئة المهلكة ، خطيئة الغواية وأن أكون سببًا في ضياع فتاة مسكينة إلى الأبد ، إلخ ، إلخ .

لكن ما كان هناك خطر ؛ كانت أوليڤا شريفة ، شرفًا راسخا لا ينهار ؛ لأنها كانت تعي وعيًا راسخًا الشر الذي تفعله ، لو أنها تنازلت . وكان وعيها هذا ينزع عنها خجل العفاف الزائف وتفاهته ، ويجعلها جريئة وطليقة .

وضحكاتها ! كرزتان ، شفتاها ! وأسنانها ، يالها من أسنان !

ولكن من شفتيها هاتين ، ولا قبلة ؛ ومن أسنانها ، نعم ، عضة عقابا لي ، عندما كنت أمسك بذراعها ولا أريد تركها إلا بعد أن أعطيها قبلة على الأقل على شعرها .

ولا غير هذا .

والآن ، وهي جميلة هكذا ، وشابة هكذا ويانعة ، وتصبح زوجة لباتّا ملانيا ... ربما! من تواتيه الشجاعة ليدير ظهره لحظوظ معينة ؟ إلا أن أوليڤا كانت تعلم علم اليقين كيف كوّن ملانيا ثروته ! في أحد الأيام حدثتني عنه حديثًا سيئًا ؛ ثم من أجل هذه الثروة – نعم من أجلها – تزوجته .

ومر عام على الزواج ، ثم عامان ؛ ولا أبناء .

ولأن ملانيا كان على اقتناع منذ زمن طويل بأنه لم يرزق بأبناء من زوجته الأولى بسبب عقمها أو مرضها المستمر ، فلم يساوره الشك الآن ولو من بعيد أن يكون هو السبب ، وبدأ يبدي تجهمه لأوليڤا .

« لا شيء ؟ »

« لا شيء » .

انتظر عاماً آخر ، العام الثالث : ولا جدوى . عندئذ أخذ يؤنبها تأنيبا واضحاً ؛ وفى النهاية ، بعد عام آخر ، وقد يئس يأساً تاماً ، وعندما بلغ به الغيظ مبلغه أخذ فى إهانتها دون رادع ، صارخا فى وجهها أنها بنضارتها الظاهرة قد خدعته ، خدعته ؛ وأنه فقط من أجل أن يرزق بولد قد رفعها إلى ذلك المقام ، الذى كانت تملؤه سيدة ، سيدة حقيقية ، ما كان ليقترف إهانة مثل هذه لذكراها لولا هذا الغرض .

وكانت أوليڤا المسكينة لا ترد ، ولا تعلم ماذا تقول ؛ وكانت تتردد كثيراً على بيتنا لكى تبوح بمكنون صدرها لأمى التى كانت تطمئنها بكلمات طيبة ، بأن تتمسك بالأمل فهى فى النهاية شابة ، وشابة صغيرة .

« هل عمرك عشرون سنة ؟ » .

« اثنتان وعشرون .. » .

إذن ، صبراً ! فقد حدثت أكثر من حالة رزق فيها الزوجان بابن بعد عشر وكذلك بعد خمس عشرة سنة من يوم الزفاف .

« خمس عشرة ؟ ولكن ، وهو ؟ فهو عجوز ، وإذا ... » .

منذ العام الأول أصاب أوليڤا الهاجس أن من بينهما هو وهى - كيف نقول ؟ - ربما كانت العلة فيه هو وليست فيها ، على الرغم من أنه كان يصر على نفى هذا . ولكن أكان من الممكن إثبات هذا ؟ كانت أوليڤا عند الزواج قد أقسمت لنفسها أن تظل شريفة ، وكانت لا تريد، حتى وإن كان الهدف أن تستعيد سلامها ، أن تحنث بقسمها .

كيف أعلم هذه الشئون ؟ شىء جميل ، كيف أعرفها !... لقد قلت إنها كانت تأتى لتبوح بمكنون صدرها فى بيتنا ، وقلت إنى عرفتها منذ صباها ؛ والآن أراها تبكى لمعاملة ذلك العجوز البشع غير الكريمة ، وتبجحه الأحمق المثير ، و... هل كان علىّ أن أقول كل شىء ؟ لا ، لم أقل أكثر من هذا ؛ وهذا يكفى .

سرعان ما هوّنت الأمر على نفسى . كانت لدى آنذاك ، أو كنت أعتقد أن لدى (وهو الشىء نفسه) أمور كثيرة تدور برأسى . وكانت عندى أموال توفر - إلى جانب

أشياء أخرى – أفكاراً معينة أيضاً ، وهذه الأفكار ما كانت لتدور بخلدى بدونها . وكان يساعدنى فى إنفاقها مساعدة لعينة چيرولامو الثانى بومينو ، الذى لم تتوفر له ، أبداً أموال كافية بسبب تقتير أبيه الحكيم .

كان بومينو كظلنا ، على التوالى ، كظلى وكظل برتو ، وكان يتلون بقدرة فريدة عجيبة، حسب تعامله مع برتو أو معى . عندما كان يلتصق ببرتو ، كان يتحول فوراً إلى شاب شديد التأنق ، وعندئذ كان على أبيه – وهو أيضا يميل إلى الأناقة – أن يفتح فوهة الكيس قليلاً ، ولكنه لم يكن يستمر مع برتو إلا قليلاً . فكان أخى ، عندما يراه يقلده حتى فى طريقة سيره ، يفقد للتو صبره ، خشية السخرية ، ويسىء معاملته إلى أن يبتعد عنه . عندئذ كان بومينو يعود ليلتصق بى ، ويعود أبوه لإحكام إغلاق فتحة الكيس .

كنت أنا أكثر صبراً معه ، لأنى كنت أسعى للاستمتاع بوجوده معى . ثم كنت أندم على هذا . وكنت أعترف بأنى تجاوزت بسببه حدودى فى إحدى المغامرات ، أو أنى قهرت طبيعتى أو بالغت فى إظهار مشاعرى حباً فى إدهاشه أو توريطه فى مأزق كنت أعانى طبعاً من عواقبه .

وفى أحد الأيام ، وفى أثناء رحلة الصيد وبمناسبة الحديث عن ملانيا ، وكنت قد حدثته عن بطولاته مع زوجته ، قال لى إنه قد رمق فتاة ، وهى ابنة بنت خال ملانيا ، وإنه قد يرتكب معها حماقة كبرى إعجابا بها . كان قادرا على هذا ، خاصة وأن الفتاة كانت لا تبدو عنيدة ، ولكنه لم يجد وسيلة حتى ذلك الوقت لمجرد الحديث إليها .

قلت له ضاحكا : « قل الحقيقة ، لم تواتك الشجاعة لمخاطبتها ! » .

نفى بومينو ، ولكن وجهه تضرج خجلا ، وهو ينفى .

وأسرع مستطرداً : ولكنى تحدثت مع الخادمة ، وعلمت عنها أخباراً جميلة . أتعلم ؟

قالت لى إن ملانّو[1] صديقك يستقبلانه فى بيتهما باستمرار وإنه ، كما يبدو فى الأفق، يفكر فى أن يقوم بضربة شديدة بالاتفاق مع ابنة خاله وهى امرأة شمطاء » .

« أية ضربة ؟ »

« لا أدرى ، تقول إنه يذهب إلى هناك ليبكى على مصيبته ، على عدم إنجابه أبناء . وأما العجوز فتجيبه بوجهها الجامد المتجهم أن هذا جزاؤه . ويبدو أنها عند موت زوجة ملانيا الأولى ، كانت قد عزمت على أن تزوجه ابنتها ، وأنها سعت بكل الطرق لإنجاح مقصدها ؛ وأنها بعد ذلك ، وبعد أن تخلصت من أوهامها قالت عنه أقوالاً سيئة وجهتها لذلك الحيوان ، عدو الأقارب وخائن دمه .. إلخ ، إلخ ، وأنها تشاجرت كذلك مع ابنتها التى لم تعرف كيف تجتذب قريبها . والآن فإن العجوز يظهر أخيرا ندمه الشديد لعدم إسعاده بنت ابنة خاله ، ومن يدرى . أية فكرة مخادعة أخرى قد خططت لها تلك العجوز الشمطاء .

وضعت يدىّ على أُذنىًّ ، وصرخت فى بومينو :

« اصمت ! »

ظاهريا لم أكن أبدو ساذجا شديد السذاجة ، ولكنى فى الحقيقة كنت كذلك فى ذلك الوقت . وعلى كل حال – وقد وصلتنى أخبار المشاجرات التى جرت والتى كانت تجرى فى بيت ملانيا – فكرت أن شكوك تلك الخادمة قد تكون شكوكا صحيحة بشكل ما ؛ وأردت أن أحاول – من أجل مصلحة أوليفا – استيضاح بعض الأمور . أخذت من بومينو عنوان تلك العجوز الشمطاء . وأوصانى بومينو خيراً بالفتاة .

أجبته « لا يكن عندك شك ، فسوف أتركها لك ، يا للشيطان ! »

وفى اليوم التالى ، وبحجة إحدى الكمبيالات التى تصادف أن عرفت من أمى فى ذلك الصباح أنها تستحق السداد فى اليوم نفسه ، ذهبت أبحث عن ملانيا فى بيت

---

(١) هذا اللفظ "malanno" يعنى مصيبة "وبليّة" وحروف اللفظ الإيطالية قريبة من اسم ملانيا Malagna (المترجم) .

أرملة بسكاتورى. وتعمدت الجرى ، وأسرعت بالدخول وقد ارتفعت حرارتى وسال عرقى .

"يا ملانيا ، الكمبيالة !"

لو أنى لم أعلم قبلا أن ضميره لم يكن نظيفا ، للاحظت هذا دونما شك فى ذلك اليوم ، وأنا أراه يقفز على قدميه شاحبا ، وقد تغيرت قسمات وجهه ويتمتم :

« أىّ .. أىّ كم ... ، أىّ كمبيالة »

« كمبيالة كذا وكذا المستحقة اليوم ... لقد أرسلتنى أمى التى أصابها قلق شديد بسببها! » سقط باتّا ملانيا جالسا ، وخرجت منه آهة طويلة نفث فيها الخوف كله الذى انتابه للحظة .

« لقد تم ! .. تم كل شىء ! .. يا للفزع ... قمت بتجديدها ، هه ؟ لثلاثة أشهر ، مع دفع الفوائد ، طبعا . هل قطعت هذه المسافة جريا لهذا الغرض التافه حقًا ؟ » .

وضحك ، وضحك ، وأخذ كرشه يرتفع وينخفض ، ودعانى للجلوس ؛ وقدمنى للمرأتين : « ماتيا باسكال . ماريانا دوندى ، أرملة بسكاتورى ، ابنة خالى . روميلدا ، قريبتى » .

وأراد أن أشرب شيئًا ، حتى أستعيد هدوئى بعد الجرى .

« ياروميلدا ، إن لم يزعجك أن ... » .

وكأنه كان فى بيته .

نهضت روميلدا وهى تنظر إلى أمها لكى تفهم من نظرة عينيها ، وبعد قليل ، وعلى الرغم من اعتراضى ؛ عادت بصينية صغيرة عليها كوب وزجاجة فرموت . وفى الحال ، وما إن رأت الأم هذا ، حتى قامت ساخطة وهى تقول لابنتها :

« لا ! لا ! أعطنى ! »

وانتزعت الصينية من يديها وخرجت لتعود بعد قليل حاملة صينية جديدة براقة مدهونة باللاكيه وعليها مشروب روحى ؛ فيل مفضض ، على ظهره برميل زجاجى صغير وكئوس كثيرة صغيرة معلقة حوله كان لها رنين .

كنت أفضل الفرموت ، شـــربت المشـــروب الروحـــى ، وشرب منه ملانيا والأم ، أما روميلدا فلم تشرب .

بقيت قليلاً فى المرة الأولى تلك ، حتى يكون لدى مبرر للعودة ، قلت إنى متعجل لأطمئن أمى بخصوص تلك الكمبيالة ، وإنى سأعود خلال أيام حتى أستمتع بصحبة السيدتين لوقت أرحب .

لم يبد لى ، من طريقة تحية ماريانا دوندى ، أرملة بسكاتورى ، أنها تلقت بالترحيب خبر زيارتى زيارة ثانية . فقد قدمت لى بالكاد يدها ؛ يدًا باردة ، وجامدة ومعقلة ، وصفراء شاحبة ، ونظرت إلى أسفل وضغطت شفتيها . وعوضتنى ابنتها بابتسامة لطيفة تعد باستقبال ودى ، وبنظرة حلوة وحزينة فى آن واحد من تلكما العينين اللتين كان تأثيرهما علىّ تأثيرًا قويًا منذ أول وهلة ؛ كانت عيناها خضراوين ، لونهما غريب ، وكانتا داكنتين وحادتين تظللهما رموش طويلة جداً ، عينان ليليتان ، بين خصلتين من الشعر الأسود كالأبنوس ، مموجتين تنزلان على جبهتها وصدغيها لتبرزا بياض بشرتها الناصع .

كان البيت متواضعًا ؛ ولكن بين الأثاث القديم كان يظهر عدد من القطع الجديدة ، اللامعة غير الملائمة بحداثتها الظاهرة ، على سبيل المثال : أباجورتان كبيرتان من الخزف لاتزالان جديدتين ، بهما كرات من الزجاج المصنفر ذات أشكال غريبة ، فوق رف شديد التواضع ، سطحه من رخام صار لونه أصفر ، يحمل مرآة معتمة يحيط بها إطار مستدير مقشر هنا وهناك ، وتبدو كأنها تتفتح فى الحجرة مثل تثاؤب رجل جائع . وأمام الأريكة المتهالكة كانت توجد منضدة صغيرة بأرجلها الأربعة المذهبة وسطحها من الخزف المرسوم بألوان زاهية ؛ ثم كان هناك صوان صغير بالحائط ، مدهون باللاكيه اليابانى ، إلخ ، إلخ. وكانت عينا ملانيا تنظران إلى هذه القطع الجديدة بالرضا والإعجاب

تماماً مثل نظرته إلى حامل المشروب الروحى الذى حملته ابنة الخال أرملة بسكاتورى فى موكب النصر والفخار .

وكانت جدران الحجرة مغطاة بصور قديمة غير قبيحة الشكل ، أراد ملانيا أن يرينى بعضها قائلا لى إنها من عمل فرانشسكو أنطونيو بسكاتورى ، ابن خاله ، وهو نحات قدير (مات مصابا بالجنون فى تورينو - أضاف هذا بصوت خفيض) ، وأراد أن يعرض عليّ لوحة بصورته .

« نفّذ هذه اللوحة بيديه وبنفسه ، أمام المرآة » .

وأخذت أنظر إلى روميلدا ثم إلى أمها وكنت قبل هذا بقليل أفكر : " لعلها تشبه أباها!" والآن وأمام اللوحة بصورته ، لم أعد أعلم ماذا أقول .

لا أريد أن أجازف بظنون مهينة . حقيقة أنا أعلم أن ماريانا دوندى ، أرملة بسكاتورى ، قادرة على أى شيء ؛ ولكن كيف أتخيل رجلاً - وبخاصة أنه رجل جميل - قادراً على أن يحبها؟ إلا إذا كان مجنوناً ، أكثر جنوناً من زوجها .

نقلت إلى مينو انطباعات زيارتى الأولى تلك . وحدثته عن روميلدا بحرارة الإعجاب، حتى إنه اشتعل فوراً بالإعجاب بها وبسعادته بأنها حازت إعجابى أنا أيضا ، وبأن ينال موافقتى .

عندئذ سألته عن مقاصده : نعم ، مظهر الأم يشى بأنها عجوز شمطاء ؛ لكن ابنتها - وأقسم على هذا - كانت شريفة . وما من شك فى أهداف ملانيا الشائنة ؛ ولهذا يجب إنقاذ الفتاة بأى ثمن وبأسرع ما يمكن .

وسألنى بومينو وهو مفتون ومتعلق بما تنطق به شفتاى : « كيف ؟ »

« كيف ؟ سنرى . يجب أولا وقبل كل شيء أن نتأكد من أمور كثيرة ؛ أن نسبر الأغوار ؛ أن ندرس الأمر جيدا . طبعا لا يمكن اتخاذ قرار كهذا بتسرع . اتركنى أعمل : سأساعدك فهذه المغامرة تعجبنى » .

وعندئذ اعترض بومينو بخجل وقد بدأ يشعر بالقلق وهو يرانى متيما .

« هل تقول – أن أتزوجها ؟ »

« أنا لا أقول شيئًا ، فى هذا الوقت . هل أنت خائف ؟ »

« لا . لماذا ؟ »

« لأنى أراك تجرى وتعدو . على رسلك ، وفكر . فإذا وصلنا إلى معرفة أنها فعلا كما ينبغى أن تكون : طيبة وعاقلة ، وعفيفة (جميلة هى ، لاشك ، وتعجبك ، أليس كذلك ؟) – أوه! والآن فلنفترض أنها حقيقة تتعرض بسبب خبث أمها وخبث ذلك الوغد الآخر لخطر بالغ – المجزرة – لبيع شائن : فهل ستشعر بالتردد فى القيام بعمل صالح وبعمل البر لإنقاذها؟».

قال بومينو « أنا لا .. لا ! ولكن .. ماذا عن أبى ؟ » .

« هل سيعترض ؟ وما السبب ؟ بسبب الدوطة ، أليس كذلك ؟ لا لعلة أخرى ! لأنها ، هل تعلم ؟ لأنها ابنة فنان ، نحات قدير ، متوفٍ .. نعم، توفى منذ زمن فى تورينو .. ولكن أباك غنى ، وليس له إلا أنت وحدك : ولهذا يمكنه أن يرضيك ، بدون أن يهتم بالدوطة ! فإذا لم تستطع أن تقنعه بالحسنى ، لا تخش شيئًا : تطير من العش ، ويتم إصلاح كل شيء ، هل قلبك من القش ؟ » .

ضحك بومينو ، وعندئذ بيّنت له بسرعة وببساطة شديدتين أنه ولد زوجا ، كما يولد الشاعر شاعراً . ووصفت له بألوان زاهية وفاتنة سعادة الحياة الزوجية مع فتاته روميلدا : العاطفة والرعاية والعرفان الذى ستشعر به نحوه ، وهو منقذها . وختامًا قلت له :

« والآن يجب عليك أن تجد الوسيلة والطريقة لكى تشد انتباهها إليك ، وأن تكلمها أو أن تكتب لها . انظر ، فى هذه اللحظة ، رسالة منك لها ، وهى محاصرة بهذا العنكبوت ، قد تكون طوقا للنجاة . وفى هذه الأثناء سأتردد أنا على بيتها ؛ سأرى ؛ وسأحاول أن أنتهز الفرصة لأقدمك لها . هل نحن متفقان ؟ » .

« اتفقنا » .

لماذا كنت أظهر شغفى الشديد بتزويج روميلدا ؟ - للاشىء . أكرر : للاستمتاع بأن أذهل بومبينو وأدير رأسه . كنت أتكلم وأتكلم ، وكانت الصعوبات تتلاشى . كنت مندفعا ، وأتناول كل الأمور ببساطة . ولعل هذا هو السبب فى أن أحبتنى النساء آنذاك بالرغم من عينى تلك الحولاء ومن جسمى الجاف وكأنه عود من الحطب . أما هذه المرة - وهذا ما يجب أن أقوله - فكان السبب فى اندفاعى هو أيضا رغبتى فى اختراق شبكة العنكبوت التى نسجها ذلك العجوز القذر وجعله يشعر بمرارة الخيبة فيطول أنفه شبراً ؛ وكذلك التفكير فى المسكينة أوليفا ، وأيضا - ولم لا - الأمل فى عمل الخير لتلك الفتاة التى تركت فىّ - حقيقةً - أثراً كبيراً .

ما ذنبى أنا إن كان بومبينو قد نفذ أوامرى بخجل شديد ؟ وما ذنبى أنا إن كانت روميلدا ، بدلاً من أن تحب بومبينو ، قد أحبتنى أنا ، على الرغم من أنى كنت أحدثها دوما عنه ؟ وما ذنبى ، فى النهاية ، إذا كان مكر ماريانا دوندى ، أرملة بسكاتورى ، قد وصل إلى حد إقناعى بأنى قد استطعت بقدرتى ، وفى وقت ضئيل، أن أتغلب على ارتيابها وعدم ثقتها وأن أجرى معجزة : معجزة إضحاكها أكثر من مرة ، بدعاباتى الغريبة ؟ رأيتهما تلقيان بأسلحتهما شيئًا فشيئًا ، ووجدتنى أستقبل بحفاوة ؛ وظننت أنه مع وجود شاب فى البيت ، شاب غنى (كنت مازلت أعتقد أنى غنى) لا يضع حبه لابنتها موضع الشك ، قد تخلت فى النهاية عن فكرتها الظالمة ، إن كانت قد خطرت ببالها أبداً . إذن : لقد وصلت أخيراً إلى التشكك فى هذا !

كان ينبغى على - حقيقة - أن أنتبه إلى أنى لم أعد ألتقى بملانيا فى بيتها ، وبأنها كانت تستقبلنى فقط فى الصباح ، وأن هذا قد لا يكون بلا سبب . ولكن من ذا الذى كان يتبصر فى هذا ؟ كان ذلك أمرا طبيعيا ، لأنى فى كل مرة كنت أقترح القيام بنزهات خلوية فى الريف التماسًا لمزيد من الحرية ، كانت هذه النزهات تتم فى الصباح . ثم إنى أحببت روميلدا أنا أيضًا ، رغم استمرارى فى حديثى لها عن حب بومبينو ، وعن حبه الجنونى لتلكما العينين الجميلتين ، ولذلك الأنف الصغير ، ولذلك الفم ، ولكل شىء ، وأيضا لحسنة صغيرة فى رقبتها وكذلك لأثر جرح طفيف غير ظاهر فى إحدى يديها ، التى كنت أقبلها وأقبلها وأقبلها ... بدلا من بومبينو ، تقبيلا شديداً ومفرطًا .

ومع هذا ، لعل شيئًا خطيرًا ما كان ليحدث لو لم تكف روميلدا فجأة عن المزاح الذى طال فى صباح أحد الأيام (كنا فى بستيا وتركنا الأم لتشاهد الطاحونة) عن العاشق البعيد الخجول ، ولو لم تنتبها نوبة مفاجئة من البكاء ، ولو لم تلق بذراعيها حول رقبتى تستحلفنى وجسدها يرتعش كله أن أكون بها رحيما ؛ وأن أنتزعها وآخذها بعيدًا عن بيتها ، بعيدًا عن أمها السيئة تلك ، عن الجميع ، وحالا ، حالاً ، حالاً ... بعيدًا ؟ وكيف كنت أستطيع أن آخذها بعيدًا ، وفى الحال ؟

وبعد هذا ، نعم ، بحثت لعدة أيام ، وكنت لا أزال متيما بها عن الوسيلة لهذا ، وقد عقدت عزمى على كل شىء بأمانة وشرف . وأخذت أعدّ أمى لخبر زواجى الوشيك ، وقد صار لا مفر منه لما يمليه علىّ ضميرى ؛ وإذا بخطاب يصلنى ، دون أن أدرى لهذا سببًا ، خطاب جاف وجاف من روميلدا تقول لى فيه ألا أهتم بأمرها بعد ، وألا أذهب أبدا إلى منزلها على اعتبار أن علاقتنا قد انتهت إلى الأبد .

آه هكذا ، وكيف ؟ ماذا حدث ؟

فى اليوم نفسه جاءت أوليفا باكية إلى بيتنا لتخبر أمى أنها أتعس نساء العالمين وأن السلام فى بيتها قد انهار إلى الأبد . لقد نجح رجلها فى أن يثبت أنه لا ينقصه أن يكون له أبناء ، وقد جاء ليخبرها بهذا مزهوًا بنصره .

كنت حاضرًا فى هذا المشهد . ولا أعلم كيف استطعت أن أكبح نفسى فى تلك اللحظة ؛ لقد منعنى احترامى لأمى . ولما استبد بى الغضب والقرف ، هربت إلى حجرتى وأغلقت بابها علىّ ، ولما صرت وحدى بدأت ، وأصابعى بين شعرى ، أتساءل كيف استطاعت روميلدا بعدما حدث بيننا أن تهوى إلى هذا الفعل الدنىء . آه الابنة مثل أمها ! فكلاهما لم تخدعا بدناءة العجوز فقط ، وانما خدعتانى أنا أيضا ، أنا أيضًا ! وكيف أنها مثل أمها ، هى أيضا استغلتنى استغلالا دنيئًا ، لهدفها الدنىء ، ولرغبتها فى النهب ! وأوليفا المسكينة تلك ! ضاعت ، ضاعت ..

قبل حلول المساء خرجت ، وجسدى لايزال ينتفض ، متجها إلى بيت أوليفا . كان فى جيبى خطاب روميلدا .

كانت أوليڤا تجمع أغراضها وهى تذرف الدموع : كانت تريد العودة إلى بيت أبيها الذى لم تلمّح له حتى ذلك الوقت - حرصا منها - بما ألمّ بها من معاناة .

قالت لى : « ولكن ، ما الذى يبقينى هنا ، وقد انتهى الأمر ؟ لقد انتهى ! لو أنه ذهب مع أخرى ، فلعلى .. » .

سألتها « إذن فأنت تعلمين مع من ذهب ؟ » .

أومأت برأسها أكثر من مرة وأخفت وجهها بين كفيها وهى تجهش بالبكاء .

ثم صاحت وهى ترفع ذراعيها . « فتاة ! والأم ! الأم ! موافقة ، هل تفهم ؟ إنها ؟»

قلت أنا « أتقولين لى ؟ خذى : اقرأى » .

وقدمت لها الخطاب .

نظرت أوليڤا إليه ، فى شرود ، وأخذته وسألتنى :

« ماذا يعنى هذا ؟ » .

كانت تعرف مبادىء القراءة ، وبنظرتها سألتنى إن كان من الضرورى أن تبذل ذلك الجهد ، فى تلك اللحظة .

ألححت عليها أنا « اقرأى » .

وعندئذ جففت دموع عينيها ، وفتحت الورقة وأخذت فى تفسير رموز الكتابة ببطء شديد وهى تقرأ مقاطع الكلمات .

بعد الكلمات الأولى جرت بعينيها إلى التوقيع ، ونظرت إلىّ وهى تحملق بعينيها :

« أنت ؟ » .

قلت لها . « أعطنى الخطاب ، سأقرؤه لك أنا ، بكامله » .

ولكنها ضمت الورقة إلى صدرها ، وصاحت :

« لا ، لن أعطيه لك ! أنا أحتاج إليه ، الآن ! » .

وسألتها مبتسماً ابتسامة مُرَّة : « وفيما ينفعك ؟ أتريدين عرضه عليه ؟ ولكن فى هذا الخطاب كله لم تَرَىْ فيه كلمة قد تثنى زوجك عن الاعتقاد بما هو سعيد ، على العكس ، بالاعتقاد فيه . لقد أوقعنا به فى الفخ ، دعك من هذا » .

تنهدت أوليفا « آه ، هذا حقيقى ، حقيقى ! لقد جاءنى ورفع يديه فى وجهى ، صارخا فىّ أن أحذر من أن أشكك فى شرف قريبته » .

قلت وأنا أضحك ، فى مرارة : « وإذن ؟ هل ترين ؟ لن تستطيعى الحصول على شىء إذا نفيت . يجب أن تأخذى حذرك من هذا ! بل يجب عليك أن تقولى له نعم ، إنه يستطيع حقًا ، نعم حقا أن يرزق بأبناء ... أتفهمين ؟ » .

والآن وبعد حوالى شهر لماذا انهال ملاّنيا بالضرب على زوجته ، وهرع وقد استشاط غضبا وهو لايزال يرغى ويزبد إلى بيتى صارخًا ، إنه يطالب فورا بإصلاحى للخطأ ، لأنى قضيت على شرف قريبته ، وأضعت يتيمة مسكينة ؟ وأضاف أنه كان يفضل الصمت حتى لا يثير فضيحة . وأنه إشفاقا على تلك المسكينة ، كان قد قرر – وهو لم يرزق بأبناء – أن يأخذ ذلك الوليد عند ولادته كأنه ابنه . ولكنه الآن وبعد أن أراد الله أن يرضيه بأن يكون له ابن شرعى ، له هو ، من زوجته ، فإنه لم يعد قادراً – وليس بقادر بواعز من ضميره – أن يقوم بدور الأب للطفل الآخر الذى ستضعه قريبته .

واختتم حديثه وقد احتقن وجهه غضبا : « تحمَّل مسئوليتك ، ياماتيا ! لتصحح الوضع ياماتيا ! وفورا ولتطعنى فوراً ! ولا يجبرنى أحد على أن أقول ما هو أكثر ، أو أن أتصرف تصرفا غير لائق ! » مادمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة : فلنعمل العقل قليلا . لقد حدثت لى أمور من كافة الألوان والأشكال ، والآن أن أعتبر أبلها أو ... ما هو أسوأ ، فلن يمثل فى الحقيقة بالنسبة لى مصيبة كبيرة . والآن فإنى قد صرت وكأنى خارج نطاق الحياة ، ولم يعد يهمنى شىء . وإذا كنت قد وصلت إلى هذه النقطة ، وهى أنى أريد أن أمعن التفكير ، فإن هذا من أجل الوصول إلى منطق الأشياء فقط .

يبدو لى واضحًا أن روميلدا لم تضطر إلى عمل أى شر ، على الأقل لكى تغرر بخالها . وإلا فلماذا واجه ملانيا – بالضرب والتقريع – زوجته بالخيانة ، واتهمنى أمام أمى بأنى

تسببت فى إهانة قريبته ؟ وتؤكد روميلدا فى الواقع أن أمها ، بعد نزهتنا تلك فى ستيا بوقت قصير ، ولأنها حصلت منها على الاعتراف بحبها الذى كان يربطها بى رباطا لا ينحل، قد ثارت ثورتها وصرخت فى وجهها بأنها لم ولن تقبل أن تزوجها بعاطل ، على شفا الهاوية . والآن وقد جلبت لنفسها أسوأ ما يحدث لفتاة ، فلم يبق لها كأم حقيقة ، إلا أن تحصل من هذه المصيبة على أفضل مكسب من المكاسب . وما هو ، هذا سهل التخمين . وعندما حضر ملانيا فى الموعد المعتاد ، انصرفت الأم من البيت بإحدى الحجج ، وتركتها وحدها مع قريبها ، وعندئذ ألقت روميلدا بنفسها - كما تقول - عند قدميه وهى تبكى بدموع سخينة وجعلته يدرك مصيبتها وما تطلبه الأم منها ، ورجته أن يتدخل ، وأن يدفع أمها إلى اتخاذ مواقف أكثر إنصافا واستقامة ، لأنها صارت لرجل آخر تريد أن تظل وفية له .

وتأثر ملانيا ، ولكن إلى حد ما . وقال لها إنها لا تزال قاصراً ولهذا فهى تحت ولاية أمها التى يمكنها - إن أرادت - أن ترفع أمرى للقضاء ؛ وأن ضميره هو أيضًا لا يسمح له بأن يوافق على زواجها من فتى فاجر مثلى ، يبذر ماله ولا عقل له ؛ ولهذا فهو لا يستطيع أن يشير للأم به ؛ وقال لها إنها أمام غضب الأم وسخطها العادل والطبيعى يجب أن تضحى بشىء ما ، وسوف تعود عليها هذه التضحية بالخير ؛ واختتم حديثه بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر - وبشرط أن يظل هذا الأمر سراً للغاية ــــ إلا أن يتولى هو أمر الجنين ، وأن يقوم بدور الأب ، لأنه ليس لديه أبناء ويرغب رغبة شديدة ومنذ زمن طويل ، أن يكون له ابن .

وأنا أتساءل : هل يمكن أن يكون أكثر صلاحًا من هذا ؟

ها هو : كل ما سرقه من أبى سوف يعيده للابن الوليد .

وما ذنبه هو لو أنى - أنا الجاحد والناكر للجميل - ذهبت بعد هذا لإفساد البيض فى السلة ، لإفساد كل خططه ؟

ابنان ، لا ! إيه ، اثنان ، لا ، ياللهول !

بدا له أن طفلين أكثر من اللازم ، ولعله حسب أن روبرتو ، بزواجه زواجًا مربحًا - كما قلت - لم يضره ضرراً بالغًا ، بحيث يجب عليه أن يرد له ما ظلمه به .

والخلاصة ، أنى بوجودى وسط أناس على هذه الدرجة من المهارة ، صرت أنا الذى فعل الشر كله . وعلى هذا فكان يجب على أن أدفع الثمن .

رفضت فى البداية ، فى غضب وسخط .. ثم ، وأمام إلحاح أمى ورجائها التى كانت ترى الخراب الذى أصاب بيتنا وتتمنى أن أستطيع أنا الخلاص بشكل من الأشكال ، بأن أتزوج قريبة عدوها هذا ، تنازلت وتزوجت .

وكان غضب ماريانا دوندى - أرملة بسكاتورى - مسلطًا بشكل رهيب على رأسى .

(٥)

النضج

لم تعرف الشمطاء الحياة فى سلام :

كانت تسألنى :« ما النتيجة التى وصلت إليها ؟ ألم يكفك ، أنك تسللت إلى بيتى كاللص لإغواء ابنتى وتدمير مستقبلها ؟ ألم يكفك هذا ؟ » .

وكنت أجيبها : « لا ، يا حماتى العزيزة ! لأننى لو توقفت هنالك ، لقدمت لك معروفا، وخدمة جليلة .. ».

وعندئذ كانت تصرخ فى ابنتها : « هل تسمعينه ؟ إنه يفتخر ، بل ويتجرأ على الافتخار بالبطولة التى ذهب يقترفها مع تلك ... - وهنا أخذت تمطر أوليڤا بوابل من الشتائم؛ ثم قلبت وضع كفيها على جانبيها بحيث يبرز كوعاها للأمام : - لكن ما النتيجة التى حققتها ؟ ألم تدمر ابنك أيضا بهذا ؟ صحيح ، ماذا يهمه هو ؟ فذلك الولد ابنه هو أيضا ، ابنه .. ».

لم تتوقف أبدا عن أن تنفث ، فى النهاية ، بسمها هذا ، وهى تعلم تأثيره على نفس روميلدا ، الغيورة من ذلك الابن الذى كانت أوليڤا ستلده ليحيا فى رخاء وسعادة ، بينما يعيش ابنها فى العوز وفى عدم الاطمئنان للغد ، وسط تلك الحرب الشعواء . وكان مما يزيد من غيرتها ، الأنباء التى كانت تأتى بها بعض النساء الطيبات اللاتى يتظاهرن بأنهن لا يعلمن شيئًا عن العمة ملانيا التى كانت تتمتع بالرضا والسعادة بالنعمة التى شملها بها الله أخيراً : آه، لقد صارت مثل الزهرة ، لم تكن فى يوم من الأيام جميلة ومتنعمة بالرخاء مثلما هى الآن!

أما هى فكانت فى ذلك الوقت هكذا : ملقاة هنالك فوق أحد المقاعد ، وتتلوى بسبب الغثيان المستمر ، شاحبة ومنكسرة ، قبيحة الشكل ، دون أن تمر بها لحظة من لحظات الراحة، ولم تعد تريد الحديث أو أن تفتح عينيها .

هل كان هذا أيضا ذنبى ؟ نعم ، هكذا كان يبدو . لم تعد تستطيع أن ترانى أو تسمعنى وساء الأمر أكثر ، عندما اضطررنا لبيع البيوت لإنقاذ ضيعة ستيا والطاحونة ، وعندما اضطرت أمى للدخول فى جحيم بيتى .

نعم ، لم تنفع عملية البيع هذه فى شىء . فقد فعل ملانيا فعلته الأخيرة، وقد صار له هذا الابن الوليد ، الذى كان يؤهله لأن يكون بلا رادع ولا وازع من ضمير ، فقد اتفق مع المرابين واشترى هو - دون أن يظهر - البيوت بحفنة من النقود . وهكذا ظلت أغلب الديون التى كانت ضيعة ستيا مثقلة بها مكشوفة ؛ ووضعت الضيعة مع الطاحونة من قبل الدائنين تحت الإدارة القضائية . وتمت تصفية أملاكنا .

وماذا كان علينا أن نفعل ؟ أخذت - دون أى أمل تقريبًا - فى البحث عن عمل، أى عمل ، لكى أدبر أمور الأسرة الملحَّة . كنت عاجزًا عن أى شىء ، ولم تكن سمعتى بمغامراتى الشبابية وبميلى للبطالة ، تشجع أحدًا على أن يكلفنى بأى عمل . ثم كانت الأحداث التى أشهدها وأشارك فيها يوميًا فى بيتى ، تحرمنى من ذلك الهدوء الذى كنت أحتاج إليه حتى أتفكر قليلا فيما أستطيع عمله .

وكانت رؤيتى لأمى وهى فى احتكاك مستمر مع أرملة بسكاتورى ، تصيبنى بنفور مستمر ودائم . كانت أمى العجوز القديسة ، وهى لم تعد تجهل أخطاءها ، وإن كانت فى نظرى غير مسئولة عنها ، التى ترجع إلى أنها لم تعرف كيف تصدق أن خبث البشر قد يصل إلى هذا الحد ، كانت أمى تجلس منطوية على نفسها ، ويداها فى حجرها ، وعيناها خفيضتان ، وتجلس فى أحد الأركان وكأنها غير واثقة فى إمكان بقائها هناك فى ذلك المكان؛ وكأنها تنتظر دوما الرحيل ، الرحيل عما قريب - إن أراد الله ! ولم تكن تضايق أحدًا ، حتى الهواء المحيط بها . كانت تبتسم من حين إلى آخر لروميلدا بشفقة ؛ لم تعد تجرؤ على الاقتراب منها ، لأنها فى إحدى المرات ، بعد أيام

قليلة من مجيئها إلى بيتنا ، هرعت لتقديم المساعدة لها ، فإذا بتلك الشمطاء تبعدها بشكل فظ .

« أنا ، أنا ؛ أعلم ما يجب أن أفعله» .

وتوخيا للحذر ، ولأن روميلدا كانت فى تلك اللحظة حقيقة فى حاجة إلى المساعدة ، بقيت صامتا ، ولكنى كنت أتلصص حتى لا يعاملها أحد بشىء من عدم الاحترام .

وكنت ألاحظ فى تلك الأثناء أن حراستى لأمى تثير غضب العجوز الشمطاء إثارة شديدة ، كما كانت تثير غضب زوجتى ، وكنت أخشى أن ينفسًا - فى أثناء عدم وجودى بالبيت - عن غضبهما ، وأن يصبا ما بهما من مرارة ويعاملاها معاملة سيئة .

كنت أعلم علم اليقين أن أمى لن تقول لى شيئًا . وكان هذا يعذبنى . كم من مرة لم أنظر إلى عينيها حتى أرى إن كانت قد بكت ! كانت هى تبتسم لى ، وكانت تربت على بنظرتها ثم تسألنى :

« لماذا تنظر إلى هكذا ؟ »

« هل أنت بخير ، يا أمى ؟ »

كانت تأتى بإشارة طفيفة بيدها وتجيبنى :

« بخير ، ألا ترى ؟ اذهب لزوجتك ، اذهب ؛ فالمسكينة تتألم» .

فكرت أن أكتب لروبرتو ، فى أونيليا ، لأطلب منه أن يأخذ هو أمنا إلى بيته ، ليس للتخلص من ثقل فوق كاهلى ، أتحمله بكل رضا حتى فى الضيق الذى أحيا به ، وإنما من أجل مصلحتها هى وحدها .

ورد برتو بأنه لا يستطيع ، لا يستطيع لأن ظروفه أمام أسرة زوجته وأمام زوجته نفسها كانت ظروفًا مؤلمة جدًا ، بعد ما أصابنا ؛ فهو يعيش على نوطة زوجته ، ولا يستطيع بالتالى أن يفرض عليها كذلك عبء حماتها . وقال إن أمنا قد تجد نفسها كذلك فى الحال نفسه فى بيته لأنه كان يعيش مع أم زوجته ، وهى امرأة طيبة ، نعم ،

ولكن قد تصبح سيئة بسبب الغيرة المحتومة ، والشقاق الذى ينشأ بين الحموات . إذن كان من الأفضل أن تبقى أمنا فى بيتى ؛ وهكذا لن تذهب بعيداً - فى السنوات الأخيرة - عن بلدتها ، ولن تضطر إلى تغيير حياتها وعاداتها . وأعلن فى النهاية عن ألمه لعدم قدرته - لكل الاعتبارات التى عرضها أولا - على أن يقدم لى أقل عون مادى ، كما كان يريد من قلبه كله .

أخفيت هذا الخطاب عن أمى . لو أن نفسى الغاضبة فى تلك اللحظة لم تحجب حسن التقدير عندى لما راودنى هذا السخط الشديد ، ولعلى فكرت على سبيل المثال ، وطبقًا لاستعداد روحى الطبيعى ، أنه لو أن بلبلا فقد ريش ذيله فإنه يستطيع أن يقول : لا تزال عندى موهبة التغريد ؛ ولكن لو فقده طاووس - لو فقد ريش ذيله - فماذا يبقى له؟ إن إصابة التوازن بخلل طفيف ، ذلك التوازن الذى كان يكلف برتو دراسة متعمقة حتى يستطيع أن يحيا حياة نظيفة وبمظهر ما قد ينم عن الكرامة على أكتاف زوجته ، كان سيكلف برتو تضحية كبرى ، وخسارة لا تعوض . ففيما خلا المظهر الجميل والسلوكيات المهذبة وهيئته كسيد أنيق، لم يكن عنده شيء يقدمه لزوجته ؛ ولو ذرة من المشاعر قد تعوضها عن الضيق الذى يمكن أن تسببه لها أمى المسكينة ! لقد خلقه الله هكذا ! لقد أعطاه شيئًا يسيراً يسيراً من القلب. فماذا كان يستطيع أن يفعل برتو المسكين ؟

وكان العسر يزداد ؛ وكنت لا أجد منه منجى . بيعت حلى أمى الذهبية ، ذكريات غالية . وكان عبوس أرملة بسكاتورى يزداد يوماً بعد يوم ، وكان تعاملها معنا يزداد خشونة خشية أن نضطر أنا وأمى أن نحيا - بعد وقت قصير - على دخلها الضئيل من بوطتها ، وقدره اثنتان وأربعون ليرة . كنت أتوقع من لحظة لأخرى انفجار غضبها الكامن منذ زمن طويل ، ربما بسبب وجود أمى وهيئتها . كانت تلك المرأة العاصفة ترمينى - وهى ترانى أدور فى المنزل بلا هدف - بنظرات كالحمم ، ببرق منذر بالعاصفة . كنت أخرج حتى أفصل التيار وأمنع انطلاق الشرر . ولكننى كنت أخشى بعد هذا على أمى ، فأعود إلى المنزل .

ولكنى فى يوم من الأيام لم أعد فى الوقت المناسب ، فقد هبت العاصفة أخيراً ولسبب واه للغاية ؛ بسبب زيارة الخادمتين العجوزتين لأمى .

كانت إحداهما قد ذهبت للعمل خادمة فى مكان آخر ؛ لأنها لم تستطع أن تدخر شيئًا إذ إنها اضطرت إلى التكفل بابنتها وبأطفالها الثلاثة بعد أن صارت أرملة ؛ ولكن الخادمة الأخرى – مرجريتا – كانت وحيدة فى هذا العالم وكانت أسعد حظًا ، إذ إنها تستطيع الآن الراحة فى كبرها بما وفرته من مال فى أثناء خدمتها لسنوات طويلة فى بيتنا . والآن يبدو أن أمى قد شكت هامسة لهاتين المرأتين ، وهما رفيقتاها المخلصتان لسنوات طويلة، من حالها البائس التعيس . وعلى الفور قالت لها مرجريتا ، العجوز الطيبة التى كانت الشكوك تساورها ولا تجرؤ على التفوه بها ، أن تذهب معها الى بيتها ؛ كانت عندها حجرتان صغيرتان نظيفتان ، لهما شرفة تطل على البحر مليئة بالزهور ، فيعيشا معا ، فى سلام : أوه ، كان يسعدها أن تستطيع الاستمرار فى خدمتها ، وأن تظهر لها المودة والمحبة التى كانت تشعر بهما نحوها .

ولكن هل كانت أمى تستطيع أن تقبل ما تفوهت به تلك العجوز المسكينة ؟ من هنا انطلق غضب أرملة بسكاتورى .

عندما عدت إلى البيت ، وجدتها تمد قبضتها نحو مرجريتا ، التى كانت تواجهها بشجاعة ، بينما كانت أمى تمسك بيديها العجوز الأخرى ، وتتعلق بها وكأنها تحتمى بها وهى فى فزع شديد وعيناها مليئتان بالدموع وجسدها كله يرتعش .

عندما رأيت أمى فى هذا الموقف أظلمت الدنيا فى عينى ، حدث هذا فى لحظة واحدة. قبضت على ذراع الأرملة بسكاتورى ودفعتها لتتدحرج بعيدًا . ونهضت فى لمح البصر وجاءت نحوى لتهجم علىّ ؛ لكنها وقفت أمامى .

صاحت فى : " اخرج ، اخرج أنت وأمك ! اخرجا من بيتى ! " .

عندئذ قلت لها بصوت متهدج من عنف الجهد الذى كنت أبذله لأتحكم فى نفسى وأمنعها « اسمعى : اخرجى أنت ، الآن ، بساقيك ، ولا تزعجينى ثانية . اذهبى ، من الأفضل لك ! انصرفى! » .

نهضت روميلدا من مقعدها باكية وملولة ، وجاءت لتلقى بنفسها بين ذراعى أمها :

« لا ! أنت معى ، يا أمى ! لا تتركينى ، لا تتركينى هنا وحدى !» .

ولكن تلك الأم الحقيقية دفعتها فى غضب شديد :

« ألم تريديه أنت ؟ إذن فلتحتفظى به ، ذلك اللص المجرم! أنا ماضية وحدى!» ولكنها لم تمض ، وهذا مفهوم .

وبعد يومين جاءت - وقد أرسلتها على ما أظن مرجريتا - العمة سكولاستيكا بغضب شديد كالعادة لتأخذ معها أمى .

ويستحق هذا المشهد أن يروى .

كانت الأرملة بسكاتورى تعد لعمل الخبز فى ذلك الصباح . وقد شمرت عن ساعديها، ورفعت تنورتها وبرمتها حول وسطها . حتى لا تتسخ ، وعندما رأت العمة ، التفتت إليها التفاتة بسيطة واستمرت فى النخل ، وكأن شيئًا لم يحدث . ولم تهتم العمة ؛ فهى أيضا قد دخلت دون أن تحيى أحدًا ، واتجهت نحو أمى وكأنه لا يوجد فى البيت أحد آخر ، إلا هى .

« قومى ، فورا ارتدى ملابسك ! ستأتين معى . لقد رن جرس الخطر فى مسمعى وها أنا هنا . هيا ، أسرعى ! الصرة !» .

كانت تتحدث حديثا متقطعا . كان أنفها المعقوف والفخور ، فى وجهها الأسمر ، اليرقانى ، متوترًا وكان يتجعد بين الفينة والفينة . وكانت عيناها تلمعان .

والأرملة بسكاتورى صامتة .

بعد أن انتهت من النخل ، أضافت الماء للدقيق وخلطتهما ليصبحا عجينا ، وأخذت ترفع العجين إلى أعلى وتضربه بقوة عن عمد فى المعجنة ، كانت ترد هكذا على ما تقوله العمة ، وعندئذ زادت العمة من الجرعة ، وأخذت تلك ، وهى تضرب العجين

بقوة أكبر تقول : - « أى نعم ! - بكل تأكيد ! - ولم لا ؟ لكن ، بكل تأكيد ! » - ثم وكأن هذا لا يكفى ذهبت لتأتى بالنشابة ووضعتها هنا إلى جانبها ، على المعجنة ، وكأنها تقول : ومعى أيضا هذه . ويياليتها ما فعلت ! نهضت العمة سكولاستيكا على قدميها ، ونزعت بغضب الشال الذى كانت تضعه على كتفيها ورمته لأمى :

« البسيه ! اتركى كل شىء وهيا فوراً ! » .

وذهبت تقف أمام وجه الأرملة بسكاتورى . وتراجعت الأرملة بسكاتورى خطوة إلى الخلف حتى لا تكون العمة أمام صدرها هكذا وكأنها تريد أن ترفع النشابة ، وعندئذ أخذت العمة سكولاستيكا بيديها من المعجنة العجين كله ، ورمته على رأسها ، وسحبته إلى أسفل على وجهها ، وضمت قبضتيها ، وهاك ، هاك ، هاك على أنفها وعينيها وفمها ، حيثما كانت تباغتها ، كانت تباغتها . وبعد هذا قبضت على ذراع أمى وسحبتها للخارج .

أما ما حدث بعد هذا فكان من نصيبى وحدى . نزعت الأرملة بسكاتورى وهى تزمجر غضبا العجين عن وجهها ، وعن شعرها الملطخ ، وجاءت ترميه فى وجهى ، وكنت أضحك ، كنت أضحك وأنا أتلوى ، وقبضت على لحيتى ، وخربشتنى كلى ؛ ثم - وكأنها أصيبت بالجنون - انطرحت أرضا وأخذت تمزق ملابسها التى ترتديها ، وتتدحرج فى جنون على الأرض ، وكانت زوجتى عندئذ (معذرة على اللفظ)[١] تتقيأ فى الناحية الأخرى ، بعويل صارخ ، بينما أنا أصرخ فى الأرملة بسكاتورى وهى على الأرض " الساقان ! الساقان ! لا تكشفى لى عن ساقيك ، رفقاً بى! " .

أستطيع القول إنى منذ ذاك استسغت الضحك على مصائبى وعلى عذاباتى كلها . فى تلك اللحظة رأيت نفسى ممثلا فى مأساة ، لا يمكن تخيل مأساة مضحكة مثلها ؛ فأمى ، هربت هكذا مع تلك المجنونة ؛ وزوجتى هناك .. فلندعها وشأنها ! ؛ وماريانا بسكاتورى هنالك على الأرض ؛ وأنا ، أنا الذى لم يعد لى خبز - خبز بمعنى الكلمة -

---

(١) جاءت فى النص باللاتينية هكذا Sit Venia verbo .

لليوم التالى ، أنا كانت لحيتى ملطخة بالعجين ، ووجهى مخدوش تنهمر منه – لم أكن أعلم بعد – الدماء أو الدموع من كثرة الضحك . ذهبت الى المرآة لاتأكد من هذا . كانت دموعًا ، ولكن وجهى كان مخدشًا تمامًا . آه كم أعجبتنى عينى فى تلك اللحظة ! فى قنوطها أخذت تنظر فى اتجاه آخر أكثر من ذى قبل ، فى اتجاه آخر خاص بها .. وهربت خارجا وقد عقدت العزم على عدم العودة للبيت إن لم أجد أولا ما يكفلنى وزوجتى ولو لسد رمقنا فقط .

ومن الضيق الغاضب الذى كنت أشعر به فى تلك اللحظة لطيشى سنوات طويلة ، كنت أرى بسهولة أن مصيبتى لا يمكن أن تثير شفقة أى أحد ، أو تلقى اعتبارا لديه . كنت أستحقها . شخص واحد فقط قد يشعر بالشفقة على : ذلك الذى استولى على أملاكنا كلها ؛ ولكن هل لى أن أتخيل أنه كان يمكن لملانيا أن يشعر بواجب المجىء لنجدتى بعدما حدث بينى وبينه .

لكن النجدة جاءتنى ممن كنت لا أتوقع .

بعد أن قضيت ذلك اليوم خارج البيت ، التقيت مصادفة عند المساء مع بومينو ، الذى كان يريد أن يمضى لحال سبيله متظاهرا بعدم رؤيتى .

« يا بومينو ! »

التفت معتكر الوجه ، ووقف ناظراً إلى أسفل :

« ماذا تريد ؟ »

كررت ندائى بصوت أقوى وأنا أهز كتفه وأضحك من عبوسه : « هل أنت جاد فى حديثك ؟ " أوه ، جحود بشرى ! كان هذا ما ينقصنى ، نعم ما ينقصنى ، فقد اعتقد بومينو أننى كنت خائنا له . ولم أستطع أن أقنعه أن الخيانة على العكس قد اقترفها هو معى ، وأنه لم يكن عليه أن يشكرنى فحسب ، بل أن يرتمى بوجهه على الأرض ليقبل موضع قدمىّ . كنت لا أزال ثملاً بذلك السرور السىء الذى سادنى منذ أن نظرت إلى وجهى فى المرآة .

قلت له عند نقطة معينة من الحديث : « هل ترى هذه الخدوش ؟ لقد خَدَشَتْنِي بها هي؟!"

« رو ... أقصد ، زوجتك ؟ »

« أمها ! »

ورويت له القصة كاملة . ابتسم ابتسامة خفيفة، لعله فكر أنها ما كانت لتصيبه هو بتلك الخدوش ، الأرملة بسكاتورى ؛ فهو فى حال مختلف تماما عن حالى وطبع مختلف ، وقلب مختلف .

وجاءنى عندئذ الهاجس بأن أسأله ، إن كان حقيقة قد تألم مثل هذا الألم ، لماذا لم يتزوج هو روميلدا فى الوقت المناسب ، ويطير معها، كما نصحته قبل أن تحدث لى مصيبة وقوعى فى حبها ، بسبب خجله المضحك أو بسبب تردده ، وكنت أريد أن أقول له أمورًا أخرى ، وأخرى ، وأنا فى نشوتى آنذاك ؛ ولكنى تماسكت . وعلى العكس من هذا سألته ، وأنا أمد له يدى ، على من كان يتردد ، فى تلك الأيام .

عندئذ تنهد وقال : « لا أحد! لا أحد! أنا أعيش فى ملل ، فى ملل مميت !» .

من الغيظ الذى نطق به هذه الكلمات بدا لى فجأة أنى أدرك السبب الحقيقى للألم الذى تعتمل به نفس بومينو. لعلها لم تكن حسرته على روميلدا بقدر ما كانت الصحبة التى فقدها؛ فلم يعد برتو موجودًا ، ولم يعد بإمكانه أن يتردد علىّ ، لأن روميلدا كانت حاجزا بيننا، فماذا كان له أن يفعل ، بومينو المسكين !؟

قلت له : " تزوج ، ياعزيزى ، وسترى مرح المتزوجين ! "

ولكنه هز رأسه ، بجدية ، وقد أغلق عينيه ، ورفع يده وقال :

« أبدًا ! وأبدًا !»

« شاطر ، يابومينو : استمر على هذا ! وإن رغبت فى الصحبة ، فأنا رهن إشارتك، والليل بطوله أيضا ، إن أردت» .

وكشفت له عن قرارى الذى اتخذته ، عندما خرجت من البيت ، وعرضت عليه الظروف البائسة التى كنت فيها . تأثر بومينو تأثرا حقيقيًا كصديق ، وقدم لى ما معه من مال قليل. شكرته من قلبى ، وقلت له إن تلك المساعدة لن تفيدنى فى شىء ؛ فسيعود حالى فى الغد كما كان بالأمس . وإننى فى حاجة إلى وظيفة ثابتة .

عندئذ صاح بومينو : « انتظر ! هل تعلم أن أبى الآن فى إدارة البلدية ؟»

« لا ، ولكن يمكننى أن أتصور هذا » .

« المسئول المحلى عن التعليم العام ».

« هذا ما كان لى أن أتصوره» .

« مساء أمس ، على العشاء .. انتظر ! هل تعرف روميتللى ؟»

« لا »

« لا ، كيف ! هو ذلك الذى هنالك ، فى مكتبة بوكاماتسا . إنه أطرش ، ويكاد أن يكون أعمى ، وأصابه البله ، ولا يقوى على الوقوف على قدميه . ومساء أمس كان أبى يقول لى ، فى أثناء العشاء ، إن حالة المكتبة قد صارت بائسة ، وأنه ينبغى التصرف فى هذا الشأن بأسرع ما يمكن . هذا المكان مكانك !» .

صحت : «أمين مكتبة ؟ ولكنى ... » .

قال بومينو : « ولم لا ؟ إن كان روميتللى قد شغل هذه الوظيفة ..» .

أقنعنى هذا السبب .

نصحنى بومينو أن أجعل العمة سكولاستيكا تتحدث فى هذا الشأن مع أبيه ، فهذا أفضل. وفى اليوم التالى ذهبت لزيارة أمى وحدثتها فى هذا الشأن لأن العمة سكولاستيكا لم ترد أن أراها . وهكذا صرت بعد أربعة أيام أمين مكتبة . ستون ليرة فى الشهر ، أغنى من الأرملة بسكاتورى ! كنت أستطيع إنشاد نشيد النصر .

في الشهور الأولى كان الأمر ممتعا ، مع روميتللى ذاك ، الذى لم تنجح معه وسيلة حتى يفهم أن المجلس البلدى قد أحاله إلى المعاش ، وأنه لهذا كان عليه ألا يأتى للمكتبة . وكل صباح ، وفى الموعد نفسه وليس قبله بدقيقة أو بعده بدقيقة كنت أراه يظهر بأرجله الأربعة (بما فيها عكّازاه اللذان كانا أكثر نفعا له من قدميه ، وكل عكاز فى يد) . وما أن يصل ، حتى يخرج من جيب صديريته ساعة جيب قديمة من النحاس ، ويعلقها على الحائط بسلسلتها الرائعة ؛ كان يجلس واضعا عكازيه بين ساقيه ويسحب من جيبه طاقيته وعلبة النشوق ، وقطعة قماش ذات مربعات حمراء وسوداء ، ويستنشق جرعة كبيرة من النشوق ، ويتمخط ، ثم يفتح درج المنضدة ويخرج منه كتابا عتيقا من كتب المكتبة : المعجم التاريخى للموسيقيين والفنانين والهواة الأموات والأحياء ، المطبوع فى ڤنيسيا سنة ١٧٥٨ .

عندما كنت أراه يقوم بهذه العمليات بهدوء شديد ، دون أن تبدو عليه أمارة أنه لاحظ وجودى ، كنت أصيح به : «ياسيد روميتللى! » .

ولكن من كنت أنادى ؟ لم يكن يسمع شيئًا ، حتى طلقات المدافع . كنت أهز ذراعه، وعندئذ فقط كان يلتفت ويضيق حدقتى عينيه ، ويقطب وجهه كله حتى يرمقنى ، ثم يظهر لى أسنانه الصفراء ، ولعله يقصد الابتسام لى – هكذا – وبعد هذا كان ينحنى برأسه فوق الكتاب ، وكأنه يريد أن يجعل منه وسادة ؛ ما هذا ! كان يقرأ بهذه الطريقة ، وهو على بعد سنتيمترين، وبعين واحدة ، كان يقرأ بصوتٍ عالٍ :

بيرنباوم ، جوفانى أبرامو ... بيرنباوم چوفانى أبرامو ، طبع فى ليبزج سنة ١٨٣٧ .. كتيب فى قَطْع الثمن .. فى قَطْع الثمن : ملاحظات غير متحيزة عن مقطوعة رقيقة للموسيقي الناقد، ميتزلر .. ميتزلر ضمّن .. ميتزلر ضمّن هذا المكتوب فى المجلد الأول من مكتبته الموسيقية فى سنة ١٧٣٩ ..

وكان يواصل هكذا ، فيكرر مرتين أو ثلاث مرات أسماءً وتواريخ وكأنه يريد أن يحفظها عن ظهر قلب .. ولماذا كان يقرأ قراءة جهورية هكذا ، لا أعلم ، وأكرر ، لم يكن يسمع ولا قذائف المدافع .

كنت أبقى ناظرا إليه ، متعجبًا . ماذا كان يهم ذلك الرجل ، وقد صار هذا حاله ، وقد صار على حافة القبرِ (مات فعلا بعد تعييني أمينا للمكتبة بأربعة أشهر) ماذا كان يهمه في أن بيرنباوم جوفاني أبرامو قد طبع كتيبا من قطع الثمن في ليبزج سنة ١٧٣٨ ؟ لو أن القراءة لم تكلفه على الأقل كل هذا الجهد ! كان لابد حقيقة أن نعترف أنه ما كان يستطيع أن يتخلى عن تلك التواريخ وعن أخبار أولئك الموسيقيين (وهو الأصم) والفنانين والهواة الأحياء والأموات حتى سنة ١٧٥٨ . أم أنه كان يعتقد أن أمين المكتبة – بما أن المكتبة تنشأ للقراءة – مضطر أن يقرأ هو ، مع افتراض أنه لم ير مطلقًا أي نفس حية تظهر في مكتبته ؛ أم أنه قد تناول ذلك الكتاب ، مثلما كان سيتناول أي كتاب آخر ؟ كان البله قد أصابه إصابة بالغة، حتى أن هذا الافتراض كان ممكنا ، بل إنه كان أكثر احتمالا من الافتراض الأول .

وعمومًا كانت توجد فوق المنضدة الضخمة القابعة هنالك في المنتصف ، طبقة من التراب لا يقل ارتفاعها عن الإصبع ، حتى أنني – كي أتقي بشكل ما عدم اعتراف أهل بلدتي بالجميل – استطعت أن أنقش عليه بحروف كبيرة هذا الشاهد :

إلى

مونسنيور بوكاماتسا

المتبرع الجواد

شهادة خالدة على العرفان

أقام مواطنوه

هذا الشاهد

ثم كان يسقط ، من حين إلى حين ، من الأرفف كتابان أو ثلاثة تتبعها فئران ضخمة في حجم أرنب .

كانت بالنسبة لي مثل تفاحة نيوتن .

صحت ، وقد غمرنى الفرح : « وجدتها !» « هذا هو العمل المناسب لى ، بينما يقرأ روميتللى كتاب بيرنباوم .

وكتبت – بداية – طلبًا مكتبيا إلى الفارس الجليل چيرولامو بومينو ، المسئول المحلى عن التعليم العام ، حتى يتم تزويد مكتبة بوكاماتسا أو مكتبة سانتا ماريا ليبرالى بأقصى سرعة بقطين على الأقل ، لن يكلفا البلدية أى تكلفة تقريبًا ، نظرًا لأن الحيوانين المذكورين سيجدان غذاء وفيرا من عائد صيدهما . وأضفت أنه لن يكون هناك ضرر من تزويد المكتبة كذلك بنصف دستة من المصائد والطعم اللازم لها ، حتى لا أقول الجُبن ، وهى كلمة عددت – كمرءوس – أنه من غير المناسب أن أضعها تحت ناظرى المسئول المحلى عن التعليم العام .

أرسلوا لى فى البداية قطين صغيرين بائسين لدرجة أنهما خافا فورًا من تلك الفئران الضخمة – ولكى لا يموتا جوعًا – كانا يدخلان هما فى المصيدتين ليأكلا الجبن . كنت أجدهما كل صباح هنالك ، حبيسين ، ونحيلين ، وقبيحين ، ومغمومين حتى ليبدو أنهما لم تعد لهما قوة إرادة للمواء .

شكوت ، وعندئذ جاء قطان كبيران نشيطان وجادان ، ودون أن يضيعا الوقت سدى بدءا فى القيام بواجبهما . وكانت المصائد أيضا نافعة ؛ فكانت هذه تعطينى الفئران حية . وفى إحدى الليالى ، وقد أصابنى الغيظ من أن روميتللى لا يريد أن يدرك إطلاقا مجهوادتى وانتصاراتى تلك وكأن واجبه فقط هو أن يقرأ ، وواجب الفئران هو أن تسعد بقرض كتب المكتبة ، أردت قبل أن أمضى عنها أن أضع فأرين من الفئران الحية فى درج منضدته . كنت أتمنى أن أربك – فى الصباح التالى على الأقل – قراءته المعتادة المملة . ولكن هيهات ! فما أن فتح الدرج وشعر بهذين الحيوانين ينزلقان تحت أنفه حتى التفت ناحيتى ، ولم أعد قادرا على التحكم فى جسمى وانطلقت ضاحكًا ، وسألنى : «ما هذا ؟ » .

« فئران ، يا سيد روميتللى ! »

« آه ، فئران .. » قال هذا بهدوء .

كانت مخلوقات أليفة في بيتها ، وكان قد اعتاد عليها . واستأنف - وكأن شيئًا لم يحدث - قراءة كتابه .

في مبحث في الأشجار ، من تأليف چوڤاني ڤيتوريو سودريني ، نقرأ أن الثمار تنضج" بالحرارة وبالبرودة ؛ وهذا لأن الحرارة ، كما هو واضح في كل شيء لديها القدرة على الإنضاج وهي العامل البسيط للنضج " . كان چوڤاني ڤيتوريو سودريني يجهل إذن أنه بالإضافة إلى الحرارة ، اختبر بائعو الفواكه عاملا آخر من عوامل الإنضاج . فحتى يحملوا إلى السوق باكورة الثمار ويبيعوها بسعر أغلى ، فإنهم يجمعون ثمار التفاح والخوخ والكمثرى، قبل أن تصل إلى الحالة التي تكون فيها سليمة ولذيذة ، وينضجونها بفعل الرضوض التي يرضونها بها .

هكذا وصلت إلى النضوج نفسي ، وهي لا تزال فجة .

في وقت قصير ، صرت شخصًا آخر غير ذلك الذي كنت فيما قبل . فبعد وفاة روميتللي وجدت نفسي هنا وحدي - يأكلني السأم - في هذه الكنيسة الصغيرة النائية ، بين هذه الكتب كلها ؛ كنت وحيدا بشكل مروع ، وعلى الرغم من هذا ، دونما رغبة في صحبة . كان يمكنني أن أبقى بها ساعات قليلة في اليوم ، لكني كنت أخجل من أن يراني أحد في شوارع البلدة ، وقد آل بي الحال إلى البؤس؛ ومن بيتي كنت أعاود الهرب وكأني أهرب من سجن ، وهكذا كنت أردد بيني وبين نفسي ، هنا أفضل . ولكن ماذا أعمل ؟ صيد الفئران ، نعم ، ولكن أكان يكفيني ؟

في أول مرة حدث لي أن وجدت كتابا بين يدي ، أخذته هكذا بالصدفة ، دون معرفة ، من فوق أحد الأرفف ، شعرت بقشعريرة الفزع . أكنت سأتحول إذن مثل روميتللي إلى الشعور بضرورة القراءة ، أنا أمين المكتبة ، نيابة عن أولئك الذين لا يأتون إلى المكتبة كلهم؟ وألقيت بالكتاب أرضا . ولكني التقطته فيما بعد ، نعم - أيها السادة - بدأت في القراءة أنا أيضًا ، وبعين واحدة أنا أيضا ، لأن عيني الأخرى ما كانت تريد هذا .

وهكذا قرأت من كل شيء شيئًا ، بلا ترتيب ، ولكن على الأخص كتبا في الفلسفة. ثقيلة هي ، ومع هذا ، فمن يتغذى بها ويجعلها في جسده ، يحيا بين السحاب ، أربكت عقلي إرباكا ، وهو في حد ذاته غريب الأطوار . عندما كان رأسي يفور ، كنت أغلق المكتبة وأمضي عبر درب وعر إلى طرف شاطئ منعزل .

كانت رؤية البحر تهوي بي إلى فزع مذهل ، يتحول شيئًا فشيئًا إلى طغيان لا يحتمل. كنت أجلس على الشاطئ وامتنع عن النظر إليه ، فأحني رأسي ، ولكني كنت أسمع على امتداد الساحل صخبه ، بينما كنت أدع الرمال الكثيفة الثقيلة تنساب رويداً رويداً من بين أصابعي ، وأنا أتمتم :

«هكذا ، دائمًا ، وحتى الموت ، دونما تغيير ، أبدًا ... »

كان جمود أحوال حياتي تلك يوحي لي آنذاك بأفكار سريعة وغريبة ، وكأنها وميض جنون . كنت أثب على قدميّ وكأني أنثرهما بعيداً عني ، وآخذ في السير بطول الساحل ، ولكني كنت عندئذ أرى البحر يبعث بلا انقطاع - هنالك - إلى الضفة ، موجاته المنهكة النائمة ، كنت أرى تلك الرمال مهجورة هنالك ، كنت أصرخ في غضب وأنا أحرك قبضتيّ:

« لكن لماذا ؟ لكن لماذا ؟»

وكنت أبلل قدميّ .

ولعل البحر كان يمد إحدى موجاته أكثر قليلا ، ليحذرني :

« انظر يا عزيزي ماذا يكسب الإنسان بسؤاله عن بعض الأسباب ؟ تبتلّ قدماك . عد إلى مكتبتك ! الماء المالح يفسد الحذاء ؛ وليست لديك نقود تلقيها في الهواء . عد إلى المكتبة ، ودعك من كتب الفلسفة ؛ امض ، امض ولتقرأ أنت أيضا أن بيرنباوم چوڤاني أبرامو قد طبع في ليبزج في سنة ١٧٣٨ كتيبا من قطع الثمن : سوف تحصل منه ولاشك على نفع أعظم».

ولكن فى أحد الأيام جاءوا أخيرا ليقولوا لى إن زوجتى قد هاجمها المخاض ، وأن على أن أجرى فورا إلى البيت . هربت مثل إيل ، ولكننى كنت بالأكثر أهرب من نفسى ، حتى لا أبقى ولو لحظـــة مع نفسى ، لأفكـــر فى أنى كنت على وشك أن أرزق بابن ؛ أنا فى تلك الظروف أرزق بابن !

ما أن وصلت إلى باب البيت حتى أمسكت حماتى بكتفىّ وجعلتنى أدور للخلف :

« الطبيب ! اجرِ ! روميلدا تموت !»

قد يصاب المرء بالسكتة ، أليس كذلك ؟ عند سماعه خبرًا كهذا فجأة . ولكنها تقول "اجرِ" . لم أشعر بعد هذا بساقىّ ، ولم أكن أدرى إلى أين أذهب، وبينما كنت اجرِ ، ولا أعلم كيف ، كنت أقول : " طبيب ! طبيب ! " وكان الناس يقفون فى الطريق ، وكانوا يريدون أن أقف أنا أيضا لأشرح ما حدث لى ؛ كنت أشعر بهم يشدوننى من أكمامى ، وكنت أرى أمامى وجهها شــاحبًا ، مذعورًا. كنت أتحــاشى وأتحاشى الجميع : "طبيب ! طبيب !".

وكان الطبيب هناك فعلا فى بيتى ؛ وعندما عدت إلى بيتى مقطـــوع الأنفاس ، وفى حالة بائسة بعد أن طفت بالصيدليات كلها ، يائسا وغاضبا ، كانت الطفلة الأولى قد ولدت ؛ وكانت تجرى محاولات إخراج الأخرى إلى النور .

« اثنتان ! »

يبدو لى أنى لا أزال أراهما هنالك ، فى المهد ، الواحدة بجوار الأخرى : كانتا تخدشان بعضهما بعضا بأيديهما الصغيرة والنحيلة تلك ، ومع هذا فكانت ذات مخالب عزيزة وحشية ، تثير النفور والشفقة : كانتا بائستين ، بائستين ، بائستين أكثر من هاتين القطتين اللتين كنت فى كل صباح أجدهما داخل مصيدتين ؛ وهما أيضا لم تكن لديهما قوة للصراخ ، مثل هاتين القطتين ؛ وعموما كانتا تتخادشان!

أبعدتهما ، وعند لمسى لأول مرة لذلك اللحم الرقيق والبارد ، شعرت بقشعريرة جديدة، برعشة حنان لا يوصف : كانتا ابنتىّ !

ماتت واحدة منهما بعد أيام قلائل ، أما الأخرى فقد أرادت أن تتيح لى الوقت لأتعلق بها بحب أب يجعل من ابنته هدف حياته الوحيد ؛ إذ إنه ليس لديه غيرها ؛ وأرادت أن تقسو على بوفاتها عندما كادت أن تبلغ من العمر سنة ، وبعدما صارت جميلة جمالاً باهراً بشعرها المجعد الذهبى الذى كنت ألفه حول أصابعى ، وأقبله بدون أن أشبع منه أبدا ؛ كانت تناديني : «بابا ..» ، وكنت أنا أرد عليها فوراً : « يا ابنتى » ؛ وهى من جديد « بابا .. » ؛ هكذا بلا غرض، كما تتناجى الطيور .

فقدتها وفقدت فى الوقت نفسه أمى ، فى اليوم نفسه وفى الساعة نفسها تقريبا . لم أعرف كيف أقسم اهتماماتى وألمى . كنت أترك صغيرتى وهى تستريح ، وأجرى إلى أمى التى ما كانت تهتم بنفسها وبوفاتها . وتسألنى عنها ، عن حفيدتها وهى تتعذب لأنها لا تستطيع أن تراها وأن تقبلها لآخر مرة . واستمر هذا التمزق تسعة أيام ! وفى النهاية، بعد تسعة أيام وتسع ليالى من السهاد المستمر ، دون أن أغمض عينى ولو دقيقة واحدة .. أيجب أن أقول ؟ – قد يتورع البعض عن الإقرار بهذا ، ولكنه مع هذا أمر بشرى ، بشرى ، بشرى – لم أشعر أنا بالألم ، لا ، فى تلك اللحظة بقيت فترة فى حزن وذهول مخيف ، ونمت . بالتأكيد. اضطررت فى البداية أن أنام . ثم ، نعم ، عندما استيقظت ، هاجمنى الألم هجوماً عنيفًا وشرسًا على ابنتى الصغيرة ، وعلى أمى ، اللتين لم .. وكنت على وشك الجنون . طفت بالبلدة وبالحقول ليلة كاملة ؛ ولا أعلم أى أفكار جالت بخاطرى ؛ ما أعلمه أنى فى النهاية وجدت نفسى فى ضيعة ستيا على مشارف قناة الطاحونة ، وأن شخصا يدعى فيليبو ، وهو طحان عجوز كان هنالك فى نوبة حراسة أخذنى معه ، وأجلسنى بعيداً عنها ، تحت الأشجار، وتحدث معى حديثًا طويلاً ، طويلاً عن أمى وعن أبى أيضًا ، وعن الأيام الجميلة البعيدة ؛ وقال لى إنى لا يجب أن أبكى ويصيبنى اليأس هكذا ، لأن أمى ، الجدة الطيبة ، قد سعت لتلحق بابنتى ، فى العالم الآخر ، لترعاها ولتجعلها تجلس على ركبتها ولتحدثها عنى دوما ولن تتركها وحيدة أبداً .

وبعد ثلاثة أيام أرسل لى روبرتو – وكأنه أراد دفع ثمن دموعى – خمسمائة ليره . كان يريد أن أدفن أمى – كما قال – بالشكل اللائق . ولكن العمة سكولاستيكا كانت قد قامت بكل شيء.

بقيت الخمسمائة ليرة هذه لفترة بين صفحات كتاب قديم من كتب المكتبة .

ثم عاد نفعها علي وكانت – كما سأقول – السبب فى وفاتى الأولى .

(٦)

طك طك طك

هى فقط ، هنالك بالداخل ، تلك " البلية " العاجية ، تجرى لطيفة فى الروليت ، فى اتجاه معاكس لعقرب الساعة . كان يبدو أنها تلعب .

" طك طك طك .. "

هى فقط : وليس بالتأكيد أولئك الذين ينظرون إليها متحيرين فى عذابهم الذى تسببه لهم نزوتها التى حملت لها ، أياد كثيرة ، على سبيل تقدمة نذرية ، ذهبا ، وذهبا فوق مربعات المنطقة الخفيضة الصفراء ؛ أياد كثيرة كانت ترتعش فى تلك اللحظة ، فى انتظار قلق ، وهى تتحسس بلا وعى ذهبا آخر ، هو ذهب الدورة القادمة ، بينما كانت العيون المبتهلة تبدو قائلة : «حيثما يعجبك ، حيث يعجبك أنت أن تقفى ، أيتها البلية العاجية اللطيفة ، يا معبودتنا القاسية » .

كنت قد وصلت إلى هناك ، إلى مونت كارلو ، بالصدفة .

فى أعقاب إحدى المشاجرات المعتادة مع حماتى وزوجتى اللتين كانتا تسببان لى قرفًا لا يحتمل بعد ما أصابنى القهر والضعف بسبب المصيبتين الأخيرتين اللتين حلّتا بى ، فلم أعد أتحمل السأم ، بل والقرف ، من حياتى تلك ، ولأنى كنت بائسًا بلا أمل أو رجاء فى التحسن وبلا عـزاء يأتينى من طفلتى الحلوة ، وبدون أى تعويض - وإن كان ضئيلاً - عن المرارة والبؤس واليأس الفظيع الذى حلّ بى ، اتخذت قرارًا يكاد أن يكون مفاجئًا وهربت من بلدتى سيرًا على قدمىّ وفى جيبى الخمسمائة ليرة التى أرسلها لى برتو .

أثناء سيرى فى الطريق ، فكرت فى الذهاب إلى مرسيليا من محطة السكك الحديدية بالبلدة المجاورة ، والتى اتجهت إليها ، وعند وصولى إلى مرسيليا ، كنت سأركب البحر ، ولو بتذكرة من الدرجة الثالثة ، إلى أمريكا .

هل سيحدث لى ما هو أسوأ مما عانيته وأعانيه فى بيتى ؟ نعم ، سوف أجد سلاسل أخرى ولكنها لن تبدو لى أخطر من القيد الذى كنت على وشك خلعه من قدمى ؛ ثم إنى كنت أريد أن أرى بلادا أخرى ، وأناسا آخرين ، وحياة أخرى ، ولسوف أتحاشى على الأقل القهر الذى كان يخنقنى ويسحقنى .

إلا أننى عندما وصلت إلى نيس شعرت بهبوط روحى المعنوية . كان اندفاع الشباب وتهوره قد زالا عنى منذ زمن ، كان السأم قد تغلغل داخلى تغلغلاً كبيراً ونخرنى وأضعف مقاومتى . وكان إحباطى ومهانتى الكبيران قد نجما عن نقص المال الذى كنت أستطيع به أن أواجه المخاطر فى ظلمة المصير ، وأنا بعيد هذا البعد ، وفى مواجهة حياة مجهولة تماماً لم أعدّ نفسى لها .

والآن وقد نزلت إلى نيس ، ولم يقر قرارى بعد العودة إلى بيتى ، وفى أثناء تجوالى بالمدينة حدث لى أن وقفت أمام محل كبير فى أڤينيى دى لاجار وعليه هذه اللافتة مكتوبة بحروف ذهبية ضخمة :

محل موائد روليت دقيقة

كانت الموائد معروضة من كافة المقاسات ، ومعها معدات أخرى للعب ، وكتيبات مختلفة مرسومة على أغلفتها مائدة الروليت .

ومن المعلوم أن التعساء يصبحون من المؤمنين بالمجهول ، على الرغم من أنهم يسخرون من تصديق الآخرين ، ومن الآمال التى تحدوهم هم أنفسهم فجأة بفعل تصديق الخرافات ، وهى الآمال التى لا تتحقق أبداً ، وهذا مفهوم .

أذكر أنى بعد أن قرأت عنوان أحد هذه الكتيبات : طريقة الكسب فى الروليت ، ابتعدت عن المحل بابتسامة ازدراء ورثاء ، ولكنى بعد بضع خطوات . رجعت إلى الوراء (بسبب الفضول فقط وليس لسبب آخر) دخلت إلى المحل بابتسامة الازدراء والرثاء نفسها على شفتىّ، واشتريت ذلك الكتيب .

لم أكن أعلم إطلاقًا عما يتحدث ، وما هى اللعبة وكيفية تركيبها . أخذت فى القراءة ؛ ولكنى فهمت منه أقل القليل .

فكرت : " ربما يرجع عدم فهمى إلى معرفتى الضئيلة بالفرنسية " .

لم يعلمنى أحد هذه اللغة ؛ تعلمت وحدى شيئًا منها ، وأنا أتهجاها فى المكتبة ، ثم إنى لم أكن واثقًا من نطقى ، وكنت أخشى أن أثير ضحك الآخرين وأنا أتكلمها .

وهذا الخوف نفسه هو الذى جعلنى مترددًا فى البداية فى الذهاب أو عدم الذهاب ؛ ثم تذكرت أنى قد رحلت سعيا للمغامرة حتى أمريكا وأنا خالى الوفاض من كل شىء ، وبدون أن أعرف شكل الإنجليزية أو الإسبانية ؛ إذن ، هيا ، إلى مونت كارلو ، وهى على بعد خطوتين، وأستطيع بالقليل الذى أعرفه من الفرنسية وبإرشاد ذلك الكتيب أن أواجه المخاطرة .

كنت أقول بينى وبين نفسى فى القطار «لاحماتى ولا زوجتى تعلمان شيئًا عن هذه النقود القليلة ؛ التى ظلت فى محفظتى . سأذهب لأرمى بها هناك ، حتى أتخلص من أى غواية . وأتمنى أن أستطيع الاحتفاظ بما أنفع به أجر عودتى لبيتى . وإذا لم يحدث ... » . كان قد وصل إلى سمعى أن الحديقة المحيطة بقاعة اللعب لا تنقصها الأشجار الباسقة ، وفى نهاية المطاف فقد أتدلى من إحداها – اقتصادًا – بحزام سروالى ؛ وعندئذ سأظهر بمظهر حسن . فيقولون :

«من يدرى كم من المال خسر هذا الرجل المسكين !»

كنت أنتظر ما هو أفضل ، أقول الحقيقة . كان المدخل – نعم – لا بأس به ، ومن الواضح أنهم قصدوا تقريبًا أن يقيموا معبدا للحظ بالأعمدة الرخامية ثُمانية الأضلاع .

وبوابة كبيرة وبابين جانبيين . وعلى هذين البابين كانت مكتوبة كلمة اسحب ، وحتى هنا كنت أستطيع الفهم؛ وفهمت كذلك ادفع المكتوبة على البوابة الكبرى ، والتى كان من الواضح أنها عكس الكلمة الأولى ، فدفعته ودخلت .

ذوق ردىء ! ويثير الضيق . قد يمكنهم على الأقل أن يوفروا لكل من يذهب ليترك هناك مالاً وفيراً الرضا بأن يتم سلخه وابتزازه فى مكانٌ أقل ترفا وأكثر جمالاً . فكل المدن الكبيرة تفخر الآن بامتلاكها لمجزر جميل للحيوانات المسكينة ، التى لا تستطيع أن تستمتع به لكونها لم تحصل على تربية من أى نوع . ومع هذا ففى الحقيقة إن أغلبية الناس الذين يذهبون إلى هناك لديهم رغبة أخرى تختلف تمامًا عن التمعن فى ذوق الزخرفة الموجودة فى القاعات الخمس تلك ، مثلهم مثل أولئك الذين يجلسون على تلك الأرائك المحيطة بها ، فغالبًا ما يكونون فى وضع لا يسمح لهم بملاحظة أناقة حشوها .

يجلس عليها - عادة - بعض سيئى الحظ ، الذين أربك حب اللعب عقولهم بشكل فريد؛ يجلسون هنالك ليدرسوا ما يطلق عليه توازن الاحتمالات ، ويتأملون جديًا فى الضربات التى يجب أن يجربوها - وكلها هندسة لعب - ويرجعون فيها إلى مذكرات عن وقائع الأرقام ؛ أى أنهم يريدون استنباط المنطق من الصدفة ، مثلما نقول الدم من الحجر ؛ وهم واثقون أنهم سيفلحون اليوم أو غدا .

ولكن لا ينبغى أن نتعجب من أى شىء .

كان هناك سيد من لوجانو ، وهو ذو جسد ضخم قد توحى رؤيته بالتفكير الباعث على الرضا فى طاقات المقاومة عند الجنس البشرى ، قال لى :« آه ، رقم ١٢ ، رقم ١٢ ! رقم ١٢ هو ملك الأرقام ، وهو رقمى ! لا يخذلنى أبدا ! يستمتع ، نعم ، بأن يعاندنى ، كثيرًا ، ولكنه فى النهاية يكافئنى ، يكافئنى دائما على إخلاصى » .

كان ذلك الرجل الضخم ، عاشقا لرقم ١٢ ، ولم يعد قادرا على الحديث عن شىء آخر . روى لى أنه فى اليوم السابق لم يشأ رقمه هذا أن يخرج ولا مرة واحدة ؛ ولكنه لم يرد أن يستسلم ؛ وفى المرة تلو المرة كان يضع نقوده بإصرار على رقم ١٢ ؛

واستمر على إصراره حتى النهاية إلى الوقت الذى يقول فيه مديرو اللعب : « أيها السادة ، آخر ثلاثة أدوار! » .

حسنا ، فى أول الأدوار الثلاثة تلك ، لا شىء ؛ ولا شىء فى الدور الثانى ؛ وفى الثالث والأخير ، ها هو : رقم ١٢ .

واختتم حديثه وعيناه تلمعان فرحًا : " لقد كلمنى ! لقد كلمنى ! "

حقيقة – لخسارته طول اليوم – لم يكن قد بقى معه لآخر لعبة إلا بضع سكودات قليلة؛ وبالتالى فلم يستطع تعويض ما خسر . ولكن ماذا يهم ؟ لقد كلمه رقم ١٢ !

بينما كنت أسمع هذا الحديث راودت فكرى أربع أبيات من شعر بينزونى المسكين يضمها دفتر ألغازه الشعرية مع بقية أشعاره الغريبة ، والذى عثر عليه فى أثناء النقل من البيت والموجود حاليًا فى المكتبة ، وأردت أن ألقيها على ذلك السيد :

كنت متعبًا من ترقبى

قسمتى . وكانت معبودتى اللعوب

لابد أن تمر بدربى

ومرت أخيرًا ، تتذبذب

وعندئذ أمسك ذلك السيد رأسه بكلتا يديه وقطب جبينه طويلا بأمارات الألم . نظرت إليه مشدوها فى البداية ، ثم مرعوبا .

« ماذا بك ؟ »

أجابنى :« لا شىء . أضحك » .

كان يضحك هكذا !! كانت رأسه تؤلمه ألما شديداً ، تؤلمه ألما شديداً رأسه التى كانت لا تتحمل هزات الضحك .

اذهبوا واعشقوا رقم ١٢ !

قبل أن أجرب حظى – وبلا أوهام – أردت أن أبقى فترة ألاحظ اللعب لكى أدرك الطريقة التى يتم بها .

لم يبد لى معقدا على الإطلاق ، كما جعلنى أتخيل الكتيب ..

كانت الروليت مثبتة فى وسط المائدة على البساط الأخضر المرقم . وحول المائدة ، كان اللاعبون ، رجالا ونساءً ، شيوخًا وشبابا من كل بلد ومن كل مستوى ، جلوسًا ووقوفا يسرعون بعصبية فى وضع أكوام وأكوام صغيرة من العملات الفرنسية والإيطالية والأوراق المالية فوق الأرقام الصفراء بالمربعات ؛ أما أولئك الذين كانوا لا يستطيعون الاقتراب أو كانوا لا يريدون ، فكانوا يقولون لمدير اللعب الأرقام والألوان التى يريدون لعبها ، وفى الحال كان مدير اللعب يضع بمهارة مدهشة " فيشهم " حسب طلبهم مستخدما عصاه ، ويخيم عندئذ صمت غريب ورهيب ، ينفعل بعنف مكبوت ، ويقطعه من وقت لآخر صوت مديرى اللعب الرتيب الناعس :

« يا سادة ، تفضلوا ببدء اللعب ! »

بينما فى الناحية الأخرى . وعند موائد أخرى ، كانت أصوات أخرى تقول بالرتابة نفسها :

« انتهى الاشتراك فى اللعب ! لا يمكن وضع نقود أخرى» .

وفى النهاية يقذف مدير اللعب " البلية " فوق الروليت :

" طك طك طك ... "

والعيون كلها كانت تتجه نحوها بتعبيرات مختلفة : جزع ، وتَحَدٍّ ، وقلق ، ورعب . وكان بعض من ظلوا واقفين خلف من أسعدهم الحظ ووجدوا مقعداً ، يتدافعون لينظروا إلى ما وضعوه من نقود قبل أن تمتد عصى مديرى اللعب لجمعها .

كانت الكرة تسقط فى النهاية فى المربع ويكرر مدير اللعب بصوته المعتاد الصيغة المستخدمة ويعلن الرقم الفائز واللون .

خاطرت في أول مشاركة لي ببعض السكودات القليلة على المائدة اليسرى بالقاعة الأولى ، جزافًا على رقم خمسة وعشرين ، وبقيت أنا أيضا أنظر إلى "البلية" المخادعة ، ولكن بابتسامة ، بسبب دغدغة خفيفة داخلية وغريبة في بطني .

تسقط الكرة على المربع ، و :

« خمسة وعشرون ! » هكذا يعلن مدير اللعب . « أحمر ، فردي ، اعبر» كسبت ! وهممت أن أمد يدي على كومة نقودي التي تضاعفت وإذا برجل طويل القامة ، كتفاه قويان ومنتفخان بعضلاتهما وفوقهما رأس صغير وعلى أنفه الذي يشبه خطام الكلب تستند نظارة ذهبية ، وله جبهة تميل الى الخلف ، وشعره طويل منسدل على قفاه ، بين الأشقر والرمادي وهكذا أيضا لون لحيته وشاربه ، أبعد يدي بلا كياسة واستولى هو على نقودي ..

أردت بفرنسيتي الفقيرة أن أنبهه لخطئه - غير المتعمد بكل تأكيد !

كان ألمانيًا ، ويتحدث الفرنسية أسوأ مني ، ولكن بجرأة الأسود : هجم عليّ مؤكدا أن الخطأ خطئي أنا ، وأن النقود نقوده .

نظرت حولي مندهشًا : لا أحد يتنفس ، حتى جاري الذي رآني أضع هذه النقود القليلة فوق رقم خمسة وعشرين . نظرت إلى مديري اللعب . كانوا ثابتين ، جامدي الوجوه مثل التماثيل. « آه ! هكذا ؟ » قلت هذا بداخلي وبهدوء التقطت نقودي الأخرى التي كنت وضعتها على المائدة أمامي ؛ وانصرفت .

فكرت : «هذه طريقة - الكسب في الروليت - غير مذكورة في كتيبي . ومن يدري ، لعلها ليست الطريقة الوحيدة ، في نهاية الأمر !» .

ولكن الحظ أراد أن يقدم لي تكذيبًا رائعًا لا ينسى ، ولا أدري لأي أغراض دفينة . عندما اقتربت من مائدة أخرى ، يلعبون فيها بمبالغ كبيرة ، بقيت في البداية لفترة طويلة أتأمل الناس الموجودين حولها ؛ كانوا في أغلبهم سادة يرتدون الفراك (الملابس الرسمية) ، وكانت هناك سيدات كثيرات ؛ وكانت أكثر من واحدة منهن تبدو لي غامضة ؛

وفى البداية لم توح لى بالثقة رؤية رجل نحيل الجسد أشقر جداً ، ذى عينين كبيرتين زرقاوين تظهر فيهما شعيرات دموية وتحيط بهما رموش طويلة تكاد أن تكون بيضاء ؛ كان هو أيضا يرتدى بدلة رسمية ، ولكن كان يبـدو أنه غير معتاد على ارتدائها . أردت أن أضعه تحت الاختبار ؛ قامر بمبلغ كبير : خسر ؛ لم يصبه القلق ؛ قامر بمبلغ كبير أيضا فى المرة التالية : هيا؛ لن يسعى وراء نقودى القليلة . وبالرغم مما أصابنى فى بداية مقامرتى ، إلا أنى خجلت من شكى . كان هناك أناس كثيرون يلقون حفنات من الذهب والفضة وكأنها رمال ، دونما خوف ، فهل كان علىّ أن أخاف أنا على نقودى القليلة ؟

لاحظت بين الآخرين شابا شاحب الوجه وكأنه من الشمع ، يضع نظارة ذات عدسة واحدة على عينه اليسرى التى تكتسى بنظرة لا مبالاة ناعسة ؛ كان يجلس بلا حياء ، وكان يستخرج من جيب سرواله عملاته الفرنسية ؛ كان يضعها جزافا على أى رقم ، دون أن ينظر؛ وكان وهو يمسك بشعيرات شاربه الوليد ينتظر سقوط "البلية" ، وعندئذ كان يسأل جاره إن كان قد خسر . رأيته يخسر دائما .

كان جاره ذاك سيداً نحيفًا وأنيقًا فى الأربعين من عمره ؛ ولكن رقبته كانت طويلة جداً ونحيفة ، ولكنه يكاد أن يكون بلا ذقن ، وله عينان سوداوان صغيرتان تتسمان بالحيوية، وكان شعره المهمل الأسود الجميل والكثيف مرفوعًا على رأسه . كان يستمتع ، كما هو واضح بالرد بالإيجاب على الشاب . كان يكسب أحيانا .

جلست بالقرب من سيد ضخم الجسم ، أسمر البشرة بحيث يظهر ما تحت عينيه وجفنيه وكأنه مدخن . كان شعره رماديًا فى لون صدأ الحديد ، بينما كانت لحيته فوق ذقنه لاتزال سوداء مجعدة ؛ كان ينضح قوة وصحة ؛ ومع هذا وكأن حركة " البلية " العاجية تهيج إصابته بالربو فكان فى كل مرة يشهق بقوة شهيقا لا يمكن مقاومته . كان الناس يستديرون لينظروا إليه ، ولكنه ما كان يلاحظ هذا إلا نادراً ؛ فكان يتوقف لحظة ، وينظر حوله بابتسامة عصبية ، ويعود للشهيق رغما عنه ، حتى تسقط " البلية " فوق المربع .

وشيئًا فشيئًا ، فى أثناء مشاهدتى ، أخذتنى حمى اللعب أنا أيضا . خسرت الأدوار الأولى. ثم بدأت أشعر وكأنى فى حالة نشوة ملهمة ، عجيبة . كنت أتصرف آليًا ، بإيحاء مفاجىء غريب للغاية ؛ هناك ! كنت أقامر فى كل مرة بعد الآخرين على الرقم الأخير ! وفى الحال يتملكنى الإحساس واليقين بأنى سأربح ؛ وكنت أكسب . كنت فى البداية أقامر بالقليل ؛ ثم ، رويدا رويدا ، بالكثير والكثير ، دون أن أحصى النقود . كانت تلك النشوة الواضحة تزيد بداخلى ، وما كانت تكدرها إحدى مقامراتى الخاسرة ، لأنى كنت – كما يبدو لى – أتوقعها ؛ بل إنى فى بعض المرات كنت أقول لنفسى : "هذه سأخسرها : يجب أن أخسرها" . كنت فى غاية الاستثارة . وعند لعبة معينة شعرت بإلهام بأن أقامر بكل ما معى ، هنالك ، ثم وداعًا ، وكسبت . كانت أذناى تطنان ؛ فكنت أتصبب عرقا ، باردا جدًا . بدا لى أن أحد مديرى اللعب كان يراقبنى . وقد فوجىء بحظى الثابت ذلك . وفى اضطرابى ، شعرت فى نظرة ذلك الرجل بما يشبه التحدى ، وقامرت بكل ما معى مرة أخرى ، بكل مالى وبكل ما ربحت ، دون تردد : وامتدت يدى إلى الرقم السابق نفسه ، رقم ٣٥ ، كنت على وشك أن أسحبها ؛ لكن لا ، هناك ، هناك مرة أخرى ، وكأن أحدا يأمرنى بهذا .

أغلقت عينىَّ ، ولابد أنى كنت شاحبا جدًا . ساد صمت رهيب ، وبدا أن الصمت قد ساد من أجلى أنا وحدى ، وكأن جميع الموجودين يشاركوننى قلقى الرهيب . ودارت«البلية»، ودارت دهرًا ، ببطء يزيد نقطة بعد نقطة من العذاب الذى لا يحتمل . وفى النهاية سقطت .

كنت أنتظر أن يعلن مدير اللعب ، بصوته المعتاد (الذى بدا لى بعيدًا بعيدًا) .

" خمسة وثلاثون ، أسود ، فردى ، اعبر ! "

أخذت النقود واضطررت للابتعاد . وكأننى ثمل . سقطت جالسًا على الأريكة ، منهكا، أسندت رأسى إلى مسند الأريكة لحاجتى المفاجئة التى لا تقاوم للنوم ، وحتى أستعيد نشاطى بالنوم قليلاً. وكنت على وشك الاستسلام للنعاس عندما شعرت بثقل يجثم فوقى – ثقل مادى – جعلنى أصحو من غفوتى فى الحال . كم ربحت ؟ فتحت عينىَّ ؛

ولكنى أغلقتهما فوراً : كانت رأسى تدور . كان الجو الحار – هناك بالداخل – خانقاً . ماذا؟ هل حل المساء؟ كنت قد لمحت أعمدة الإضاءة موقدة . وكم من الوقت لعبت إذن ؟ نهضت رويداً رويداً ، وخرجت . فى الخارج ، عند البهو ، كان النهار لا يزال وضّاءً. وشجعتنى طراوة الهواء .

أناس عديدون كانوا يتنزهون هناك ؛ كان بعضهم يتأملون ، فى وحدتهم ، وآخرون فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة يثرثرون ويدخنون .

كنت أراقبهم جميعًا . كنت جديداً على المكان ، ولازلت مرتبكا ، وكنت أريد أن أبدو أنا أيضًا وكأنى من أهل المكان ولو بقدر ؛ وأخذت أدرس من كانوا يبدون لى على سجيتهم ، إلا أن أحد هؤلاء ، وبشكل غير متوقع ، كان يشحب ، ويحملق بعينيه ، ويصمت ، ثم يلقى السيجارة ثم يهرب بعيدا بين ضحكات الأقران ؛ كان يدخل مرة أخرى إلى قاعة اللعب . ولماذا يضحك أصحابه ؟ كنت أبتسم أنا أيضًا ، تلقائيًا ، وأنا أنظر كالأبله .

سمعت صوتًا خفيضًا ، صوتًا نسائيًا مبحوحًا يقول لى : «أنت ، يا عزيزى !»

التفتّ ورأيت إحدى أولئك النساء اللاتى كن يجلسن معى حول طاولة اللعب ، تقدم لى – وهى تبتسم – وردة . وكانت تحتفظ لنفسها بوردة أخرى ، كانت اشترتهما لتوها من محل الزهور ببهو الكازينو .

هل كان مظهرى إذن على هذا النحو من البلاهة والاضطراب ؟

اجتاحنى غيظ عنيف ، رفضت ، دون أن أشكرها ، وتأهبت للابتعاد عنها ؛ ولكنها تأبطت ضاحكة ذراعى ، وتظاهرت معى ، أمام الآخرين ، بملامح ودية ؛ وتحدثت إلى هامسة ، بسرعة بدا لى أنى قد فهمت منها أنها تعرض على أن ألعب معها ؛ إذ إنها شاهدت منذ قليل لعبى ومحالفة الحظ لى : وهى كانت – بناء على إرشادى – ستضع النقود لى ولها .

اهتز جسدى كله ! وبغضب تركتها هنالك وحدها .

وبعد قليل ، عندما دخلت مرة أخرى إلى قاعة اللعب ، رأيتها تتحدث مع رجل قصير أسمر ملتح ، أحول العينين ، يبدو من مظهره أنه إسباني . كانت قد أعطته الوردة التى قدمتها لى قبل قليل . ومن حركة صدرت عن الاثنين أدركت أنهما كانا يتحدثان عنى ، فأخذت حيطتى .

دخلت قاعة أخرى ؛ واقتربت من أول منضدة ، ولكن دون أن أقصد اللعب ، وها هو - بعد قليل - ذلك الرجل بدون المرأة يقترب هو أيضا من المنضدة متظاهرا بأنه لم يلاحظنى .

عندئذ أخذت أنظر إليه فى ثبات حتى يفهم أنى قد لاحظت جيداً كل شىء ، وأنه سوف يخطىء إن صدر منه شىء نحوى .

لكن مظهره كان لا يوحى بأنه محتال ؛ رأيته يلعب ، وبمبالغ كبيرة ، وخسر ثلاث مرات متوالية ، كان يغمض جفنيه مرات متلاحقة ، ربما للجهد الذى كان يبذله لرغبته فى إخفاء اضطرابه . وعند خسارته للمرة الثالثة نظر إلىّ وابتسم .

تركته هنالك ، وعدت إلى القاعة الأخرى ، إلى المنضدة التى كسبت فيها قبلا .

كان قد تم تغيير مديرى اللعب . كانت المرأة هناك فى مكانها الأول . بقيت فى الخلف حتى لا ترانى ، ورأيت أنها تقامر بمبالغ ضئيلة ، ولا تشترك فى جولات اللعب كلها . تقدمت للأمام، فلمحتنى ، كانت على وشك اللعب ، وتوقفت انتظارا لأن ألعب أنا - كما هو واضح - لكى تضع نقودها حيثما أضع أنا . لكنها عبثا انتظرت . فعندما قال مدير اللعب : "اكتمل اللعب لا يضع أحد نقوده بعد الآن !" نظرت إليها ، فرفعت إصبعها تهددنى مداعبة . لم ألعب لعدة جولات؛ ثم عندما استثارتنى رؤية اللاعبين الآخرين مرة أخرى ، وعندما شعرت بأن الإلهام الأول قد عاد يتأجج بداخلى ، لم أعرها اهتماما واستأنفت اللعب .

ما هو الإلهام الغامض الذى كنت أتابع به بلا خطأ اختلاف الأرقام والألوان غير المتوقع؟ هل كان إلهامى مجرد حدس معجزى فى اللاوعى ؟ وكيف أفسر إذن عناداً وإصراراً مجنونًا - نعم مجنونًا - لازال مجرد ذكره يصيبنى بالقشعريرة ، باعتبار أنى

كنت أخاطر بكل شيء بكل شيء ، ولعلنى كنت أخاطر بحياتى أيضًا فى جولات لعبى التى كانت تحديًا حقيقيًا للحظ ؟ لا ، لا : لقد واتانى إحساس بوجود قوة شيطانية بداخلى ، فى تلك اللحظات ، ولهذا كنت أروض الحظ ، وأفتنه ، وكنت أربط نزواته بنزوتى . ولم يكن هذا الاقتناع بداخلى وحدى ، فسرعان ما انتشر بين الآخرين كذلك ؛ فأخذوا جميعًا تقريبًا يتبعون خطاى فى مخاطر لعبى الشديدة. لا أعلم كم مرة مَرَّ الأحمر الذى كنت مصرًا على المراهنة عليه : كنت أراهن على الصفر ، وكان الصفر يكسب . حتى ذلك الشاب ، الذى كان يستخرج العملات الفرنسية من جيب سرواله ، اهتز وسرى الحماس إليه ؛ وكان ذلك الرجل الضخم يشهق أكثر من ذى قبل . كانت الإثارة تزداد لحظة بعد لحظة حول المنضدة ؛ كانت ارتجافات قلق ، واندفاعات حركات عصبية ، وكان انفعال مكبوت بمشقة ، انفعال مضطرب رهيب . حتى مديرو اللعب أنفسهم فقدوا رباطة جأشهم .

وفجأة ، وأمام مراهنة هائلة ، شعرت بدوار . شعرت بمسئولية ضخمة تقع على كاهلى. كدت أن أكون صائما منذ الصباح ، وكان جسدى كله يرتجف ، وكنت أرتعش من الانفعال العنيف الطويل . لم أستطع الاستمرار فى اللعب ، وبعد هذه المراهنة انسحبت مترنحًا. شعرت بأحدهم يمسك بذراعى . باضطراب شديد ، وبعينين ينطلق منهما اللهب ، كان ذلك الإسبانى الملتحى ، قوى البنية ، يريد استبقائى بأى ثمن : « ها قد بلغت الساعة الحادية عشرة والربع؛ ومديرو اللعب يدعون إلى الثلاث جولات الأخيرة : ولسوف نجعل المصرف يفلس ! » .

كان يحدثنى بلغة إيطالية ركيكة ، مضحكة للغاية ، لأنى – وكنت قد فقدت القدرة على الفهم والإدراك – قد تمسكت بالرد عليه بلغتى .

« لا ، لا ، كفى ! لم أعد قادرًا ! اتركنى أمضِ ، ياسيدى العزيز» .

تركنى أمضى ، لكنه أتى بجوارى ، وصعد معى قطار العودة إلى نيس ، وأراد بشكل قاطع أن أتعشى معه وأن أقيم بعد ذلك فى فندقه نفسه .

لم يضايقنى كثيراً فى البداية الإعجاب المشوب بالخوف الذى يبدو أن ذلك الرجل كان سعيداً للغاية بأن يخصنى به ، وكأنى ساحر . فالغرور الإنسانى لا يأبى أحيانا أن يتحول إلى قاعدة يرتفع عليها تقدير مهين ، وإلى بخور لاذع كريه فى مباخر حقيرة غير لائقة . كنت أشبه بقائد كسب معركة يائسة وضارية ، ولكن بالصدفة ، وبدون أن يعلم كيف . وهكذا بدأ يتسلل إلى نفسى رويداً رويداً الضيق الذى بدأت أشعر به ، والذى كانت تسببه لى صحبة ذلك الرجل.

ومع هذا ، ورغم محاولاتى ، إلا أننى لم أستطع عند نزولى فى نيس أن أتخلص منه: اضطررت للذهاب معه للعشاء . وعندئذ اعترف لى أنه هو الذى أرسلها لى ، هنالك ، فى بهو الكازينو ، أرسل تلك المرأة الطروب ، التى كان يضع لها جناحين منذ ثلاثة أيام حتى تطير ، على الأقل أرض أرض . جناحين من ورق البنكنوت ؛ أى أنه كان يعطيها بضع مئات من الليرات حتى تجرب حظها . ولابد أن المرأة قد كسبت كسبًا كبيراً فى تلك الليلة ، إذ اقتفت أثرى فى اللعب ؛ لأنها عند الخروج لم يظهر لها أثر .

« وماذا يمكننى أن أفعل ؟ لابد أن المسكينة وجدت من هو أفضل . فأنا عجوز . بل إنى أشكر الله كذلك على أنى قد تخلصت منها !» .

قال لى إنه كان فى نيس منذ أسبوع ، وأنه ذهب إلى مونت كارلو كل صباح ، حيث لازمه دائمًا وحتى تلك الليلة سوء حظ لا يصدق . كان يريد أن يعرف كيف أكسب . لابد أننى قد فهمت اللعبة أو أن هناك قاعدة لا تخطىء قد امتلكت ناصيتها .

أخذت فى الضحك وأجبته بأنى حتى صباح ذلك اليوم نفسه لم أكن قد رأيت روليت ، ولو مرسومة ، وأننى لم أكن أعرف إطلاقًا طريقة لعبها ، وأنى ما كنت أظن ولو ظنا بعيداً أنى كنت سألعب وسأكسب بهذه الطريقة . كنت منزعجا ومبهورا أكثر منه .

لم يقتنع . حتى أنه حول الحديث بمهارة (وكان بلا شك يظن أنه يتعامل مع محتال محترف) وأخذ يتكلم بعدم اكتراث يثير الإعجاب بلغته تلك نصفها الإسبانية ونصفها الآخر لا يعلمه إلا الله ، وجاء يعرض على العرض نفسه الذى حاوله معى فى الصباح من خلال تلك المرأة اللعوب .

صحت محاولاً على كل حال أن أخفف بابتسامة منى غضبى : « لكن لا ، معذرة ! أيمكن حقا أن تصر على الاعتقاد بأنه قد تكون هناك قواعد لتلك اللعبة ، وأنه يمكن أن يكون لها سر ؟ ما تحتاجه اللعبة هو الحظ ! وقد حالفنى الحظ اليوم ؛ وقد لا يحالفنى غدا ، أو قد يحالفنى مرة أخرى ؛ أرجو هذا !» .

سألنى : « ولكن لماذا لم ترد اليوم أن تستغل حظك ؟ »

« أنا ، أستـ ... »

« نعم ، كيف أقول لك هذا ؟ أن تستفيد ، هاك ! »

« ولكن يا سيدى العزيز ، حسب إمكانياتى ! »

قال : « حسنا ! أضع أنا النقود . أنت ، الحظ ، وأنا سأضع النقود» .

استنتجت أنا مبتسمًا : « إذن فقد نخسر ! لا ، لا .. انظر ! إذا كنت تعتقد حقًا أننى محظوظ ، وقد أكون محظوظًا فى اللعب ؛ ولست كذلك بالتأكيد ، فى كل ما يبقى – فلتعمل هكذا ؛ وبلا اتفاقات بيننا وبدون مسئولية علىّ ، لأنى لا أريد مسئوليات ، ضع نقودك الكثيرة حيثما أضع أنا نقودى القليلة ، مثلما فعلت اليوم ؛ وإذا سارت الأمور سيراً حسنا ..» .

لم يدعنى أختم كلامى : انفجر ضاحكا ضحكة غريبة ، كان يريد لها أن تكون خبيثة ، وقال : «لا يا سيدى ! لا ! اليوم ، نعم ، فعلت هذا : ولكنى لن أفعل هذا فى الغد بكل تأكيد ! إن وضعت أنت نقوداً كثيرة معى ، حسنا! وإلا ، فإنى لن أفعل هذا بالتأكيد ! شكرًا جزيلاً!».

نظرت إليه محاولا أن أفهم ما يقصد بقوله هذا : كانت ضحكته تلك بكل تأكيد وكلماته تلك تنم عن شك مهين فى . اضطربت ، وطلبت منه تفسيراً .

توقف عن الضحك ؛ ولكن بقى على وجهه أثر تبدد تلك الضحكة .

كرر حديثه : « أقول لا ، إنى لن أفعل هذا ؛ ولن أضيف كلمة أخرى ! » .

ضربت بيدى ضربة قوية على المنضدة وأعقبت هذا بصوت غاضب :

« لا إطلاقًا ! ولكن يجب أن تقول ، وأن تفسر ماذا كنت تعنى بكلماتك وبضحكتك البلهاء ! أنا لا افهم ! » .

رأيت وجهه يشحب كلما تكلمت ، وكأنه ينكمش ؛ كان من الواضح أنه على وشك أن يقدم لى الاعتذار . فنهضت غاضباً وهزرت كتفى .

« إنى أحتقرك وأحتقر شكوكك ، التى لا أستطيع تخيلها ! »

ودفعت حسابى وخرجت .

عرفت رجلاً محترمًا ويستحق كذلك - بسبب سجاياه العقلية - أن يكون مثار الإعجاب بدرجة عظيمة : ولم يكن حاله كذلك - ليس أكثر أو أقل - بسبب سرواله القصير فاتح اللون على هيئة مربعات صغيرة ، والذى كان يصر على ارتدائه وهو ملتصق التصاقًا شديداً بساقيه النحيفتين . فالملابس التى نرتديها وقصتها ، ولونها يمكن أن تجعل الآخرين يظنون بنا أغرب الظنون .

ولكنى كنت أشعر بضيق بالغ جداً ، إذ كان يبدو لى أنى لا أرتدى ملابس سيئة . ولم أكن أرتدى الملابس الرسمية ، هذا حق ، ولكنى كنت أرتدى بدلة سوداء ، بدلة حداد لائقة جداً . ثم إذا كان الألمانى القبيح - وأنا أرتدى هذه الملابس نفسها - قد استطاع أن يحسبنى فى البداية أبلها ساذجًا ، حتى أنه خطف مالى وكأنه لم يفعل شيئًا ؛ فكيف يحسبنى هذا الآن محتالاً ؟

وأخذت أفكر وأنا أسير « لعل هذا بسبب هذه اللحية الضخمة ، أو بسبب هذا الشعر القصير جداً .. » .

كنت أبحث فى تلك الساعة عن فندق ، أى فندق ، لكى أغلق علىّ باب حجرتى لأرى كم كسبت. كان يبدو لى أنى ملىء بالنقود : كانت نقودى موزعة فى كل مكان ، فى جيوب السترة والسروال والصديرى : ذهب وفضة وأوراق بنكنوت ، لابد أنها كانت كثيرة ، كثيرة جداً !

سمعت جرس الثانية صباحًا . كانت الشوارع خالية . مرت بى عربة خالية ، فركبتها ... لقد ربحت حوالى أحد عشر ألف ليرة بلا شىء ! لم أر مثل هذا المبلغ منذ زمن طويل ، وفى البداية بدا لى مبلغًا كبيرًا . ولكنى عندما تذكرت حياتى السابقة شعرت بمهانتى الكبيرة. آه ! هل أدت سنتا العمل فى المكتبة ، بما أحاط بهما من مآسٍ أخرى ، إلى جعل قلبى بائسًا إلى هذا الحد ؟

أخذت أعض نواجذى بسمى الزعاف الجديد ، وأنا أنظر المال موضوعًا فوق السرير: " امض ، أيها الرجل الفاضل ، أمين المكتبة الوديع ، امض ، عد إلى بيتك لتهدىء بهذا المال الوفير الأرملة بسكاتورى ، سوف تظن هى أنك سرقته وفى الحال ستحتفى بقدرك العظيم . أو امض بالأحرى إلى أمريكا ، كما قررت قبلا ، إن لم يبد لك هذا مكافأة مناسبة لجهدك الضخم . الآن تستطيع هذا ، بما لديك . أحد عشر ألف ليرة ! يالها من ثروة! " .

جمعت المال ، وألقيت به فى درج الكومودينو ، واستلقيت على الفراش . ولكنى لم أجد للنوم سبيلاً . عمومًا ماذا علىّ أن أفعل ؟ هل أعود إلى مونت كارلو ، لأعيد هذا المكسب غير المألوف ؟ أم أرضى به ، وأستمتع راضيًا ؟ ولكن كيف ؟ ألا زالت لدى وسيلة ونفسية للاستمتاع ، مع وجود تلك العائلة التى كونتها ؟ أستطيع أن أهب ملابس أقل فقرًا لزوجتى ، التى لم تعد تهتم بإثارة إعجابى ، وإنما تجتهد كل الاجتهاد لأن تظهر أمامى بمظهر مؤلم ، فتبقى مشعثة الشعر طيلة اليوم ، وبدون شداد الصدر ، وقدماها فى الشبشب وبملابسها تتهدل عليها من كل جانب . ألعلها كانت تعتقد أن زوجا مثلى لم يعد يستحق أن تتجمل له ؟ ثم إنها بعد ما مرت به من مخاطرة شديدة فى الولادة ، لم تسترد صحتها بشكل جيد . أما نفسها ، فقد ازدادت مرارتها وحدتها يوما بعد يوم ، ليس معى فقط ، وإنما مع الجميع . وأدى هذا الحقد وغياب عاطفة حية وحقيقية إلى زيادة فتورها الحاد . ولم تتعلق بالطفلة أيضا ، فقد مثلت ولادتها مع ولادة الأخرى – التى توفيت بعد أيام قليلة – هزيمة بالنسبة لها أمام ابن أوليفا الذكر الجميل ، الذى ولد بعد ذلك بشهر نضرًا صحيحًا بلا متاعب بعد حمل سعيد . ثم إن كل هذه المرارة ،

وكل تلك المشاجرات التى تنشأ عندما يربض العوز مثلما يربض قط قبيح أسود فوق رماد مدفأة قد انطفأت ، جعلت التعايش بين الاثنتين كريها ممجوجا . أيمكننى أن أعيد السلام إلى بيتى بأحد عشر ألف ليرة وأن أبعث للحياة الحب الذى وئد جورا عند مولده على يد الأرملة بسكاتورى ؟ جنون ! وإذن ؟ هل أرحل إلى أمريكا ؟ ولكن لماذا أذهب بعيداً هكذا بحثًا عن الحظ ، بينما أراد هو على ما يبدو أن يوقفنى هنا ، فى نيس ، دون أن أفكر فى هذا ، أمام ذلك المحل الخاص بأدوات اللعب ؟ والآن علىّ أن أبين أنى أستحقه ، وأستحق أفضاله إذا كان حقيقة ، كما يبدو ، يريد أن يمنحها لى . هيا هيا ! إما كل شىء أو لا شىء . ففى نهاية المطاف كنت سأعود إلى ما كنت عليه قبلا . ما هى قيمة أحد عشر ألف ليرة ؟

وهكذا عدت فى اليوم التالى إلى مونت كارلو . عدت لاثنى عشر يومًا متتاليًا . ولم أعد أجد وقتًا أو سبيلاً للتعجب عند ذلك من فضل الحظ الذى كان أسطوريا أكثر مما كان خارقًا للعادة. لم أكن فى وعيى ، بل كنت مجنونا : لا أشعر حتى هذه اللحظة بالدهشة ، لأنى أعلم للأسف ما كان يعد بمساعدته لى بتلك الطريقة وبتلك الدرجة . فى تسعة أيام وصلت إلى جمع مبلغ ضخم حقا باللعب المحموم : وبعد اليوم التاسع بدأت أخسر وكانت مصيبة . فقد فقدت الإلهام العجيب وكأنه لم يعد يجد ما يتغذى به فى طاقتى العصبية التى أصابها الإنهاك . ولم أعرف ، أو بالأحرى لم أستطع التوقف فى الوقت المناسب . توقفت ، وعدت إلى رشدى، لا بفضل عزيمتى ، وإنما بسبب مشهد عنيف ومخيف ، يبدو أنه ليس نادر الحدوث فى ذلك المكان .

ففى صباح اليوم الثانى عشر ، كنت أهم بدخول قاعة اللعب عندما لحق بى ذلك الرجل الذى من لوجانو المغرم برقم ١٢ وكان مضطربًا ولاهثًا ليخبرنى بالإشارة والكلمات أن أحدهم قد قتل نفسه هنالك ، فى الحديقة منذ قليل . ظننت فى الحال أنه الإسبانى وشعرت بالندم . كنت على يقين من أنه ساعدنى على الكسب . ففى اليوم الأول ، بعد مشاجرتنا تلك ، لم يرد أن يقامر حيث كنت أقامر أنا ، واستمر فى الخسارة ؛ وفى الأيام التالية عندما رأى أنى كنت أكسب باستمرار ، حاول أن يتبع خطاى فى اللعب ؛ ولكنى لم أرد أنا هذا آنذاك ، فأخذت أتجول من منضدة إلى أخرى وكان الحظ

الحاضر وغير المنظور يقودني ممسكا بيدي. ومنذ يومين لم أعد أراه ، أي منذ أن بدأت في الخسارة التي قد يكون السبب فيها أنه لم يعد يلاحقني .

كنت على يقين ثابت أنني سأجده هنالك في المكان الذي دلني عليه ، ممدداً على الأرض ، جثة هامدة . ولكني وجدت ذلك الشاب الشاحب الذي كان يتظاهر باللامبالاة والتراخي، وهو يسحب من جيب سرواله نقوده الفرنسية ليقامر بها دون أن يلقي مجرد نظرة على الروليت .

كان يبدو أصغر ، وهو هنالك في منتصف الطريق ، كان يرقد معتدلا ، مضموم القدمين وكأنه استلقى أولاً ، حتى لا يصيبه شيء عند سقوطه ؛ كان أحد ذراعيه ملتصقًا بجسده ؛ والآخر ، مرفوعا وإصبعه " السبابة" ، منطوياً في وضع الضغط على الزناد . وبالقرب من هذه اليد كان المسدس ؛ وعلى مسافة منه القبعة . في البداية بدا لي أن الرصاصة قد خرجت من عينه اليسرى ، ومعها دم كثير سال على وجهه وقد تجلط الآن . ولكن لا : فقد تدفق ذلك الدم من هناك ، وكذلك شيء منه من منخريه وأذنيه ، وتدفق دم كثير من ثقب في صدغه الأيمن على رمال الطريق الصفراء ، وتجلط كله . كانت دستة من الزنابير تطن حوله ، وكان أحدها يمضي ليقف هنالك أيضا ، فوق عينه . ولم يفكر أحد من المحتشدين لمشاهدته في طردها بعيداً . أخرجت من جيبي منديلا ووضعته على ذلك الوجه المسكين المشوه بشكل مروع . لم يلق ما قمت به قبولا من أحد ؛ لقد أخفيت أفضل ما في المشهد .

انطلقت هارباً ؛ عدت إلى نيس لكي أرحل عنها في ذلك اليوم نفسه .

كان معي اثنان وثمانون ألف ليرة .

كنت أستطيع أن أتخيل كل شيء ، إلا أن يحدث لي أيضا شيء شبيه ليلة ذلك اليوم نفسه .

(٧)

أغير القطار

كنت أفكر : سأسترجع ضيعة ستيا ، وسأعتزل هنالك ، فى الريف لأعمل طحَّانًا ، الإقامة أفضل بالقرب من الأرض ؛ ولعلها - تحتها تكون أفضل وأفضل .

« كل حرفة ، فى الواقع ، لها سلواها . حتى حرفة اللحَّاد . فقد يجد الطحَّان سلواه فى ضجيج أحجار الطاحونة وفى الغبار الذى يتطاير فى الهواء ويكسوه بالطحين .

« أنا على يقين أنه لا ينقطع أى جوال حاليا ، فى الطاحونة . ولكن ما أن أستردها أنا :

« يا سيد ماتيا ! مزلاج العمود ! ياسيد ماتيا ، انكسر حامل العجلة ! يا سيد ماتيا ، أسنان العجلة! .

« مثلما كان الحال عندما كانت أمى رحمها الله على قيد الحياة ، وكان ملانيا يقوم على الإدارة .

« وبينما سأهتم أنا بأمر الطاحونة ، سيسرق الخولى ما تثمره الأرض الزراعية ، وإذا ما قمت أنا على العكس من هذا برعاية الأرض سيقوم الطحان بسرقة دخل الطاحونة . والطحان من هنا والخولى من هناك سيقومان بعمل الأرجوحة وأنا فى المنتصف أستمتع.

« لعله سيكون من الأفضل أن أستخرج من الخزانة المكرمة الخاصة بحماتى أحد ملابس فرانشسكو أنطونيو بسكاتورى القديمة التى تصونها الأرملة بالكافور والفلفل وكأنها رفات مقدس ، وألبسها لماريانا دوندى وأبعث بها لتعمل طحانة ولمراقبة الخولى .

« من المؤكد أن هواء الريف سيحسن صحة زوجتي . قد تسقط أوراق بعض الأشجار عندما تراها ؛ وستخرس العصافير ، ونتمنى ألا تجف عين المياه وسأبقى أنا أمينا للمكتبة ، وحدى تماما ، فى سانتا ماريا ليبرالى » .

هكذا كنت أفكر بينما كان القطار يجرى . لم أكن قادراً على إغلاق عينى ، فكان يظهر فى الحال بدقة مفزعة جثمان ذلك الشاب ، هنالك ، فى الطريق ، جثمانا صغيراً ومعتدلا تحت الأشجار الضخمة الساكنة فى جو الصباح المنعش . ولهذا كان ينبغى أن ألتمس السلوى هكذا، بكابوس آخر ، كابوس غير دموى ، على الأقل من الناحية المادية ؛ وهو كابوس حماتى وزوجتى . وكنت أستمتع بتصور مشهد وصولى ، بعد ثلاثة عشر يوما من الاختفاء الغامض.

كنت على يقين (وكان يبدو لى أنى أراهما !) أنهما سوف يتظاهران ، عند دخولى ، بأقصى دلالات اللامبالاة استهانة . فتلقيان علىّ مجرد نظرة وكأنهما تقولان :

" آه ! حضرت إلى هنا من جديد ؟ ألم تنكسر عظمة عنقك ؟ "

وإذا صمتتا ، فلأصمت أنا .

ولكن بعد قليل سوف تبدأ الأرملة بسكاتورى بلاشك فى بصق حنقها بدءًا من الوظيفة التى ربما أكون قد فقدتها .

فى الواقع كنت قد أخذت معى مفتاح المكتبة ، ولابد أنهم عند سماع خبر اختفائى قد اضطروا بكل تأكيد إلى كسر الباب بأمر من الشرطة ، ولابد أنهم لما لم يعثروا علىَّ ميتا بداخلها ، ولم يجدوا لى أثرًا أو يسمعوا عنى خبرًا ، انتظر رجال المجلس البلدى ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام أو أسبوعًا عودتى ، ثم أسندوا مكانى لعاطل آخر .

إذن ، فلماذا كان جلوسى هنالك ؟ هل ألقيت بنفسى من جديد على قارعة الطريق ؟ فلأمكث به! فلا يمكن لامرأتين مسكينتين أن تلتزما بإعالة عاطل ، أهل للسجن ، يهرب هكذا، ومن يدرى للقيام بأية بطولات أخرى .. إلخ . إلخ .

وأنا ، صامت .

ورويداً رويداً كان غيظ ماريانا دوندى يزداد لصمتى المثير ذاك ، يزداد ، ويغلى ، وينفجر - وأنا ، هنالك لا أزال ، صامتًا !

وعند نقطة معينة ، كنت سأخرج من جيبى عند الصدر محفظتى ، وسآخذ فى عدّ الأوراق النقدية من فئة الألف ليرة فوق المنضدة : ها ، ها ، ها وها ..

وتحملق عيون ماريانا دوندى وزوجتى كذلك وينفغر فاهما .

ثم :

« من أين سرقتها ؟ »

« سبعة وسبعون ، ثمانية وسبعون ، تسعة وسبعون ، ثمانون ، إحدى وثمانون؛ خمسمائة ، ستمائة ، سبعمائة ، عشرة ، عشرون ، خمسة وعشرون ؛ ثمانون ألف وسبعمائة وخمس وعشرون ليرة ، وأربعون سنتًا فى جيبى » .

وكنت سأجمع بهدوء الأوراق المالية ، وأضعها فى محفظتى ، وأنهض واقفا .

« ألم تعودا تريداننى فى البيت ؟ حسنًا ، شكرًا جزيلاً ! أنا منصرف ، وتحيتى لكما » .

كنت أضحك فى أثناء تفكيرى هذا .

كان رفاقى فى السفر ينظرون إلى ويبتسمون هم أيضًا فى الخفاء .

وعندئذ ، ولكى أتخذ مظهرًا أكثر وقارًا ؛ كنت أشرع فى التفكير فى الدائنين ، الذين سأوزع عليهم هذه الأوراق المالية ، فأنا لا أستطيع إخفاءها . ثم ، ماذا أنتفع بها إن أخفيتها ؟ ومن المؤكد أن أولئك الكلاب لن يتركونى أستمتع بها ، إن أردت الاستمتاع ، وإن أردت أن أبدأ من جديد هنالك بطاحونة ضيعة ستيا وبما تغلّه الضيعة ، مع الالتزام كذلك بدفع مقابل الإدارة ، التى كانت تأكل كل شىء كحجرى الرحى (وكان للطاحونة كذلك حجران) فمن يدرى عدد السنين التى ينبغى أن ينتظروا مرورها لسداد الديون . ولعلى الآن لو قدمت عرضًا بالدفع النقدى لاستطعت أن أزيحهم عن

كاهلى باتفاق مرض . وكنت أقوم بحساباتى: كذا ، لريكيونى الذبابة المزعجة تلك ، وكذا لفليبو بريزيجو ، ويسعدنى أن يستخدمه فى دفع نفقات جنازته فلا يعود يمص دماء المساكين ، وكذا لتشكين لونارو التورينى ؛ وكذا للأرملة ليتبانى .. ومن أيضا ؟ هه ! لديك رغبة ! ديللابيانا ، وبوسّى ، ومارجوتينى .. ها هو مكسبى كله!».

لقد كسبت فى مونت كارلو لأجلهم ، فى نهاية الأمر ! يا للغضب على يومى الخسارة!

كنت سأغدو ثريا من جديد ... ثريا!

كنت أتنهد تنهدات أكبر تأثيراً من ابتساماتى السابقة فتجعل رفاق السفر يستديرون نحوى . ولكنى لم أجد سبيلا للراحة. كان المساء ماثلا ؛ كان الهواء يبدو رماديا؛ والضجر من السفر لا يحتمل .

من أولى محطات القطار فى إيطاليا اشتريت جريدة بأمل أن تجلب إلىَّ النعاس. فتحت الجريدة وعلى ضوء المصباح الكهربى ، شرعت فى القراءة . وهكذا . وهكذا علمت – وكان هذا عزاءً لى – أن قصر فالنساى قد عرض للبيع بالمزاد مرة ثانية وأنه آل إلى السيد الكونت دى كاستلانى بمبلغ مليونين وثلاثمائة ألف فرنك . وكانت مساحة الضيعة المحيطة بالقصر تبلغ ألفين وثمانمائة هكتار ، وهى أكبر ضيعة فى فرنسا .

« تقريباً مثل مساحة ستيا ... »

وقرأت أن إمبراطور ألمانيا قد استقبل فى بوتسدام ، فى منتصف النهار ، سفارة المغرب ، وأن وكيل الوزارة البارون دى ريشتوفن قد حضر حفل الاستقبال . وعندما استقبلت الإمبراطورة أعضاء الوفد فيما بعد تناولت معهم طعام الغداء ، ومن يدرى كيف التهموا الطعام !

وكذلك قيصر روسيا وعقيلته استقبلا فى بطرهوف بعثة خاصة من التبت قدمت لجلالتيهما هدايا اللاما .

تساءلت وأنا أغمض عينيَّ غارقا فى التفكير : «هدايا الدالاى لاما ؟ وماذا تكون ؟» الخشخاش : فقد نعست . ولكنه خشخاش ضئيل الأثر ؛ فسرعان ما استيقظت عند ارتجاج القطار الذى كان يتهيأ للوقوف عند محطة أخرى .

نظرت إلى الساعة ، كانت تشير إلى الثامنة والربع . سأصل إذن بعد ساعة . كانت الجريدة لاتزال فى يدى وطويت الصفحة الأولى لأبحث فى الصفحة الثانية عن هدية أفضل من هدايا اللاما . ووقع نظرى على .

انتحـــار

هكذا بحروف سميكة .

ظننت فى الحال أنه قد يكون شاب مونت كارلو ، فأسرعت بالقراءة . ولكنى توقفت من المفاجأة عند أول سطر مطبوع بأحرف صغيرة للغاية : أبرقوا لنا من ميرانيو .

« ميرانيو ؟ من ذا الذى سينتحر فى بلدتى ؟ »

قرأت : " بالأمس ، السبت ٢٨ تم العثور فى قناة إحدى الطواحين على جثة فى حالة تعفن شديد .. ".

وفجأة أصابت الغشاوة بصرى ، إذ بدا لى أنى لاحظت فى السطر التالى اسم ضيعتى ؛ وإذ كنت أبذل مجهوداً فى قراءة الأحرف الصغيرة ، بعين واحدة ، فقد نهضت على قدميَّ لأقترب من المصباح .

"تعفن شديد . وتقع الطاحونة فى ضيعة تسمى ضيعة ستيا على بعد كيلومترين تقريبا من مدينتنا . وهرعت للمعاينة السلطة القضائية مع أناس آخرين . وتم انتشال الجثة من القناة لإجراء المعاينة القانونية وحراستها . وقد تم التعرف على صاحبها بعد ذلك وهو ..." .

وقفز قلبي في حلقي ، وحملقت في رفقائي في السفر الذين كانوا نياما كلهم ، وكأن مسًا من الجنون قد أصابني .

"هرعت للمعاينة .. بعد ذلك .. على صاحبها بعد ذلك وهو أمين مكتبتنا ماتيا باسكال الذي اختفى منذ أيام عديدة . وسبب الانتحار : مصاعب مالية" .

"أنا ؟ ... اختفى .. التعرف عليه .. ماتيا باسكال .." .

بنظرة شرسة وتقلب مضطرب أعدت قراءة تلك السطور القليلة مرات لا أعرف عددها في انفعالي الأول ، وانتفضت طاقاتي الحيوية كلها في عنف اعتراضا : وكأن ذلك الخبر المستفز في اقتضابه البارد يمكن أن يكون بالنسبة لي حقيقيا ولكنه إن لم يكن حقيقيًا بالنسبة لي فهو مع ذلك حقيقي بالنسبة للآخرين ؛ واليقين الذي كان لدى الآخرين منذ الأمس عن وفاتي كان يبطش بي بطشًا لا يحتمل ، بطشا مستمرًا ساحقًا .. نظرت من جديد إلى رفاقي في السفر وكانوا هم أيضا هنالك تحت ناظري وكأنهم مستريحون لهذا اليقين ، وكدت أن أهزهم وهم في أوضاعهم غير المريحة والمؤلمة ، أن أهزهم ، وأوقظهم لأصرخ فيهم أن هذا غير حقيقي .

« هل هذا ممكن ؟ »

وأعدت مرة أخرى قراءة الخبر المذهل .

كنت أستشيط غضبًا . كنت أريد أن يتوقف القطار ، وكنت أريد أن يجري بأقصى سرعة ، كان سيره الرتيب بآليته الجامدة الصماء الثقيلة تزيد من لحظة للحظة اهتزازي .

كنت أفتح كفيّ وأضمهما باستمرار ضاغطا بأظفاري في راحتيهما ؛ كنت أطوي الجريدة ، ثم أفتحها لأقرأ من جديد الخبر الذي حفظته عن ظهر قلب ، كلمة كلمة .

«التعرف عليه ! أمن الممكن أن يكونوا قد تعرفوا عليّ ؟ ... في حالة تعفن شديد .. أف !» رأيت نفسي للحظة ، هنالك في ماء القناة المائل للخضرة ، متعفنًا ، منتفخًا ، فظيعًا ، طافيًا .. في جزعي الغريزي ضممت ذراعاي على صدري وتحسسته بيديّ ، وضغطته .

« أنا ، لا : أنا ، لا .. من هو يا ترى ؟ .. إنه يشبهني بالتأكيد .. لعله ذو لحية هو أيضا ، مثل لحيتي ... وهيئة مثل هيئتي .. وتعرفوا عليّ !.. اختفى منذ أيام عديدة .. آه نعم! ولكني أريد أن أعرف ، أريد أن أعرف من الذى تعجل هكذا فى التعرف عليّ . أمن الممكن أن يكون ذلك التعس شبيها لى إلى هذا الحد ؟ ويرتدى ملابس مثل ملابسى ؟ مثلى تمامًا ؟ لعلها هى ، ربما ، هى ، ماريانا دوندى ، أرملة بسكاتورى : أوه ! لقد اصطادتنى فورا ، وتعرفت عليّ فورًا ! ولعلها خشيت ألا يكون الأمر حقيقيًا! " إنه هو ! إنه هو ! زوج ابنتى ! آه ياماتيا المسكين ! آه ، يا مسكين ، يابنى ! " ولعلها أخذت تبكى أيضا ، وركعت بجوار جثة ذلك المسكين ، الذى لم يستطع أن يركلها بقدمه ويصرخ فيها : امش من هنا : أنا لا أعرفك».

كنت أستشيط غضبًا .. وأخيرًا توقف القطار عند محطة أخرى. فتحت الباب وأسرعت بالنزول مشوش التفكير فيما عساى أن أفعل ، فورًا : برقية عاجلة لتكذيب ذلك الخبر .

أنقذتنى قفزتى من عربة القطار : وكأنها هزت من مخى تلك الفكرة الحمقاء ، فرأيت فى لمح البصر .. نعم ! تحررى وحريتى وحياتى الجديدة !

كانت معى اثنان وثمانون ألف ليرة ، ولم يعد من واجبى أن أعطيها لأحد ! كنت ميتا، كنت ميتا ، ولم تعد على ديون ، ولم تعد لى زوجة ، ولم تعد لى حماة ، لا أحد ! حر ! حر! حر! وعما أبحث أكثر من هذا ؟

لابد أننى ، وأنا أفكر هكذا ، قد بقيت فى موقف غريب ، هنالك على رصيف تلك المحطة، كنت قد تركت باب العربة مفتوحًا . رأيت حولى أناسا كثيرين ، يصرخون فىّ لا أدرى بماذا؛ وفى النهاية هزّنى أحدهم ودفعنى وهو يصرخ فىّ بصوت أقوى :

« القطار يستأنف السير ! »

وصرخت فيه بدورى : «دعه ، دعه يسافر ، ياسيدى العزيز! ، فسأغير القطار!».

لقد تملكنى الآن الشك ؛ الشك فى أن يكون قد تم تكذيب هذا الخبر ؛ فى أن يكون قد تم الاعتراف بالخطأ ، فى ميرانيو ؛ وفى أن يكون أقارب المتوفى الحقيقى قد ظهروا على الساحة ليصححوا الخطأ فى تحديد هويته .

قبل أن أفرح على هذا النحو كان علىّ أن أتأكد تماماً ، وأن أحصل على أخبار دقيقة ومفصلة. ولكن كيف السبيل للحصول عليها ؟

بحثت فى جيبى عن الجريدة ، لقد تركتها فى القطار . استدرت لأنظر الرصيف الخالى ، الذى كان يمتد لامعًا لمسافة ما فى الليل الساكن ، وشعرت بأنى تائه ، فى الفراغ ، فى المحطة الفرعية الصغيرة البائسة تلك . وعندئذ تملكنى شك أكبر : ألم أحلم ؟

لا :

« أبرقوا لنا من ميرانيو ، أمس السبت ٢٨ .. » .

نعم : كنت أستطيع أن أكرر من الذاكرة البرقية كلمة بعد كلمة . لم يكن هناك شك! ومع هذا ، نعم ، كان هذا قليلاً جداً ؛ لم يكن كافيا بالنسبة لى .

نظرت إلى المحطة ؛ قرأت اسمها : ألينجا .

هل أجد فى هذه البلدة جرائد أخرى ؟ تذكرت أن اليوم كان يوم الأحد . وفى ميرانيو صدرت إذن فى الصباح جريدة الفوليتو ، وهى الجريدة الوحيدة التى تطبع فيها . كان على أن أحصل على نسخة منها بأى ثمن . ففيها كنت سأجد الأخبار التفصيلية كلها التى أحتاج إليها . ولكن كيف لى أن أتمنى وجود الفوليتو فى ألينجا ؟ حسنا كان على أن أرسل برقية باسم مزيف لإدارة تحرير الجريدة . كنت أعرف المدير ، ميركولتسى ، الذى يطلقون عليه لودوليتا[1] فى ميرانيو ، منذ أن نشر ، وهو شاب صغير ، أول وآخر ديوان شعر له بهذا العنوان . ولكن ألن يكون بالنسبة للودوليتا حدثا غريبًا طلب أعداد

---

(١) لودوليتا : تعنى القبرة الصغيرة (المترجم) .

من جريدته من ألينجا ؟ من المؤكد أن "أهم" خبر في ذلك الأسبوع، وبالتالى أقوى حدث فى ذلك العدد ، كان بلاشك هو خبر انتحارى . ألا يعرضنى هذا إذن لمخاطرة أن يثير الطلب غير المعتاد بعض الشكوك لديه ؟ ثم فكرت " : ماذا - ! لن يخطر ببال لوبوليتا قط أنى لم أغرق حقيقة . سيبحث عن سبب الطلب فى حدث قوى آخر بعدد اليوم . منذ وقت طويل وهو يحارب ببسالة المجلس البلدى من أجل إنشاء خط المياه وشبكة الغاز . سيعتقد أن السبب هو حملته هذه " .

دخلت مبنى المحطة .

لحسن الحظ كان حوذى العربة الوحيدة ، عربة البريد ، لا يزال موجودا هنالك يثرثر مع موظفى السكك الحديدية . كانت البلدة الصغيرة تبعد حوالى ثلاثة أرباع الساعة سيرًا بالعربة عن المحطة ، وكان الطريق كله صاعدًا .

ركبت تلك العربة الصغيرة المتهالكة المخلعة ، كانت بلا فوانيس ، وانطلقت بنا فى الظلام. كان علىّ أن أفكر فى أمور كثيرة ؛ ومع هذا ، ومن وقت إلى آخر ، كان التأثير العنيف الذى اجتاحنى عند قراءتى لذلك الخبر الذى كان يتعلق بى عن قرب ، يوقظنى فى تلك الوحدة المظلمة ، وعندئذ كنت أشعر ، للحظة ، بنفسى فى الفراغ ، كما شعرت منذ قليل عندما رأيت رصيف المحطة خاليًا ؛ كنت أشعر بأنى قد تحللت من الحياة تحللاً مخيفًا ، وأنى قد نجوت من نفسى وأنى تائه ، فى انتظار أن أحيا بعد الموت دون أن أدرك بعد ماهية الطريقة. سألت الحوذى ، لكى أتحول عن هذا التفكير ، إن كانت توجد فى ألينجا وكالة صحفية .

« ماذا تقول ؟ لا يا سيدى ! » .

« ألا تباع صحف فى ألينجا ؟ » .

« آه ، نعم يا سيدى يبيعها الصيدلى ، جروتّانيللى » .

« وهل يوجد فندق ؟ » .

« توجد لوكاندة بالمنتينو» .

كان قد نزل عن مقعده لكي يخفف العبء قليلاً عن الجواد العجوز الذى كان يزفر بمنخريه فى الأرض . كنت أميز هيئته بالكاد . عند نقطة معينة أشعل غليونه ، وعندئذ رأيته ولكن فى لحظات متفرقة . وفكرت : " لو أنه علم من ينقل .. " .

ولكنى وجهت السؤال فوراً إلى نفسى :

« من ينقل ؟ لم أعد أعلم هذا أنا أيضًا . من أنا الآن ؟ ينبغى أن أفكر فى هذا . ينبغى على الأقل أن أختار لى اسما فى الحال ، حتى أوقع البرقية . وحتى لا أجد نفسى محرجًا ، إذا ما سألونى عنه فى اللوكاندة . يكفى أن أفكر فقط فى الاسم ، مؤقتا . لنرى ما اسمى ؟ ».

ما كنت أتوقع أن يكلفنى اختيار الاسم واللقب عناءً كبيراً واضطراباً بالغًا وبخاصة اللقب ! كنت أجمع بعض المقاطع ، هكذا ، بلا تفكير : فتنتج عنها ألقاب مثل : ستروتسانى، وبربيتا ، ومارتونى ، وباتوزى ، ألقاب تثير أعصابى إثارة أكبر . لم أجد فيها معنى خاصًا ، أو أى مغزى . وكأن الألقاب لابد أن يكون لها فى الواقع معنى .. هه ، هيا ! أى لقب .. مارتونى، على سبيل المثال ، لم لا ؟ كارلو مارتونى .. آه ، هو ذا ولكنى بعد قليل كنت أرفع كتفى : « نعم كارلو مارتللو .. » . وكان الاضطراب يتملكنى من جديد .

وصلت إلى البلدة ، دون أن أحدد لى اسمًا . ولحسن الحظ لم تطرأ لى الحاجة إلى الاسم ، هناك عند الصيدلى ، الذى كان أيضًا موظفًا للبرق والبريد ، وبقالاً ، وبائعًا للصحف، وحيوانًا وغير هذا وذاك . اشتريت نسخة من الصحف القليلة التى تصل إليه ؛ صحف من جنوه : الكفارو والسيكولو ١٩ ؛ وبعد ذلك سألته إن كنت أستطيع الحصول على الفوليتّو الذى يصدر فى ميرانيو .

كان وجه جروتّانيللى هذا ، مثل وجه البومة ، فعيناه مستديرتان تمام الاستدارة وكأنهما من زجاج ، ومن وقت إلى آخر كان يخفض ، فى شىء من الألم ، جفنين غضروفى القوام .

« الفوليتو ؟ لا أعرفها » .

شرحت له : « هى صحيفة أسبوعية من صحف الأقاليم ، أريد أن أحصل عليها . عدد اليوم ، طبعًا .» .

« الفوليتّو ؟ لا أعرفها » أصر على تكرار هذا .

« حسنا ! ليس من المهم أن تعرفها ، سأدفع لك التكاليف بحوالة برقية لإدارة التحرير. أريد عشر ، عشرين نسخة ، غدا أو فى أسرع وقت . هل هذا ممكن ؟» .

لم يجبنى ، كان بعينيه الثابتتين ، غير الملتفتتين ، لايزال يكرر : " الفوليتو ؟ .. لا أعرفها " . وأخيراً حسم أمره وبدأ فى عمل الحوالة البرقية طبقًا لما أملى عليه ، وجهة الاستلام صيدليته.

وفى اليوم التالى ، وبعد ليلة من الأرق تقاذفتها أمواج أفكار عاصفة ، استلمت هنالك فى لوكاندة بالمنتينو خمس عشرة نسخة من الفوليتو .

فى جريدتى جنوه اللتين أسرعت بقراءتهما ، بمجرد أن أمسيت وحدى ، لم أجد أى إشارة . وأخذت يداى ترتعشان وأنا أفتح الفوليتّو . فى الصفحة الأولى ، لا شىء . وبحثت فى الصفحتين الداخليتين ، وفى الحال برزت أمام عينى علامة حداد أعلى الصفحة الثالثة وتحتها بحروف ضخمة ، اسمى ، هكذا :

ماتيا باسكال

لم ترد عنه أخبار منذ عدة أيام ، أيام من الرعب الرهيب ، ومن اللوعة التى لاتوصف عاشتها الأسرة المنكوبة ، رعب ولوعة شاطرها إياهما أفضل جانب من مواطنينا ، الذين كانوا يحبونه لطيب سريرته ، وطبعه البشوش ، وتواضعه الطبيعى الذى هيأ له ، إلى جانب فضائله الأخرى ، أن يتحمل راضيًا ودون تذمر الأقدار المعادية التى ألمت به ليصبح رقيق الحال فى الأيام الأخيرة بعد أن كان يرفل فى الرخاء هادىء البال .

فى أعقاب اليوم الأول من غيابه الغامض عندما ذهبت أسرته وقد أصابها الهلع إلى مكتبة بوكاماتسا ، التى كان يبقى فيها طول اليوم تقريبا لهمته فى عمله ليثرى عقله المتفتح بقراءات ثقافية رفيعة ، وجدت باب المكتبة مغلقا ، وعندئذ ، وأمام الباب المغلق ساورها الشك الأسود المزعج ، شك بدده سريعا الأمل الذى استمر أياما عدة ، ولكنه أخذ يتضاءل رويداً رويداً ، فى أن يكون قد رحل عن البلدة لغرض فى نفسه .

ولكن واأسفاه كانت الحقيقة للأسف هى تلك !

لقد أدت وفاة أمه الغالية مؤخراً وفى الوقت نفسه وفاة ابنته الوحيدة بعد أن فقد أملاكه التليدة إلى إصابة صديقنا المسكين باضطراب وقلق عميق ؛ حتى أنه حاول قبل ثلاثة شهور للمرة الأولى ، فى أثناء الليل ، أن يضع نهاية لأيامه التعيسة ، هنالك فى قناة الطاحونة نفسها ، التى كانت تعيد إلى ذاكرته بهاء بيته القديم وأوقاته السعيدة .

ما من ألم أمضى

من تذكر الأوقات السعيدة

فى أيام الشقاء[١] ...

روى لنا هذا ، والدموع تملأ مقلتيه وهو ينتحب أمام الجثمان المتعفن الذى يتساقط منه الماء – طحّان عجوز ، مخلص لأسرة الملاك القدامى ومحب لها . كان الليل قد هبط كئيباً ، ووضعت هنالك شعلة حمراء فوق الأرض ، بالقرب من الجثمان الذى قام على حراسته جنديان من الشرطة الملكية وفيليبو برنيا العجوز (ونشير إليه بين الصالحين) الذى كان يتكلم ويبكى معنا . لقد نجح فى تلك الليلة البائسة أن يمنع التعيس من تنفيذ مأربه العنيف ؛ ولكن فيليبو برنيا لم يكن موجوداً هناك ليمنعه فى المرة الثانية . ورقد ماتيا باسكال ، ليلة كاملة ونصف النهار التالى ، فى قناة تلك الطاحونة .

ولن نحاول ، لمجرد المحاولة ، أن نصف المشهد المؤلم الذى جرى فى الموقع ، عندما وقفت أول أمس قرب حلول المساء ، الأرملة المفجوعة أمام جثة رفيق حياتها العزيز التى لا يمكن التعرف عليها ، والذى رحل ليلحق بابنته الغالية .

---

(١) هذه الأبيات استقاها الكاتب من الأنشودة الخامسة من الكوميديا الآلهية لدانتى أليجيرى (المترجم) .

وشاطرتها البلدة كلها أحزانها وأرادت أن تعبر عن مشاطرتها بتشييع الجثمان إلى مثواه الأخير ؛ ووجه إليه كلمات توديع موجزة مليئة بالتأثر الفارس بومينو المسئول فى المجلس البلدى .

ونحن نرسل إلى الأسرة المسكينة الغارقة فى أحزانها الشديدة ، وإلى الشقيق روبرتو، المقيم بعيداً عن ميرانيو ، تعازينا الخالصة ونقول بقلوب ممزقة لآخر مرة لصديقنا الطيب ماتيا : " نم ، أيها الصديق العزيز ، نم هانئًا ! ".

م . ك

« وبدون هذين الحرفين الأولين كنت سأتعرف على لوبوليتا كاتب هذه الرثاء» .

ولكن لابد أن أعترف قبل كل شيء بأن رؤيتى لاسمى المطبوع هنالك ، تحت ذلك الخط الأسود ، وعلى الرغم من توقعاتى ، لم تسعدنى إطلاقا ، بل جعلت ضربات قلبى تسرع حتى أنى اضطررت للتوقف عن القراءة بعد بضعة سطور . لم تضحكنى عبارة "الرعب الرهيب واللوعة التى لا توصف" التى عاشتها أسرتى ، كما لم يسعدنى حب مواطنى وتقديرهم لفضائلى الجميلة . أو همتى فى العمل ، وأدهشنى فى البداية ذكر تلك الليلة التعيسة فى ضيعة ستيا ، بعد وفاة أمى وصغيرتى ، والتى كانت تجربة ، ولعلها أقوى تجربة لانتحارى ، باعتبارها مشـــاطرة مشئومة ومباغتة من الصدفة ، ثم سببت لى ندما ومذلة .

كلا ، أنا لم أنتحر بسبب موت أمى وابنتى على الرغم من أنه فى تلك الليلة قد تكون هذه الفكرة قد خطرت ببالى ! ولقد هربت ، حقا ، فى يأس ، ولكن هأنذا أعود الآن من دار للعب، حالفنى فيها الحظ بطريقة عجيبة ومازال يحالفنى ؛ وها هو آخر على النقيض منى يقتل نفسه بدلاً منى ، آخر ، غريب بكل تأكيد ، أختلس أنا منه بكاء أقاربه البعيدين والأصدقاء وأحكم عليه ويا للسخرية العظمى ! بأن يتحمل ما ليس له ، بكاء زائفًا بل ورثاء الفارس بومينو المتأنق .

كان هذا هو الانطباع الأول لقراءة هذا الرثاء فى الفوليتو .

ولكنى فكرت فيما بعد أن ذلك الرجل المسكين لم يمت بكل تأكيد بسببى ، وأنى إذا ظهرت على قيد الحياة فلن أستطيع إعادته للحياة هو أيضًا؛ وفكرت أننى باستغلالى لموته لا أخدع أقاربه إطلاقًا ، بل إننى أقدم لهم معروفًا ؛ فبالنسبة لهم كنت أنا فى الواقع المتوفى وليس هو ، وكانوا يستطيعون الاعتقاد باختفائه والتمسك بالأمل فى أن يروه يظهر أمامهم بين يوم وآخر .

وتبقى زوجتى وحماتى ، أكان على حقيقة أن أصدق تألمهما لموتى و "اللوعة التى لا توصف" و "الألم الموجع" لمقال لوبوليتا القوى الكئيب ؟ أقسم أنه كان يكفى أن يفتح أحدهم بهدوء إحدى عينى ذلك الميت لكى يدرك أنى لست أنا ؛ وإذا ما افترضنا أن العينين قد بقيتا فى قاع القناة ، فإن الزوجة إذا لم ترد حقا ، فإنها لا يمكن أن تخلط بمثل هذه السهولة رجلا آخر بزوجها .

هل أسرعتا بالتعرف علىَّ فى جثمان ذلك المتوفى ؟ هل كانت أرملة بسكاتورى تتمنى عندئذ أن يهب ملانيا ، وقد تأثر واعتراه ربما تأنيب الضمير بسبب انتحارى البربرى ذاك ، ليساعد الأرملة المسكينة ؟ حسنا ! إن كانتا راضيتين ، فأنا سعيد .

« هل مات ؟ غريقًا ؟ إذن فارسموا علامة الصليب لينتهى كل شىء ولا يتطرق الحديث إليه فيما بعد » .

نهضت ، وتمطيت ، وتنفست نفسًا طويلاً طلبًا للراحة .

(٨)

أدريانو مايس

فوراً ، ليس لكى أخدع الآخرين ؛ فقد أرادوا هم أن ينخدعوا بأنفسهم ، وبخفة قد لا يؤسف عليها فى حالتى ولكنها بالتأكيد لا تستحق الثناء ، وإنما تمشياً مع الحظ وإرضاء لحاجتى الشخصية شرعت فى أن أجعل منى رجلاً آخر .

لم يكن لدى شيء ولو قليل أمتدح به نفسى على ذلك التعس الذى أرادوا له أن ينتهى نهاية بائسة فى قناة طاحونة . ولعله ، بعد أن اقترف حماقات كثيرة ، ما كان يستحق مصيراً أفضل .

والآن كم كان يسعدنى ألا يبقى منه أى أثر فىَّ ، ليس فقط خارجياً وإنما أيضاً فى داخلى . لقد صرت وحيداً . وما كان بالإمكان أن أكون أكثر وحدة على ظهر الأرض مما أنا عليه ، فقد تحللت فى الحاضر من كل رباط ومن كل التزام ، وصرت حراً وجديداً وسيد نفسى المطلق ، بلا عبء ماضىَ ، والمستقبل أمامى أستطيع أن أصوغه حسب هواى .

آه لو كان لى جناحان ! كم كنت أشعر أنى خفيف !

الشعور الذى أعطته لى الأحداث الماضية عن حياتى كان لابد - الآن - ألا يكون له وجود بالنسبة لى . كان لابد أن أكتسب شعوراً جديداً بالحياة ، دون الإفادة ولو بقدر ضئيل بخبرة الراحل ماتيا باسكال البائسة .

كان الأمر بيدى ؛ كنت أستطيع ، بل كان على أن أكون صانعاً لمصيرى الجديد ، بالقدر الذى أراد الحظ أن يمنحه لى .

كنت أقول لنفسي : « وقبل كل شيء سأهتم بحريتي هذه ؛ سوف أقودها للتنزه في طرق سهلة وجديدة باستمرار ، ولن أجعلها تحمل أي رداء ثقيل . سوف أغلق عيني وأمضي بمجرد أن يظهر مشهد الحياة مرنولا في أي نقطة من النقاط ؛ سأدبر أمري بحيث تكون أكثر علاقتي مع الأشياء التي يطلق عليها بلا روح ، وسأمضي بحثًا عن مناظر جميلة وعن أماكن ساحرة هادئة . وسوف أهيّئ لنفسي رويدا رويدا تربية جديدة ؛ سوف أتحول بدراسة شغوفة صابرة ، حتى أستطيع أن أقول في النهاية ليس فقط إني عشت حياتين وإنما إني كنت إنسانين» .

وفي ألينجا كانت البداية ؛ فدخلت قبل رحيلي عنها بساعات محل حلاق لكي أقصر لحيتي ، كنت أريد حلاقتها بالكامل ، هناك ، وحلاقة شاربي أيضا ؛ ولكن الخوف من إثارة الشك في تلك البلدة جعلني أمسك عن هذا .

كان الحلاق خياطًا أيضًا ، كان عجوزًا ، وكانت كُليتاه تكادان تلتصقان بظهره من طول اعتياده على البقاء منحنيًا في وضع واحد ، وكان يضع نظارته على طرف أنفه . لابد أنه كان خياطا أكثر مما كان حلاقًا ، فقد نزل وكأنه عقوبة من الله على تلك اللحية التي لم تعد تخصني ، وقد تسلح بمقص ضخم من مقصات جزّ الصوف التي تحتاج إلى سند طرفها باليد الأخرى . لم أخاطر حتى بأن أتنفس ؛ أغلقت عينيّ ، ولم أفتحهما إلا عندما شعرت به يهزني هزًا خفيفًا ، كان الرجل الطيب يقدم لي ، وهو يتصبب عرقًا ، مرآة حتى أقول له إن كان قد أدى عمله بمهارة .

بدا لي هذا تزيدًا !

امتنعت « لا شكرا ضعها ، لا أريد أن أخيفها » .

حملق بعينيه وسأل :

« من ؟ »

« هذه المرآة الصغيرة جميلة ! لابد أنها قديمة .. » .

كانت مستديرة ، لها يد من العظم المرصع ، من يعلم تاريخها ومن أين وكيف أتت إلى هناك ؛ إلى محل الخياطة والحلاقة . ولكنى فى النهـاية وضعتها تحت ناظرىّ حتى لا أجعله يشعر بالأسى ، وهو مستمر فى النظر إلى فى اندهاش .

أدى عمله بمهارة !

توقعت من تلك المجزرة الأولى الشبح الذى سينطلق بعد قليل خارجا من التغير الضرورى والجذرى الذى سيطرأ على ملامح ماتيا باسكال ! وها هو سبب جديد لكرهه ! فذقنه صغيرة جداً ، وهى مدببة وملتفة ، أخفاها لسنوات كثيرة وكثيرة تحت تلك اللحية الكثيفة ، بدت لى هذه خيانة . والآن كان على أن أمضى بذقنى مكشوفة ، ذقنى تلك المضحكة ! وأى أنف تركه إرثا لى ! وتلك العين !

فكرت : « آه ! هذه العين ، المنجذبة هكذا إلى ناحية ، سوف تبقى دوما عينه هو فى وجهى الجديد ! وأنا لن أستطيع أن أفعل شيئًا إلا أن أخفيها بقدر الإمكان وراء نظارة ملونة ، سوف تعاوننى – تصور هذا – على أن تجعل شكلى محبوباً . سوف أترك شعرى يطول ، وبهذه الجبهة العريضة ، وبالنظارة وذقنى الحليقة ، سوف أبدو فيلسوفا ألمانيا ، وسأرتدى ملابس رسمية وقبعة عريضة الحواف » .

لم يكن هناك حل وسط ؛ يجب أن أكون فيلسوفا بالضرورة بهذه الهيئة. حسنا ، صبراً، سوف أتسلح بفلسفة رزينة مبتسمة ، حتى أعبر وسط هذه البشرية المسكينة التى مهما حاولت أن أغير فكرى عنها ، كان يبدو لى أن من الصعب ألا تبدو لى مضحكة ومسكينة .

أما الاسم فقد ظهر لى فى القطار ، الذى سافر منذ ساعات قليلة من ألينجا متجهاً إلى تورينو .

كان معى فى العربة مسافران يتناقشان بحماس فى الأيقونات المسيحية ، وكان يبدو على كليهما أنهما متعمقان جداً فيها بالنسبة لجاهل مثلى .

كان أحدهما ، وهو الأصغر سنًا ، ذا وجه شاحب تطغى عليه لحية سوداء كثة وخشنة، وكان يبدو أنه يشعر برضى خاص وكبير عندما ذكر خبراً ، قال إنه قديم جداً ، أكده چوستينو مارتيرى[1] وترتليانوس[2] وغيرهما ومفاده أن المسيح لم يكن جميلاً !

كان يتحدث بصوت أجش ، يتناقض بشكل غريب مع هيئته كإنسان مختلق .

« طبعًا ، طبعًا ، لم يكن جميلاً ، لم يكن جميلاً ! حتى كيرلس الإسكندرى[3] ، بكل تأكيد يصل كيرلس الإسكندرى إلى التأكيد على أن المسيح كان أقل جمالا من بنى البشر » .

أما الآخر ، فكان عجوزاً ضئيل الجسم نحيفا للغاية هادئًا فى بؤسه الزهدى ، وعلى الرغم من هذا كانت لديه تجعيدة عند ركنى الفم تكشف عن سخرية رقيقة ، وكان يكاد يجلس على ظهره ، ورقبته الطويلة تمتد وكأنها راضخة تحت النير ، فكان على العكس يؤكد أنه لا ينبغى أن نثق فى الشهادات القديمة جداً .

« لأن الكنيسة ، فى القرون الأولى التى كانت تسعى كلها لوحدة العقيدة وروح ملهمها، لم تكن تشغل نفسها كثيراً ، نعم لم تشغل نفسها كثيرا بملامحه الجسدية » .

وتطرقا عند نقطة معينة إلى الحديث عن "ڤيرونيكا"[4] ؛ أى المنديل الذى انطبع عليه وجه المسيح وعن تمثالين فى مدينة بنيادى ، يعتقد أنهما يمثلان المسيح والمرأة نازفة الدم.

اندفع الشاب الملتحى : - ولكن ، ولكن لم يعد هناك شك ! هذان التمثالان يمثلان الإمبراطور أدريانوس[5] والمدينة خاضعة عند قدميه .

---

(١) فيلسوف يونانى (١٠٠ - ١٦٥م) اعتنق المسيحية ومات شهيداً فى روما (المترجم) .

(٢) كاتب لاتينى كبير من قرطاجنة (١٦٠ - ٢٢٥م) دافع عن المسيحية ضد الوثنيين (المترجم) .

(٣) أسقف الإسكندرية وعالم لاهوت عاش فيما بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين (المترجم) .

(٤) هو الاسم الذى يطلق على شكل وجه المسيح الذى انطبع على المنديل الذى قدمته له إحدى النساء ليجفف به وجهه وهو فى طريق الآلام (المترجم) .

(٥) الإمبراطور الرومانى من سنة ١١٧ وحتى سنة ١٣٨م وقد ولد هذا الإمبراطور سنة ٧٥م وتوفى سنة ١٣٨م . (المترجم)

كان العجوز مستمراً فى تأكيد رأيه بهدوء ، وهو رأى مخالف لأن الآخر كان يصر فى ثبات وهو ينظر نحوى إلى تكرار :

« أدريانو ! »

« برونيك ، فى اللغة اليونانية . ومن برونيك جاءت ڤيرونيكا ... . »

(قال لى) – أدريانو ! .

« أو ڤيرونيكا ، أيقونة حقيقية ، وهو تحوير ممكن جداً ... »

قال لى : – أدريانو !

« لأن برونيك فى أعمال بيلاطس ... »

« أدريانو ! »

وهكذا كرر أدريانو ! مرات كثيرة لا أعلم عددها ، وكانت عيناه تتجهان نحوى باستمرار . وعندما نزلا كلاهما فى إحدى المحطات وتركانى وحدى فى الديوان ، تطلعت من النافذة لأتابعهما بنظرى ؛ كانا لايزالان يتناقشان وهما يبتعدان .

ولكن عند نقطة معينة فقد العجوز صبره وأخذ يجرى .

وسأله الشاب بصوت جهورى ، وهو واقف ، فى تحد : « من يقول هذا ؟ »

فالتفت الآخر نحوه ليقول له صارخاً :

« كاميللو دى مايس »

وبدا لى أنه قد صرخ كذلك بذلك الاسم نحوى ، نحوى أنا الذى أخذت أكرر آليا :

« أدريانو ... . » وفى الحال ألقيت جانبا دى واحتفظت باسم مايس .

« أدريانو مايس ! نعم .. أدريانو مايس : رنينه جيد ... »

وبدا لى كذلك أن هذا الاسم يتناسب بشكل جيد مع الوجه الحليق والنظارة ، والشعر الطويل ، والقبعة ذات الحواف التى لابد أن أضعها فوق رأسى .

« أدريانو مايس . حسن جداً ! لقد أطلقا علىّ اسمى» .

بعد أن انقطع انقطاعًا حاسمًا كل ذكر لحياتي السابقة في داخلي ، وبعد أن استقرت النفس على قرار استئناف حياة جديدة من تلك النقطة ، استولت على فرحة طفولية نضيرة ، كنت أشعر وكأن وعيي قد عاد إلى عذريته وشفافيته ، وأن روحي تترقب وتستعد للحصول على فائدة من كل شيء لكي تبني ذاتي الجديدة ، وكانت نفسي تجيش فرحًا بتلك الحرية الجديدة. لم أكن قد رأيت هكذا رجالا وأشياء أبدًا ؛ وانقشع الضباب من الهواء بيني وبينهم ؛ وأصبحت العلاقات الجديدة التي كان ينبغي أن تقوم بيننا علاقات سهلة يسيرة ، لأني لم أكن محتاجًا إلى أن أطلب منهم الكثير من أجل ارتياحي الداخلي . أوه ! ياالخفة النفس الحلوة ، ويا للنشوة التي لا توصف ! فجأة ، حررني الحظ من كل ارتباك ، وفصلني عن الحياة المشـتركة ، وجعلني مشاهدًا غريبًا للمجادلات التي لايزال الآخرون يشعلونها وكان يحذرني بداخلي :

« سترى ، سترى كم ستبدو لك غريبة الآن ، وأنت تشاهدها من الخارج ! ها هو أحدهم يستشيط غضبًا ويثير سخط عجوز مسكين لكي يؤكد أن المسيح كان أقل جمالا من البشر كلهم » . كنت أبتسم . كانت الابتسامة ترتسم هكذا على وجهي لأي شيء ولكل شيء : لأشجار الريف – على سبيل المثال – التي كانت تأتي في مقابلي بأشكالها الغريبة في أثناء فرارها الوهمي ؛ والبيوت الريفية المتناثرة هنا وهناك ، حيث يسعدني أن أتخيل المزارعين وقد انتفخت أصداغهم لينفخوا الضباب عدو أشجار الزيتون ، ورفعوا أذرعهم وضموا قبضاتهم نحو السماء التي لا تشاء أن ترسل الماء ، وكنت أبتسم للطيور الصغيرة التي تشرد عن جماعتها، وقد هالها ذلك الشيء الأسود الذي يقطع الريف بضجيجه ، ولتموج أسلاك البرق ، التي تمر بها أخبار للصحف ، مثل الخبر الوارد من ميرانيو عن انتحاري في طاحونة ستيا ، ولزوجات عمال السكك الحديدية المسكينات اللاتي يسلمن الراية الصغيرة المطوية ، وهن حوامل يضعن على رءوسهن قبعات أزواجهن .

إلا أن بصري قد وقع في لحظة معينة على خاتم زواجي الذي كان لايزال يضغط على بنصر يدي اليسرى. أصابتني رجفة عنيفة ؛ أغمضت عيني بشدة وضغطت على يدي باليد الأخرى محاولا أن انتزع تلك الحلقة الذهبية ، هكذا ، في الخفاء ، حتى لا أراها بعد ذلك.

تذكرت أنها تنفتح ، وأن بداخلها حفر اسمان : ماتيا - روميلدا وتاريخ الزواج.
ماذا أفعل به؟

فتحت عينيَّ وبقيت متجهما بعض الوقت أتأمله في راحة يدي.

أضحى كل شيء من حولي أسودَ من جديد.

ها هي بقية باقية من القيد الذي كان يربطني بالماضي! خاتم صغير، خفيف في حد ذاته، ولكنه ثقيل غاية الثقل! ولكن القيد قد انكسر، فلتمض إذن هذه الحلقة الأخيرة أيضاً.

هممت أن ألقيه من النافذة، ولكني أمسكت عن هذا. فإذا كانت الصدفة قد سنحت لي بشكل فريد، إلا أنني يجب ألا أثق فيها بعد هذا، وكان علي أن أظن أن كل شيء ممكن، حتى هذا: أن خاتماً ملقًى في الريف الفسيح، قد يجده صدفة أحد الفلاحين، فينتقل من يد إلى يد وذلكما الاسمان محفوران بداخله مع التاريخ، فيكشف الحقيقة، أي أن غريق ستيا لم يكن أمين المكتبة ماتيا باسكال.

فكرت : «لا، لا، بل في مكان أكثر أمنًا ... ولكن أين؟»

في تلك اللحظة توقف القطار في محطة أخرى. نظرت، وواتتني في الحال فكرة، تورعت في البداية عن تحقيقها. أقول هذا حتى يكون ذريعتي أمام أولئك الذين يحبون اللفتة الجميلة، أناس قليلو التبصر يعجبهم ألا يتذكروا أن البشرية تعتصرها حاجات معينة، لابد لها للأسف أن ترضخ لها، حتى من كان في أسى عميق. قيصر ونابليون كذلك، وإن بدا من غير اللائق، أجمل النساء ... كفى. من جانب كان مكتوباً للرجال ومن الآخر للنساء؛ وهناك ألقيت بخاتم زواجي.

ثم، وحتى أحاول أن أعطي قواما لحياتي الجديدة تلك التي تعيش في الفراغ، وليس بحثًا عن الشرود، أخذت أفكر في أدريانو مايس، وأتخيل له ماضيا، وأتساءل بهدوء عمن كان أبي، وأين ولدت، ... إلخ وأنا أحاول أن أرى وأن أحدد كل شيء تحديداً جيداً بكل تفاصيله الصغرى.

كنت ابنًا وحيداً ، كان يبدو لي ألا مجال للمناقشة في هذا.

« أهناك وحيد أكثر مني ... ومع هذا لا ! فمن يدرى كم وحيداً مثلى، وفى ظروفى نفسها، هم إخوة لى. يترك أحدهم القبعة والسترة وخطاباً فى جيبها على سور جسر أو على حافة نهر، ثم بدلاً من أن يلقى بنفسه فيه، يمضى بعيداً بهدوء، إلى أمريكا أو غيرها. ويتم العثور بعد بضعة أيام على جثة لا يمكن التعرف على صاحبها، فيكون هو صاحب الخطاب الموضوع على سور الجسر. وينتهى الأمر! لم يكن فى الحقيقة لإرادتى دور. فلم أضع خطاباً، أو سترة أو قبعة ... ولكنى مثلهم كذلك، وأزيد عنهم فى أنى أستطيع أن استمتع، بلا أى ندم بحريتى. لقد أرادوا منحها لى، وبالتالى .... » فلنقل إذن ابن وحيد. مولود فى .... من الأجدر عدم تحديد أى مكان للميلاد، توخيًا للحذر. كيف هذا؟ فلا يمكن طبعًا أن يولد إنسان فوق السحاب، ويكون القمر قابِلَتَهُ على الرغم من أنى قرأت فى المكتبة أن القدماء قد نسبوا إليه ممارسة هذا العمل فيما نسبوا إليه من أعمال أخرى، وأن النساء الحوامل يطلبنه لنجدتهن باسم لوتشينا[1].

فوق السحاب، لا؛ وإنما على ظهر سفينة، نعم، على سبيل المثال، يمكن أن تحدث الولادة. نعم، حسن جداً! مولود فى أثناء السفر. كان والدىَّ مسافرين ... حتى أولد على ظهر سفينة. لكن، صحيح! هذا سبب معقول لسفر امرأة حبلى، على وشك الولادة.... أم أن والدىَّ قد ذهبا إلى أمريكا؟ ولم لا؟ كثيرون يذهبون إليها... حتى ماتيا باسكال كان يريد الذهاب إليها، مسكين. فهل نقول إذن أبى قد كسب الاثنين وثمانين ألف ليرة هذه هناك فى أمريكا؟ لا، طبعًا! فلو كان معه اثنان وثمانون ألف ليرة فى جيبه لانتظر أولاً أن تلد زوجته ابنه ولادة مريحة فوق اليابسة. ثم، هراء! فلم يعد المهاجر يكسب اثنين وثمانين ألف ليرة بهذه السهولة فى أمريكا. وأبى .... بهذه المناسبة، ما اسمه؟ باولو. نعم : باولو مايس. كان أبى، باولو مايس، واهمًا، مثل كثيرين غيره. كد وتعب ثلاث أو أربع سنوات، ثم، كتب من بيونس أيرس وقد أصابه الإحباط خطاباً إلى الجد...

(١) هذا الاسم يقابل بالعربية "نور" أو "نور لطيف" . (المترجم)

آه! جد، نعم كـــنت أريد أن أعرف لى جدًا، عجـــوزًا غـاليًا، على سبـيل المثال، مثل ذلك الذى نزل توًا من القطار، دارسًا للأيقونات المسيحية.

شطحات خيال غريبة! ما هى الحاجة غير المفهومة ومن أين جاءنى أن أتخيل فى تلك اللحظة أبى، باولو مايس ذاك، وكأنه رجل متهور؟ نعم، فلقد تسبب فى اغتمام الجد غمًا كثيرًا ؛ فتزوج ضد إرادته وهرب إلى أمريكا. لعله كان هو أيضًا يؤيد الرأى بأن المسيح لم يكن جميلاً. ورآه غير جميل حقًا وغاضبًا، هنالك فى أمريكا، إن كان قد رحل عنها، وزوجته على وشك الوضع، بمجرد وصول مساعدة الجد له.

ولكن لمـاذا يجب أن أولد أنا فى أثناء السـفر بالذات؟ أليس من الأفـضل أن أولد فى أمريكا، فى الأرجنتين قبل العودة إلى وطن والدىّ بشهور قليلة؟ طبعًا ! بل إن الجد قد رقت مشاعره بسبب الحفيد البرىء؛ ومن أجلى، ومن أجلى وحدى صفح عن ابنه. وهكذا فإنى، صـغيرًا صـغيرًا، عبرت المحيط فى الدرجة الثالثة، وفى أثناء الرحلة أصبت بالتـهاب شعبى وبأعجوبة لم أمت. حسن جدًا! كان يقول لى هذا دومًا جدى. ولكن لا يجبُ علىّ أن أتحسر - كما يفعل الناس عادة - على عدم موتى، آنذاك وعمرى بضعـة شهـور. لا ؛ فما هى الآلام التـى عانيت أنا منها فى حياتى؟ ألم واحد، لكى أقول الحقيقة ؛ ألم وفـاة جـدى المسكين الذى كبـرت مـعـه. فـقـد هرب أبى، باولو مـايس، الطـائش الذى لا يتحمل عبء المسئولية، إلى أمريكا مرة أخرى بعد شـهور قليلة وترك زوجته وتركنى مع جـدى؛ وهناك توفى بالحـمى الصـفراء. وفـى الثالثـة من عـمرى صـرت يتـيمًـا من أمى أيضًا، ولهذا لم يبق فى ذاكرتى شـىء عن والدَىّ؛ اللهم إلا هذه الأخبار الضئيلة عنهما. ولكن كان هناك المزيد! فلم أكن أعلم بالضبط مكان ولادتى. فى الأرجنتين، هذا حسن! ولكن أين؟ كـان جـدى يجـهل هذا، لأن أبى لم يقل له هذا أبدًا، أو لأنه نسـى وأنا مـا كـنت قادرًا على تذكر هذا بكل تأكيد.

والخلاصة :

(أ) ابن باولو مايس الوحيد .

(ب) من مواليد أمريكا فى الأرجنتين، دون تحديد .

(ج) حضر إلى إيطاليا وعمره بضعة شهور (التهاب شعبى) .

(د) لا شىء فى الذاكرة ولا خبر عن الوالدين .

(هـ) كبر مع الجد .

أين ؟ فى أماكن مختلفة. فى البداية فى نيس. ذكريات مضطربة : ميدان ماسينا، لابروميناد، أڤينو دى لاجار .. ثم، فى تورينو.

ها أنا ذاهب إليها الآن ، وكنت عازمًا على أمور كثيرة ؛ كنت عازمًا على اختيار شارع وبيت تركنى فيه الجد حتى سن العاشرة فى رعاية أسرة سوف أتخيلها هناك على أرض الواقع، حتى تتاح لى خصائص المكان، وكنت عازمًا على أن أحيا، أو بالأحرى أن أتعقب بالخيال، نعم، فى الواقع، حياة أدريانو مايس صغيراً .

هذا التعقب، وهذا التشكيل الخيالى لحياة لم أعشها وإنما أجمعها رويداً رويداً من الآخرين وفى الأماكن وأجعلها حياتى وأشعر بها، جلب لى فرحًا غريبًا وجديداً، لا يخلو من شىء من الأسى فى أوقات تسكعى الأولى، وجعلت منه مهمتى؛ فلم أكن أحيا فى الحاضر فقط، وإنما لماضىً أيضًا، أى للسنوات التى لم يعشها أدريانو مايس.

ولم أحقق شيئًا، أو قل حققت شيئًا يسيراً، مما تخيلت. ما من شىء يختلق، حقيقة، إن لم يكن له جذر ، له شىء من العمق فى الواقع ؛ وحتى أغرب الأمور يمكن أن تكون حقيقية، بل إنه ما من خيال يصل إلى تصور أشكال معينة من الجنون، وأشكال معينة من المغامرات غير الواقعية التى تنطلق وتتفجر من أحشاء الأرض المضطربة؛ ولكن كيف وكم يبدو الواقع الحى والميت مختلفًا عن الاختلاقات التى يمكننا

استخراجها منه! وكم من الأشياء الجوهرية، والدقيقة، وغير المدركة يحتاجها اختلاقنا لكى تصبح مرة أخرى ذلك الواقع نفسه الذى استخرج منه، وكم من الخيوط التى تربطه بتداخل الحياة المعقد، خيوط بترناها لنجعل من الحياة شيئًا قائمًا بذاته!

والآن ماذا أنا، إن لم أكن إنسانًا مختلقًا؟ اختلاق متجول كان يريد بل كان عليه إجباريًا أن يبقى قائمًا بذاته، رغم انغماسه فى الواقع.

كنت وأنا أشاهد حياة الآخرين وأراقبها بدقة، أرى رباطاتها اللانهائية، وفى الوقت نفسه أرى خيوطى الكثيرة المقطوعة. فهل كنت قادرًا أنا الآن أن أعيد ربط هذه الخيوط بالواقع؟ من يدرى إلى أين كانت ستجرنى؛ لعلها ستصبح فورًا مكابح جياد هاربة تقود إلى الهاوية عربة اختلاقى الضرورى المسكينة. لا. كان على أن أربط هذه الخيوط بالخيال فقط .

وكنت أتابع فى الشوارع وفى الحدائق الأطفال من سن الخامسة إلى سن العاشرة، وأدرس حركاتهم، وألعابهم، وأجمع تعبيراتهم، لكى أكوّن منها رويدًا رويدًا طفولة أدريانو مايس. ونجحت فى هذا نجاحًا باهرًا، حتى أنها فى النهاية اتخذت قوامًا واقعيًا تقريبًا فى عقلى .

لم أرد أن أتخيل أمًا جديدة لى. كان هذا سيبدو لى تدنيسًا للذكرى الحية والمؤلمة لأمى الحقيقية. ولكن الجد، نعم، جد تخيلاتى الأولى، أردت أن أختلقه لنفسى. أوه، من كم جد حقيقى، ومن كم عجوز تتبعته ودرسته فى كورتيو، وفى ميلانو، وفى ڤينسيا، وفى فلورنسا تكوّن جدى ذلك! كنت أنتزع من أحدهم هنا علبة الدخان المصنوعة من العظم، والمنديل الكبير بمربعاته الحمراء والسوداء، ومن آخر هنالك العصا، ومن ثالث النظارة واللحية كالطوق، ومن رابع طريقة المشى والتمخط، ومن خامس طريقة الكلام والضحك؛ ونتج عن هذا عجوز رقيق، له نزواته، عاشق للفنون، جد متحرر لم يشأ أن ألتحق بدراسات نظامية، فقد فضل أن يعلمنى هو، بالمحادثة الحية وبأن يقودنى معه، من مدينة إلى مدينة، عبر المتاحف والمعارض.

فى أثناء زيارتنا لميلانو، وبادوڤا، وڤنسيا، ورافينا، وفلورنسا وبيروچيا كان معى دائمًا، مثل ظلى، ذلك الجد الذى تخيلته، والذى لأكثر من مرة كلمنى من خلال فم مرشد عجوز .

ولكنى كنت أريد أن أحيا كذلك حياتى، فى الحاضر. فكانت تهاجمنى من وقت لآخر فكرة حريتى غير المحدودة تلك، حريتى الفريدة، فكنت أشعر بسعادة مفاجئة وقوية حتى أننى كنت أشعر بها تدخل صدرى مع نفس طويل وعريض، وترفع روحى كلها. وحدى! وحدى! مالك نفسى! دون أن يكون على أن أقدم حسابًا عن أى شىء ولأى أحد! هكذا، كنت أستطيع أن أذهب حيثما يروق لى: إلى ڤينسيا؟ إلى ڤينسيا! إلى فلورنسا؟ إلى فلورنسا! وكانت سعادتى تلك تتبعنى فى الأرجاء كافة. آه! أذكر غروبًا فى تورينو، فى الشهور الأولى من حياتى الجديدة تلك، على الطريق المحاذى لنهر البو، عند الجسر الذى يمنع عن مصيدة الأسماك اندفاع المياه التى تهدر هديرًا؛ كانت للهواء شفافية عجيبة؛ وكل الأشياء الواقعة فى الظل كانت تبدو مطلية فى ذلك الصفاء؛ وشعرت، وأنا أنظر، بأنى منتش بحريتى، حتى أنى خشيت أن أجن منها، وألا أستطيع التحمل طويلاً .

كنت قد أجريت تحولى الخارجى من رأسى إلى قدمى ؛ كنت حليق الذقن تمامًا، بنظارة من اللون الأزرق الفاتح، وبشعر طويل مشوش بطريقة فنية ؛ كنت أبدو شخصًا آخر تمامًا! وكنت أتوقف أحيانًا لأحادث نفسى أمام مرآة، وآخذ فى الضحك.

"أدريانو مايس ! رجل سعيد ! للأسف أنه يجب عليه أن يكون بهذه الهيئة ... ولكن ماذا يهمك؟ كل شىء على أفضل حال! لو لم تكن هذه العين، عينه هو، عين ذلك الأبله، لما كنت فى نهاية المطاف دميمًا، بغرابة سحنتك الجريئة. إنك تثير ضحك النساء، إلى حد ما، ها كل شىء. ولكن الذنب، فى الواقع، ليس ذنبك. لو لم يكن شعر ذلك الآخر قصيرًا جدًا، لما اضطررت الآن أن يكون شعرك طويلاً؛ وأعلم تمامًا أنك لا تحب أن تكون حليق اللحية، مثل الكهنة[1]. صبرًا! عندما تضحك النساء... اضحك أنت أيضًا؛ هذا أفضل ما يمكنك عمله .

---

(١) الكهنة الكاثوليك فى الغرب يحلقون لحاهم عادة (المترجم) .

وبالإضافة إلى هذا، كنت أعيش مع ذاتي وبذاتي ولا غير تقريبًا. كنت أتبادل مجرد بضع كلمات مع أصحاب الفنادق، ومع خدمها، ومع من يجلس بجواري إلى المائدة، ولكن ليس رغبة في البدء في الحديث. بل إن التحفظ الذى كنت أشعر به جعلنى أشعر أننى لا أستسيغ الكذب إطلاقًا. ثم إن الآخرين أيضًا كانوا يبدون رغبة ضئيلة فى الكلام معى، ربما بسبب هيئتى، كانوا يعتقدون أنى أجنبى. أذكر أنى فى أثناء زيارتى لڤينسيا، لم استطع أن أنزع من رأس سائق جندول عجوز أنى ألمانى أو نمساوى. نعم لقد ولدت فى الأرجنتين، ولكن من والدين إيطاليين. كانت غرابتى الحقيقية ، لنقل هذا ، شيئًا آخر، أعرفه أنا وحدى؛ فلم أعد أى شىء أنا؛ فلم أعد مقيدًا فى أى مكتب سجل مدنى، إلا فى ميرانيو، ولكن بوصفى ميتًا، وبالاسم الآخر.

لم يكن هذا يضايقنى؛ ولكن أن يظننى نمساويًا فعلاً، لم يكن يعجبنى أن أحسب نمساويًا. لم يسبق أن أتيحت لى أبدًا فرصة تركيز فكرى على كلمة "وطن". كان لدى ما يشغل فكرى عن هذا، فى وقت من الأوقات! أما الآن فإنى، فى الفراغ، بدأت أعتاد التأمل فى أمور كثيرة ما كنت أتصور يومًا أنها قد تثير اهتمامى. وفى الحقيقة، كنت أقع فى هذا دون إرادتى، وكثيرًا ما كنت أهز كتفى ضجرًا. ولكن كان ينبغى على كذلك أن أهتم بشىء ما، عندما كنت أشعر بالتعب من التجوال ومن المشاهدة. وحتى أتخلص من التأملات المزعجة وعديمة الفائدة، كنت أشرع أحيانًا فى ملء صفحات كاملة من الورق بتوقيعى الجديد، وأنا أحاول أن أكتب بخط آخر، وأمسك بالقلم بطريقة مختلفة عن طريقتى السابقة. ولكنى عند نقطة معينة كنت أمزق الورقة وألقى بالقلم بعيدًا. حقًا كان يمكننى أن أكون أميًا! فلمن أكتب؟ فلم تكن تصلنى، ولم يعد من الممكن أن تصلنى خطابات من أى أحد.

كان هذا التفكير، مثل كثير غيره، يجعلنى أغوص فى الماضى. وعندئذ كنت أرى من جديد البيت، والمكتبة، وشوارع ميرانيو، والشاطئ؛ وأتساءل: «ألا تزال روميلدا ياترى ترتدى الملابس السوداء؟ ربما نعم، حفاظًا على المظهر أمام العالم. ماذا تفعل؟». وكنت أتخيلها، كما رأيتها مرات ومرات هنالك فى البيت؛ وكنت أتخيل كذلك الأرملة

بسكاتورى التى كانت بكل تأكيد تلعن ذكراى. كنت أفكر: "ربما لم تذهب واحدة منهما، ولو لمرة واحدة، إلى المقابر لزيارة ذلك المسكين، الذى مات هكذا ميتة بربرية. من يدرى أين دفنونى! لعل العمة سكولاستيكا لم ترد أن تنفق لأجلى ما أنفقته لأمى؛ وروبرتو كذلك بل وأكثر منها؛ لعله قال: من دفعه لأن يفعل هذا؟ كان يمكنه أن يعيش بليرتين فى اليوم، أمينا للمكتبة. سأضطجع كالكلب فى مقابر الفقراء... دع هذا، ولا تفكرن فيه! أشعر بالأسى لذلك الرجل المسكين الذى ربما كان له أقارب أكثر إنسانية من أقاربى، ولعلهم كانوا سيعاملونه معاملة أفضل - لكن، ماذا يهمه هو أيضًا الآن من كل هذا؟ لقد أزاح عن نفسه هذا الهم!".

واصلت لبعض الوقت رحيلى. أردت أن أنطلق أيضًا خارج إيطاليا، زرت بقاع الراين الجميلة حتى كولونيا على ظهر باخرة تشق النهر؛ وتوقفت فى المدن الرئيسة: فى منهايم، وفى ورمز، وفى ماجونزا، وفى بينجين، وفى كوبلنزا. كنت أريد أن أمضى إلى الشمال من كولونيا، وإلى الشمال من ألمانيا، وعلى الأقل إلى النرويج؛ ولكنى سرعان ما فكرت أننى يجب أن أفرض ضابطًا على حريتى. فالأموال التى كانت معى لابد أن تفى باحتياجاتى وهكذا خارجًا على أى قانون، وبلا أى وثيقة بين يدى تثبت - ولا أقول ما هو أكثر - وجودى الحقيقى، وكان من المستحيل على أن أحصل على وظيفة ما؛ إن كنت لا أريد أن يؤول أمرى مآلا سيئًا، كان على أن أقتر على نفسى لأعيش بالقليل. وبعد أن أجريت حساباتى، كان لابد علىّ ألا أنفق أكثر من مائتى ليرة كل شهر : مبلغ ضئيل؛ ولكن سبق لى أن عشت لمدة عامين كاملين بمبلغ أقل، ولم أكن أنا وحدى. إذن كان علىّ أن أتكيف.

ثم إنى كنت متعبًا أيضًا من الذهاب للتجوال وحدى دائمًا فى صمت. وبدأت بالغريزة أشعر بالحاجة إلى شىء من الصحبة. أدركت هذا فى نهار تعيس من شهر نوفمبر، فى ميلانو، إبان عودتى من جولتى القصيرة فى ألمانيا.

كان الجو باردًا، وكان المطر وشيكًا، مع حلول المساء. تحت أحد أعمدة الإنارة لمحت بائع كبريت عجوزًا يعوقه صندوقه الذى كان يحمله أمامه وقد تدلى من حزام

معلق حول رقبته من أن يلتحف جيداً بملحفة متهالكة كانت فوق كتفيه وكان يتدلى من قبضتيه الملتصقتين بذقنه حبل رفيع، حتى قدميه. انحنيت لأنظر واكتشفت بين حذائيه المتهالكين جروا صغيراً نحيلاً، عمره أيام قلائل، يرتعد جسده كله من البرد ويئن أنينا متصلاً، وهو قابع هنالك. يا للحيوان المسكين! سألت العجوز إن كان يبيعه، أجابني بالإيجاب، وبأنه مستعد لبيعه لي بمثن ضئيل، رغم أنه يساوى الكثير، آه، سوف يصبح كلباً جميلاً، كلباً رائعاً، ذلك الحيوان.

- خمس وعشرون ليرة...

استمر الجرو المسكين يرتعش، بدون أن يفتخر ويزهو بتقدير ثمنه ذلك، كان يعلم بكل تأكيد أن صاحبه - بهذا الثمن - لم يقدر إطلاقًا جدارته في المستقبل، وإنما البلاهة التي أعتقد أنه يقرؤها على وجهي.

في تلك الأثناء كانت أمامي فسحة من الوقت لكي أفكر في أنني لو اشتريت ذلك الكلب، فسأكسب بكل تأكيد صديقًا مخلصاً رزينا، لن يسألني، حتى يحبني ويعتبرني، من أنا حقيقة؛ ومن أين آتي، وإن كانت أوراقي سليمة؛ ولكني كنت سأبدأ كذلك في دفع رسم، أنا الذي لم أعد أدفع أي رسم من الرسوم! بدا لي أنه أول عائق في طريق حريتي، وانتهاك هين كنت أوشك أن أصيبها به.

قلت لبائع الكبريت العجوز : "خمس وعشرون ليرة؟ معك السلام!"

شددت القبعة لتغطي عيني، وتحت رداء المطر الرفيع الذي بدأ ينزل من السماء، ابتعدت، واعتبرت لأول مرة أن حريتي تلك كانت جميلة بلاشك، تلك الحرية التي لا حد لها، ولكنها أيضاً متسلطة شيئًا ما، نعم، إذا كانت لا تسمح لي بمجرد أن أشترى كلباً صغيراً.

(٩)

شــىء من الضـباب

لم أكد أتبين أن أول شتاء كان قاسيًا، وممطرًا وكثير الضباب فى زحمة الاستمتاع بالسفر وفى نشوة الحرية الجديدة. وهذا الشتاء الثانى كان يدهشنى وقد تعبت شيئًا ما - كما قلت - من الترحال وقررت أن أضع حدًا لنفسى. وكنت أدرك أنه .... نعم، يوجد شىء من الضباب، وأن الجو بارد، كنت أدرك أنه بالرغم من أن نفسى تعترض على أن تكتسب مزاجًا من لون الجو، فإنها كانت تكابده.

وكنت أوبخ نفسى: "ولكن سترى أن سحابة واحدة لن تظهر فى السماء، حتى يمكنك أنت أن تستمتع الآن فى اطمئنان بحريتك!".

كنت قد لهوت كثيرًا وأنا أجرى من هنا ومن هناك؛ لقد نال أدريانو مايس فى تلك السنة شبابه اللاهى، والآن كان عليه أن يصبح رجلاً، وأن يستجمع نفسه، وأن يصوغ لنفسه رداء حياة هادئًا متواضعًا، أوه، لعل هذا يتيسر له، فى حريته هذه، وهو بلا التزام من أى نوع!

هكذا كان يبدو لى، وأخذت أفكر فى أى مدينة كان من الملائم أن أتخذ لى مقرًا ثابتًا، لأنى لم أعد أستطيع البقاء أكثر من هذا طائرًا لا عش له، إن كان على أن أكوّن لنفسى حياة عادية. ولكن أين؟ أفى مدينة كبيرة أم صغيرة؟ لم أكن قادرًا على اتخاذ قرارى.

كنت أغلق عينى وأطير بفكرى إلى تلك المدن التى زرتها من قبل، ومن مدينة إلى أخرى، كنت أتمهل فى كل منها حتى أرى بدقة ذلك الطريق المعين، وتلك الساحة

بعينها، وذلك المكان نفسه، الذى كنت أحتفظ به حيًا فى ذاكرتى، وأقول: "ها أنت هنالك! والآن كم من حياة تغيب عنى، وهى مستمرة فى التحرك هنا وهنالك بشكل متغير. ومع هذا فكم من الأماكن قلت فيها: "هنا أريد أن يكون لى بيت! ليتنى أعيش هنا!". وحسدت السكان الذين كانوا يستطيعون - فى سكون ودعة - بعاداتهم وأشغالهم المعتادة أن يستقروا بها، بدون أن يعرفوا ذلك الإحساس المؤلم بعدم الاستقرار والثبات الذى يجعل روح من يسافر معلقة متحيرة".

كان هذا الإحساس المؤلم بعدم الاستقرار لايزال يستبد بى وكان يجعلنى لا أحب الفراش الذى كنت أنطرح عليه لأنام، والأشياء التى كانت من حولى.

كل شىء فينا يتحول عادة طبقًا للصور التى يثيرها فينا ويجمعها من حوله، إن جاز التعبير. من المؤكد أن الشىء قد يثير الإعجاب أيضًا فى حد ذاته، ولمختلف الأحاسيس اللطيفة التى يثيرها فينا فى إدراك حسى متناغم، ولكن فى أغلب الأحيان لا يكون الانشراح الذى يبعثه الشىء فينا كامنًا فى الشىء نفسه. فالخيال يكسوه بالجمال بأن يطوقه ويبعث فيه أشعة من الصور الحبيبة، فلا نعود نحن ندركه كما هو، وإنما ندرك الحياة التى تبعثها فيه الصور التى يثيرها فينا أو عاداتنا التى تقترن به. أى أننا نحب فى الشىء ما نضعه فيه منا، والتوافق، والتناغم بينه وبيننا، والروح التى يكتسبها بالنسبة لنا نحن فقط والتى تتكون من ذكرياتنا.

والآن كيف يمكن أن يحدث معى هذا كله فى حجرة فندق؟

ولكن هل يمكن أن يكون لى بيت، بيت لى، كله لى؟ كانت نقودى قليلة .... ولكن، مجرد بيت صغير، بحجرات قليلة؟ مهلاً: كان يجب أن أتروى، وأنظر جيداً أولاً، فى أمور كثيرة. من المؤكد أننى حر، حر طليق، وأستطيع أن أكون هكذا فقط، وحقيبتى فى يدى؛ فاليوم هنا، وغداً هناك. أما الاستقرار فى مكان، وامتلاك بيت، آه عندئذ: السجلات والضرائب فوراً. أولن يسجلوا اسمى فى السجل المدنى؟ طبعًا، بكل تأكيد! وكيف؟ باسمى المزيف؟ وعندئذ، من يعلم؟، قد تبدأ تحريات سرية عنى من جانب الشرطة. عمومًا، مآزق، احتيالات! ... لا، إطلاقًا، توقعت أنى لم أعد أستطيع أن يكون

لى بيت خاص بى، وأشياء خاصة بى. ولكن لعلى أستطيع أن أقيم لدى أسرة، فى حجرة مفروشة. وهل يجب أن أغتم لأمور بسيطة كهذه؟

الشتاء، الشتاء كان يوحى إلى بهذه الأفكار الحزينة، وعيد الميلاد القريب يدفعنى إلى الرغبة فى دفء ركن عزيز، وفى التأمل وفى خصوصية البيت.

لم أكن لأتباكى على منزلى ذاك. أما بيتى الآخر، بيت أبى، البيت الوحيد الذى يمكننى أن أتذكره وكلى حنين إليه، فقد تهدم منذ زمن وليس بسبب حالتى الجديدة تلك.

ولهذا كان ينبغى على أن أكون راضيًا إذا ما فكرت أنى لن أكون حقًّا أكثر سعادة لو أنى قضيت فى ميرانيو، بين زوجتى وحماتى - (وكنت أقشعر) - عيد الميلاد هذا.

وحتى أضحك وأتلهى، كنت أتخيل نفسى، وأنا أحمل فطيرة العيد الكبيرة تحت ذراعى، وأنا واقف أمام منزلى.

« - أيمكن؟ هل السيدة روميلدا بسكاتورى، أرملة باسكال، وماريانا دوندى، أرملة بسكاتورى لاتزالان تقيمان هنا ».

« - نعم يا سيدى. لكن من أنت ؟ ».

« - أنا زوج السيدة باسكال الراحل، ذلك الرجل الكريم الذى توفى العام قبل الماضى، غريقًا. هأنذا، آتى سريعًا سريعًا من العالم الآخر لأقضى العيد فى أسرتى، بتصريح من الرؤساء. ولسوف أرحل عن هنا فورًا! ».

لو رأتنى أرملة بسكاتورى هكذا فجأة، فهل ستموت خوفًا؟ ماذا! هى؟ نسج خيال! ستودى بى إلى الموت مرة أخرى، بعد يومين.

كان حظى - وكان يجب على أن أقتنع بهذا - يتمثل فى هذا تمامًا : فى أنى تحررت من الزوجة ومن الحماة، ومن الديون، ومن البلايا المهينة فى حياتى السابقة. والآن صرت حرًا تمامًا. ألا يكفينى هذا؟ آه طبعًا، فلا تزال أمامى حياة كاملة. وفى هذه اللحظة ... من يدرى كم كان عدد الوحيدين مثلى!

كان الجو السيىء، وذلك الضباب اللعين يدفعاننى إلى التفكير:« نعم، ولكن هؤلاء، إما أن يكونوا من الخارج ولهم بيوتهم فى أماكن أخرى سيستطيعون يومًا العودة إليها، وإما أنهم إذا كانوا لا يملكون بيتًا مثلك، سيمكنهم أن يمتلكوه غدًا، وفى هذه الأثناء فإن لهم بيت أحد الأصدقاء يستضيفهم. أما أنت - ولنقل هذا - فسوف تكون دومًا غريبًا؛ هذا هو الفرق. غريب على الحياة، يا أدريانو مايس» .

وكنت أهتز ضيقًا وأنا أصرخ:

« وهذا حسن! عوائق أقل. ليس لى أصدقاء؟ سيمكننى أن يكون لى أصدقاء ... »

فى المطعم الذى كنت أتردد عليه فى تلك الأيام، أظهر رجل يجلس بجانبى إلى المنضدة، ميله إلى مصادقتى. كان فى حوالى الأربعين من عمره: كان أصلعَ، نعم، وأسمرَ، يضع نظارة من الذهب، لا تستند بشكل جيد فوق أنفه، ربما بسبب ثقل السلسلة التى كانت هى الأخرى من الذهب. آه، لهذا كان رجلاً لطيفًا جدًا! تصور أنه عندما كان ينهض واقفًا ويضع القبعة فوق رأسه، كان يبدو على الفور شخصًا آخر؛ صبيًا كان يبدو. كان عيبه فى ساقيه، فقد كانتا قصيرتين لدرجة أن قدميه لا تصلان حتى إلى الأرض، عندما يكون جالسًا، وكان لا ينهض واقفًا من جلسته، بل كان ينزل عن الكرسى. وكان يحاول أن يتلافى هذا العيب بأن يكون كعب الحذاء عاليًا. وما العيب فى هذا؟ نعم كان هذان الكعبان يصدران ضجيجًا شديدًا، ولكنهما كانا فى الوقت نفسه يسبغان على خطواته القصيرة، مثل خطوات طائر الحجل، سرعة لطيفة.

وكان بعد هذا حاذقًا جدًا، عبقريًا - وربما كان سوداويًا إلى حد ما ومتقلبًا - ولكن كانت له رؤاه المبتكرة، وكان كذلك فارسًا.

أعطانى بطاقته: الفارس تيتو لنتسى.

وبمناسبة هذه البطاقة، كدت أن أجعل منها سببًا لتعاستى نظرًا للصورة السيئة التى بدا لى أنى ظهرت بها عندما لم أستطع أن أقدم له بطاقتى. لم تكن عندى بطاقات، كنت أشعر بالتوجس من أن أطبعها، باسمى الجديد. أمور بائسة! ألعله من غير الممكن ألا نستخدم بطاقات التعريف؟ يكفى أن ينطق الفرد اسمه.

هكذا فعلت؛ ولكن، ولكى أقول الحق، نطقت باسمى الحقيقى..... كفى!

يا لبراعة حديث الفارس تيتو لنتسى ! كان يعرف اللاتينية أيضًا؛ وكان يستشهد بنصوص سيسرون، وكأنه لا يأتى بشىء غريب.

"الوعى؟ الوعى لا نفع من ورائه، يا سيدى العزيز! إن الوعى بوصفه مرشدًا لا يمكن أن يكون كافيًا. قد يكفى، ربما، ولكن إن كان قلعة وليس ساحة، إذا جاز التشبيه؛ أى إذا استطعنا أن ننجح فى إدراك أنفسنا بشكل منفصل، وإن لم يكن بطبيعته منفتحًا على الآخرين. وعمومًا فإن فى الوعى – من وجهة نظرى – توجد علاقة أساسية .. بكل تأكيد، أساسية، بينى وأنا أفكر وبين الكائنات الأخرى وأنا أفكر فيها. فهو إذن ليس مطلقًا يكتفى بنفسه، هل أوضحت الفكرة؟ فعندما تكون مشاعر هؤلاء الآخرين الذين أفكر فيهم أو الذين تفكر فيهم واتجاهاتهم، وأذواقهم لا تنعكس على أو عليك، فإننا لا يمكن أن نكون قانعين أو هادئين أو سعداء؛ لدرجة أننا جميعًا نناضل حتى تنعكس مشاعرنا، وأفكارنا، واتجاهاتنا، وأذواقنا فى وعى الآخرين. وإذا لم يحدث هذا – لنقل هذا – لأن المناخ فى تلك اللحظة ليس مواتيًا لنقل البذور وازدهارها، يا سيدى العزيز، بذور فكرتك فى عقل الآخر، فإنك لا تستطيع أن تقول إن وعيك يكفيك. فيم يكفيك؟ أيكفيك لتحيا وحيدًا؟ لكى تكون عقيمًا فى الظل؟ آه ! آه! أنصت: إننى أكره البلاغة، شمطاء، كنوية، مدعية، غنوج تضع النظارة. البلاغة، بكل تأكيد، صاغت هذه العبارة الجميلة وقد برز صدرها أمامها: " لى وعيى، وهو يكفينى". نعم! لقد قال سيسرون من قبل: إن وعيى أفضل من خطب الخطباء[1]، ولكن سيسرون، لنقل الحقيقة، فصاحة، وفصاحة، ولكن .... لينقذنا الله ويحررنا منه، يا سيدى العزيز! ممل وأكثر مللاً من عازف مبتدئ على الكمان!» .

كان يستحق أن أقبله. إلا أن ذلك الرجل العزيز لم يرد الاستطراد فى الأحاديث الذكية ذات المفاهيم، التى أردت أن أقدم لمحة منها؛ وبدأ يرفع الكلفة؛ وعندئذ شعرت،

---

(١) العبارة باللاتينية هى : Mea mihi conscicientia pluris est quam hominum

أنا الذى كنت اعتقد أن صداقتنا صداقة بسيطة وبدأت بداية طيبة، شعرت فى الحال بشيء من الارتباك، وشعرت بداخلى وكأن قوة تدفعنى إلى الابتعاد وإلى الانسحاب. وطالما تحدث هو، ودار الحديث عن موضوعات عامة غير محددة، مضت الأمور على ما يرام؛ ولكن الفارس تيتولنتسى كان يريد أن أتحدث أنا الآن.

« لست من ميلانو، أليس كذلك؟ »

« لا .... »

« تمر بها، مجرد مرور؟ »

« نعم .... »

« مدينة جميلة، ميلانو، أليس كذلك؟ »

« نعم، جميلة .... »

كنت أبدو ببغاءً مدرباً. وكلما كانت أسئلته تضيق على الخناق، كنت بإجابتى أبتعد. وسرعان ما كنت فى أمريكا. ولكن ما أن علم الرجل ضئيل الجسم أنى مولود فى الأرجنتين حتى قفز من مقعده وجاء يشد على يدى بحرارة:

« آه، أهنئك، يا سيدى العزيز ! إنى أحسدك ! آه، أمريكا ... لقد كنت هناك.» كان هناك؟ اهرب!

أسرعت بالقول: « فى هذه الحالة يجب أن أهنئك أنا لأنك كنت هناك، لأنى أستطيع تقريباً، تقريباً أن أقول إنى لم أكن هناك، على الرغم من أنى مولود هناك؛ فقد رحلت عنها وعمرى شهور قليلة؛ وبالتالى لم تطأ قدمى أرض أمريكا، طبعًا!».

هتف الفارس تيتولنتسى متألمًا: "يا للأسف!".

« ولكن لابد أن لك أقارب، هناك، أتصور هذا!»

« لا، لا أحد ....»

« آه، إذن، جئت إلى إيطاليا مع العائلة كلها، واستقر بك الحال فيها؟ أين تقيم؟»

رفعت كِتفيّ :

«لا أعلم !» وتنهدت، بين الأشواك، « وقتا هنا، ووقتًا هناك ... ليست لى أسرة و.... وأتجول!»

« يا لسرورى ! يا لسعادتك! تتجول .... أليس لك أحد إطلاقًا ؟»

« لا أحد ....»

« يا لسرورى! يا لسعادتك ! إننى أحسدك ! »

أردت أن أسأله بدورى لكى أحول الحديث عنى: « إذن لديك أسرة؟» تنهد عندئذ وقد قطب جبينه: «لا، للأسف! أنا وحيد وكنت وحيدًا دائمًا!»

« إذن، فأنت مثلى! ... »

واندفع الرجل ضئيل الجسم: «ولكنى أشعر بالسأم، يا سيدى العزيز! أشعر بالسأم! بالنسبة لى، الوحدة ..... آه نعم، فى النهاية لقد تعبت. لى كثير من الأصدقاء، لكن، صدقنى، ليس من الجميل فى سن معين أن تذهب إلى البيت، فلا تجد أحدًا. لا أدرى! هناك من يدرك وهناك من لا يدرك، يا سيدى العزيز. ومن يدرك يكون حاله أسوأ، لأنه يجد نفسه فى نهاية المطاف بلا طاقة وبلا إرادة. وفى الواقع يقول من يدرك: "لا ينبغى علىّ أن أفعل هذا، ولا ينبغى علىّ أن أفعل ذاك، حتى لا أقترف هذه الحماقة أو تلك". حسن جدًا! ولكنه يلاحظ عند لحظة معينة أن الحياة كلها حماقة، إذن، قل لى ما معنى ألا يكون قد اقترف أى حماقة : معنى هذا على الأقل أنه لم يعش، يا سيدى العزيز» .

حاولت أن أواسيه: « ولكنك يا سيدى، لازال الوقت أمامك، لحسن الحظ ... »

أجاب بحركة وبابتسامة بلهاء: لارتكاب حماقة؟ لقد سافرت كثيرًا ، وجلت مثلك ومن مغامرات ومغامرات غريبة للغاية ولاذعة.. نعم ... وقعت لى. انظر، مثلاً، فى ڤيينا، فى ليلة من الليالى ....» .

استفقت، وكأنى أسقط من السحاب. كيف! مغامرات عاطفية، هو؟ ثلاث وأربع وخمس فى النمسا، وفرنسا وإيطاليا.... وكذلك فى روسيا؟ وأى مغامرات! كل مغامرة أكثر جرأة من الأخرى. ها هى فقرة، على سبيل المثال، من حوار دار بينه وبين امرأة متزوجة:

هـو : « نعـم، إذا مـا فكرت فى هـذا، أعـلم يا سيدتى العـزيزة - خيانة الزوج، يا إلهى!. الوفاء، والاستقامة، والكرامة ... ثلاث كلمات ضخمة ومقدسة، كلمات رنانة. ثم: الشـرف! كلمة ضـخمـة أخـرى.... ولكن، فى الواقـع، صدقينى، هـذا شىء آخـر يا سيدتى العزيزة، شىء لا أهمية له! اسألى صديقاتك اللائى مررن بهذه المغامرة» .

المرأة المتزوجة: « نعم، وكلهن شعرن بعد ذلك بزوال الوهم الكبير! ».

هو : « ولكنى أتحدى! لكن هذا مفـهوم! لأنهن قد امـتنعن وأمسكن بسبب تلك الكلمات البشعة، فبقين عامًا، أو ستة أشهر، أو وقتًا طويلاً قبل أن يحسمن أمرهن. ويزول الوهم طبعًا. بسبب عدم التناسب بين كينونة الفعل والتفكير الطويل الذى نال منهن. ينبغى حسم الأمر فورًا، يا سيدتى العزيزة! أفكر، وأفعل. الأمر بهذه البساطة!»

كان يكفى أن أنظر إليه، كان يكفى أن أتأمل قليلاً شخصه الضئيل المضحك ذاك، لكى أدرك أنه كان يكذب، دون حاجة إلى براهين أخرى.

بعد الدهشة أصابنى إحباط عميق للخزى الذى كان فيه، لأنه لم يكن يدرك التأثير البائس الذى كان ينتج بالضرورة عن أكاذيبه تلك، وللحياء الذى كنت أشعر به أنا أيضًا، وأنا أراه هو، وهو يكذب بوقاحة بالغة وباستمتاع كبير دون أن يكون فى حاجة إلى هذا، بينما أنا، وكنت لا أستطيع أن أتخلص من الكذب، فكنت أعانى منه وأكابده حتى أنى كنت أشعر، فى كل مرة، بنفسى تتلوى بداخلى.

إحباط وغيظ. كنت أكاد أن أقبض على ذراعه وأصرخ فيه!

« عفوًا أيها الفارس، ولكن لماذا؟ لماذا؟»

ولكن إن كان الإحباط والغيظ طبيعيين ومعقولين بالنسبة لى فإنى قد لاحظت، وأنا أتأمل فى هذا تأملاً عميقًا، أن ذلك السؤال كان على الأقل سؤالاً أحمق. ففى الواقع، إذا كان هذا الرجل العزيز يتصرف مثل هذا التصرف الأحمق لكى أصدق مغامراته هذه، فإن السبب كان يكمن تمامًا فى أنه لم يكن فى حاجة للكذب، بينما أنا .. أنا كنت مضطرًا إليه بالضرورة. وعمومًا فإن ما يمكن أن يكون بالنسبة له لهوًا وممارسة لحق من الحقوق تقريبًا، كان بالنسبة لى إلزامًا مؤلمًا، وعقوبة.

وماذا بعد هذا التأمل؟ ويحى، فلأن ظروفى قد حكمت على حكمًا محتمًا بأن أكذب، فلن أستطيع أبدًا أن يكون لى صديق، صديق حقيقى. وبالتالى، لا بيت، أو أصدقاء.... الصداقة تعنى الصدق؛ وكيف يمكننى أنا أن أفضى لأحد بسر حياتى تلك التى لا اسم لها ولا ماضى، والتى نتجت مثل طفيل من انتحار ماتيا باسكال.؟ كنت أستطيع فقط أن أرتبط بعلاقات سطحية، وأن أسمح لنفسى مع أمثالى بتبادل كلمات غريبة لفترة وجيزة.

حسنًا، كانت هذه سلبيات حظى. صبرًا! فهل أُحبط لهذا؟

« سأعيش مع ذاتى ولذاتى، كما عشت حتى الآن!»

نعم، ولكنى، لكى أقول الحقيقة، كنت أخشى ألا أحسب نفسى راضيًا أو قانعًا بصحبتى. ثم إنى عندما كنت ألمس وجهى وأكتشف أنه حليق، وعندما كنت أمرر يدى على ذلك الشعر الطويل، أو عندما كنت أعدل وضع النظارة على أنفى، كنت أشعر بانطباع غريب؛ كان يبدو لى أنى لم أعد أنا، وأنى لا ألمس نفسى.

لنكن عادلين، فلقد غيرت من هيئتى على هذا المنوال من أجل الآخرين، وليس من أجلى. فهل كان على أن أبقى مع نفسى، بهذا القناع؟ وإذا كان كل ما تظاهرت به وتصورته عن أدريانومايس لا يجب أن يكون من أجل الآخرين، فلمن يكون؟ لى أنا؟ ولكنى، كان يمكننى أن أصدقه بشرط واحد فقط وهو أن يصدقه الآخرون.

والآن، إذا لم تكن لدى أدريانومايس هذا الشجاعة على قول الكذب، وعلى أن ينغمس فى الحياة، فينعزل ويعود إلى الفندق متعبًا من أن يرى نفسه وحيدًا فى أيام

الشتاء الحزينة تلك، في شوارع ميلانو، وينغلق في صحبة ماتيا باسكال الميت، فإنني كنت أتوقع أن تبدأ أموري، نعم، في السير سيراً سيئًا؛ ألا مجال لأى متعة لي، وأن حظي الجميل...

لكن لعل الحقيقة كانت هي: أني في جريتي غير المحدودة، كان من الصعب على أن أبدأ الحياة بشكل ما، وكلما كنت على أهبة اتخاذ قرار، كنت أشعر بما يمسكني عنه، ويبدو لي أني أرى موانع وظلال وعوائق كثيرة.

وهكذا كنت ألقي بنفسي من جديد خارجًا، في الشوارع، وكنت أراقب كل شيء، وأتوقف عند كل أمر تافه، وأفكر طويلاً في أصغر الأمور، وعندما يحل بي التعب، كنت أدخل إحدى المقاهي، وأقرأ إحدى الجرائد، وأنظر إلى من يدخل ومن يخرج، وفي النهاية كنت أخرج أنا أيضًا. ولكن الحياة، عند النظر إليها هكذا، كمشاهد غريب، كانت تبدو لي لا نفع لها ولا هدف؛ كنت أشعر بنفسي ضائعًا بين ذلك الخليط من البشر. وعندئذ كان ضجيج المدينة واضطرابها المستمر يزعجانني.

كنت أتساءل في لهفة: « أوه، لماذا يلهث البشر هكذا ليجعلوا حياتهم شيئًا فشيئًا أكثر تعقيداً. لم كل ضجيج الآلات هذا؟ وماذا سيعمل الإنسان عندما تفعل الماكينات كل شيء؟ هل سيدرك عندئذ أن ما يطلق عليه التقدم لا علاقة له إطلاقًا بالسعادة؟ ومن كل الاختراعات التي يعتقد العلم اعتقاداً صادقًا أنه يثرى بها البشرية (ويصيبها بالفقر، لأنها تكلفه تكلفة باهظة) ما هي السعادة التي نشعر بها نحن حقيقة، حتى ونحن نتطلع إليها؟» .

في اليوم السابق التقيت صدفة في ترام كهربائي برجل مسكين، من أولئك الذين لا يستطيعون ألا ينقلوا للآخرين كل ما يدور في أذهانهم.

قال لي: « يا له من اختراع جميل ! بفلسين، وفي دقائق قليلة، أشاهد نصف ميلانو». كان لا يرى سوى الفلسين ثمن الرحلة، وكان ذلك الرجل المسكين لا يفكر في أن مرتبه الصغير يذهب كله، ولا يكفيه ليحيا منزعجاً من تلك الحياة المليئة بالضوضاء، بالترام الكهربائي، وبالنور الكهربائي إلخ، إلخ.

ومع هذا فإن العلم - هكذا كنت أفكر- يتوهم أنه يجعل الحياة أيسر وأسهل! ولكن، إذا ما سلمنا بأنه يجعلها أيسر، بآلاته الصعبة المعقدة كلها، فإنى أسأل : « وما أسوأ خدمة لمن يحكم عليه بمشكلة لا جدوى منها، إلا أن نجعلها أيسر عليه وأكثر آلية؟» .

وعدت إلى الفندق.

وهناك، فى أحد الممرات، كان يوجد قفص به عصفور كناريا، معلق فى فراغ إحدى النوافذ. وكنت آخذ فى الحديث معه - مع عصفور الكناريا - إذ إنى لا أستطيع هذا مع الآخرين. ولأنى لا أعلم ماذا أفعل، كنت أقلد تغريده بشفتى، فكان هو يعتقد حقيقة أن أحدًا ما يكلمه، فكان ينصت ولعله كان يلتقط من وشوشتى تلك أخبارًا عزيزة عن أعشاش وأوراق أشجار، وحرية ... كان يتحرك فى القفص، فيستدير، ويقفز، وينظر نظرة جانبية وهو يهز رأسه، ثم كان يجيبنى. ويسألنى وينصت مرة أخرى. يا له من طائر مسكين! نعم كان يثير شفقتى، بينما كنت لا أعلم أنا ماذا قلت له.. حسنًا، فإذا فكرنا فى هذا، أفلا يحدث لنا أيضًا نحن البشر شىء شبيه بهذا؟ ألا نعتقد نحن أيضًا أن الطبيعة تكلمنا؟ وألا يبدو لنا أننا نلتقط معنى من أصواتها الخفية، وجوابًا، طبقًا لرغباتنا، عن الأسئلة العسيرة التى نوجهها إليها؟ ولعل الطبيعة بامتدادها اللامتناهى، ليس لديها أدنى شعور بنا وبوهمنا الباطل.

لكن انظروا قليلاً إلى أى نتائج يمكن أن تؤدى دعابة يوحى بها الفراغ الذى يشعر به إنسان محكوم عليه أن يبقى وحيدًا، مع ذاته! كانت تواتينى الرغبة تقريبًا فى أن أصفع نفسى. هل كنت إذن على وشك أن أصبح حقًّا فيلسوفًا؟

لا، لا، لم يكن سلوكى منطقيًا، وهكذا، ما كنت أستطيع أن أجعله يستمر أكثر من هذا. كان ينبغى على أن أنتصر على كل تردد، وأن أتخذ بأى ثمن قرارًا.

كان على أن أحيا، أحيا، أحيا.

(١٠)

وعاء الماء المبارك ومطفأة السجائر

بعد أيام قلائل كنت فى روما، لكى أقيم فيها.

لماذا فى روما وليس فى غيرها؟ السبب الحقيقى أراه الآن، بعد كل ما جرى لى، ولكنى لن أقوله حتى لا أفسد قصتى بتأملات وأفكار ليست مناسبة فى هذا الموضع. اخترت عندئذ روما؛ لأنها أعجبتنى أكثر من أى مدينة أخرى، ثم لأنها بدت لى أكثر ملاءمة لاستضافة غريب مثلى دون مبالاة، وسط غرباء كثيرين.

كان اختيار البيت، أى حجرة صغيرة لائقة، فى أحد الشوارع الهادئة، عند أسرة معتدلة، قد كلفنى جهداً كبيراً. وأخيراً وجدتها فى شارع ريبيتا، تطل على النهر. وللحق فإن الانطباع الأول الذى انطبع فى ذهنى عن الأسرة التى كان عليها أن تستضيفنى، لم يكن إيجابيًا، حتى أننى، عندما عدت إلى الفندق، بقيت لمدة طويلة متردداً إن كان من الأنسب لى أن أستمر فى البحث.

على الباب، بالدور الرابع، كانت توجد لافتتان: بليارى من هنا، وبيبيانو من هناك، وتحت اللافتة الأخيرة، بطاقة مثبتة بمسمارين من النحاس ومكتوب عليها: سيلفيا كابورالى.

جاء ليفتح لى الباب رجل عجوز فى حوالى الستين (أهو بليارى؟ أم بيبيانو؟)، فى سروال داخلى من القماش، وقدماه العاريتان داخل زوج من الشباشب المتينة، صدره الوردى عار، وسمين لاشعر فيه، ويداه مغطّيتان بالصابون وعلى رأسه عمامة من الرغوة.

صاح: « أوه، معذرة كنت أظنها الخادمة .... اصبر قليلاً: تجدنى هكذا ... يا أدريانا! يا ترنسيو! وابتعد، فوراً! تعالى، يوجد هنا سيد.... اصبر لحظة، تفضل.... ماذا تريد؟ »

«هل تؤجرون هنا حجرة مفروشة؟»

« نعم يا سيدى، ها هى ابنتى، ستتكلم معك. هيا، يا أدريانا، الحجرة!» .

ظهرت مضطربة آنسة صغيرة صغيرة، شقراء، شاحبة ذات عينين زرقاوين حلوتين وحزينتين مثل وجهها كله. أدريانا مثلى! فكرت : «أوه، انظر، لو تعمدت هذا لما حدث!»

سأل الرجل ذو العمامة الرغوية: « لكن أين ترنسيو؟»

أجابته الآنسة الصغيرة مضطربة، بصوت حنون يعبر، رغم غضبها الخفيف، عن طبعها الحليم: « يا إلهى، يا أبى، إنك تعلم جيداً أنه فى نابولى منذ الأمس. انسحب! لو رأيتك..... » .

انسحب ذاك وهو يكرر: آه نعم !، آه نعم!، وهو يجرجر الشبشب ويستمر فى غسل رأسه الأصلع ولحيته الرمادية بالصابون.

لم أستطع ألا أبتسم، ولكنها ابتسامة رقيقة، حتى لا أحرج الابنة إحراجاً أكبر. وأغلقت هى عينيها، وكأنها لا تريد أن ترى ابتسامتى.

فى البداية بدت لى فتاة صغيرة؛ ثم عندما لاحظت جيداً تعبير وجهها، أدركت أنها امرأة ولهذا كان عليها أن تضع، إن أردنا القول، ذلك "الروب" الذى كان يجعلها مرتبكة شيئًا ما، إذ إنه لم يكن ملائماً لقسماتها وجسمها الصغير. كانت ترتدى ما يشبه ثياب الحداد.

بينما كانت تكلمنى بصوت خفيض، متحاشية النظر إلى (من يدرى ما الانطباع الذى تركته فيها فى البداية!) أدخلتنى، عبر طُرقة مظلمة إلى الحجرة التى كنت

سأستأجرها. ما إن انفتح الباب حتى شعرت بصدري ينشرح، بالهواء والضوء اللذين كانا يدخلان عبر نافذتين واسعتين مطلتين على النهر. ومنهما كان يظهر بعيداً بعيداً مونتى ماريو، وكوبرى مارجريتا، وحى براتى الجديد كله حتى قلعة سانت أنچلو؛ وكانت تشرف على كوبرى ريبتا القديم والكوبرى الجديد الذى كان يبنى بجواره؛ ومن بعدهما كوبرى أومبرتو، وبيوت توردينونا القديمة كلها التى كانت تتبع التفافة النهر الواسعة؛ وبعيداً، من الناحية الأخرى كانت ترى مرتفعات چانيكولو الخضراء، ونافورة القديس بطرس الضخمة فى مونتوريو، وتمثال غاريبالدى على ظهر الجواد.

استأجرت الغرفة بسبب المنظر الرحب ذاك، وكانت مفروشة كذلك ببساطة أنيقة بمفروشات فاتحة اللون، بيضاء وسماوية.

أرادت الفتاة التى ترتدى "الروب" أن تقول لى: « هذه الشرفة المجاورة، تخصنا هى أيضًا، على الأقل حتى الآن. ويقولون إنهم سيهدمونها، لأنها بارزة خارج المبنى».

« بارزة .... ماذا؟»

« بارزة خارج المبنى: ألا يقال هكذا؟ ولكن هذا يتطلب وقتًا طويلاً، قبل أن يتم بناء الطريق بطول النهر» .

عندما سمعتها تتحدث بصوت خفيض، بجدية شديدة بمثل هذه الملابس ابتسمت وقلت:

« آه هكذا؟»

شعرت بالإهانة من ردى . وأحنت ناظريها وضغطت بأسنانها على شفتها. وحتى أبعث الرضا فى نفسها كلمتها أنا أيضًا بصوت حاد:

« و ..... معذرة يا آنسة: طبعًا لا يوجد أطفال فى المنزل، أليس كذلك؟»

هزت رأسها دون أن تفتح فمها. ولعلها شعرت فى سؤالى بمذاق السخرية، وهو ما لم أرده. كنت قد قلت أطفال وليست بنات. وأسرعت لإصلاح الموقف مرة أخرى:

« ... يا آنسة: أنتم لا تؤجرون حجرات أخرى، أليس كذلك؟»

أجابتنى دون أن تنظر إلى: « هذه أفضل حجرة، إن كانت لا تروق لك... »

« لا لا .... كنت أسأل لأعرف إن ... »

عندئذ قالت وهى ترفع عينيها بلا مبالاة مصطنعة: « نؤجر حجرة أخرى، هنالك، فى الواجهة، تطل على الطريق. تشغلها آنسة تقيم معنا منذ عامين: وهى تقوم بتدريس العزف على البيانو ... ولكن ليس فى البيت».

وبينما كانت تقول هذا بدت عليها ابتسامة خفيفة وحزينة. وأضافت:

« نحن هنا أنا وأبى وزوج أختى يدعى ترنسيو ببيانو، ولكنه سوف يترك البيت مع أخيه الذى يقيم حالياً معنا هنا. لقد ماتت أختى ... منذ ستة أشهر » .

وحتى أغير الحديث سألتها عن قيمة الإيجار الذى سأدفعه؛ واتفقنا فوراً، وسألتها أيضاً إن كان من اللازم أن أترك لها مبلغاً مقدماً.

أجابتنى: « كما تريد، ولكن إن أردت فلتترك لنا اسمك.. »

لمست صدرى وأنا ابتسم بعصبية، وقلت:

« ليست معى ... ليست معى بطاقة ... اسمى أدريانو مايس، نعم، تماماً: سمعت أن اسمك أدريانا أنت أيضاً، يا آنسة. هل يؤسفك ....»

أجابتنى وقد لاحظت كما هو واضح حرجى الغريب بينما كانت تضحك هذه المرة مثل طفلة حقيقية:

« لا ! ولكن لماذا؟»

ضحكت أنا أيضاً وأضفت:

« إذن، إن كان لا يؤسفك هذا، فإن اسمى هو أدريانو مايس: ها هو! هل يمكننى السكن هنا الليلة؟ أم سأعود، من الأفضل، غداً ... »

أجابتنى: « كما تشاء»، ولكنى مضيت بانطباع أننى إن لم أعد فسأقدم لها معروفًا كبيرًا. لقد تجرأت على عدم النظر بما يجب من الاعتبار إلى "روبها" ذلك.

ولكنى استطعت أن أرى وأن ألمس بيدى، بعد أيام قلائل، أن الفتاة المسكينة كان عليها أن ترتديه، ذلك "الروب"، الذى كان يسعدها أن تتخلص منه. كان عبء المنزل كله يقع على كاهلها، ولو أنها لم تكن موجودة لساءت الأمور!

كان للأب، أنسلمو بليارى، ذلك العجوز الذى كان قد ظهر أمامى بعمامة من رغوة الصابون فوق رأسه، عقل مثل الرغاوى. فى اليوم نفسه الذى دخلت فيه بيته حضر إلى، ليس - كما قال - لكى يقدم لى اعتذاره عن الطريقة غير اللائقة التى ظهر بها أمامى فى المرة الأولى، بقدر سعادته بالتعرف على، فمظهرى هو مظهر باحث أو فنان، ربما:

«هل أنا مخطئ؟»

«أنت على خطأ. فنان .... لا أبدًا ! باحث ليس تمامًا ... تعجبنى قراءة بعض الكتب.»

قال وهو ينظر إلى كعوب الكتب القليلة التى وضعتها فوق المكتب: «فى يوم من الأيام القادمة سأعرض عليك كتبى، موافق؟ لدى كتب جيدة أنا أيضًا، ربما».

وهز كتفيه وبقى هنالك شاردًا، وعيناه ذاهلتان، ومن الواضح أنه لم يعد يذكر أى شىء، لا أين كان، ولا مع من كان؛ وكرر مرتين: ربما ! .... ربما!، وقد تقلص ركنا فمه إلى أسفل، واستدار لكى ينصرف، دون أن يلقى على التحية.

شعرت فى تلك اللحظة بشىء من العجب؛ ولكن عندما عرض على فيما بعد كتبه فى حجرته، كما وعد، لم أجد تفسيرًا لذلك الشرود العقلى البسيط فقط، وإنما لأشياء كثيرة أخرى. كانت تلك الكتب تحمل عناوين من هذا النوع: الموت والعالم الآخر -

الإنسان وأجساده - مبادئ الإنسان السبعة - كرمه - مفتاح الثيوصوفية[1] - أبجدية الثيوصوفية - التعليم السرى - الخطة الكوكبية .... إلخ، إلخ.

كان السيد أنسلمو باليارى ينتسب إلى مدرسة الثيوصوفية.

كان قد أحيل للتقاعد من وظيفته كرئيس قسم بإحدى الوزارات قبل الأوان ودمروه ليس ماليًا فقط وإنما كذلك لأنه، عندما وجد نفسه حرًا ولديه وقت، غاص بكلِّيته فى دراساته الخيالية وفى تأملاته الأثيرية وانفصل أكثر من ذى قبل عن الحياة المادية. وكان ينفق نصف معاشه على الأقل فى شراء تلك الكتب، وكون منها مكتبة صغيرة. ولكن تعاليم الثيوصوفية لم تشبعه تمامًا على الأرجح. ومن المؤكد أن سوس النقد كان ينخره؛ لأنه إلى جانب كتب الثيوصوفية تلك كانت لديه مجموعة زاخرة بالأبحاث والدراسات الفلسفية القديمة والحديثة، وكتب فى البحث العلمى. وكان فى الآونة الأخيرة قد انهمك فى التجارب الروحانية.

كان قد اكتشف فى الآنسة سيلڤيا كابورالى، معلمة البيانو، القاطنة عنده، قدرات خارقة للعادة فى أن تكون وسيطة، لم يتم بعد - لقول الحق - تطويرها تطويرًا جيدًا، ولكنها ستتطور بكل تأكيد بمرور الوقت وبالممارسة، إلى أن تصبح أعلى شأنًا من قدرات أشهر الوسطاء جميعًا.

وأستطيع أنا، من ناحيتى أن أشهد بأنى لم أر مطلقًا فى وجه دميم سوقى، وجه قناع من أقنعة الكرنڤال، عينين حزينتين مثل عينى الآنسة سيلڤيا كابورالى. كانت عيناها شديدتى السواد، حادتين، بيضاويتى الشكل، وكانتا توحيان بأن خلفهما ثقلاً من الرصاص، وتشبهان عيون العرائس ذاتية الحركة. كانت الآنسة سيلڤيا كابورالى تبلغ من العمر أكثر من أربعين عامًا وكان لها شاربان تحت أنفها المكور المتقد دائمًا.

---

(١) معرفة الله عن طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى أو كليهما وقد ظهرت حركة بهذا الاسم فى الولايات المتحدة سنة ١٨٧٥، وتقوم على أساس من التعاليم البوذية والبراهمية على يدى الروسية بتروفنا بلافاتسكى ولاقت نجاحًا كبيرًا فى الفترة الواقعة بين نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (المترجم).

علمت فيما بعد أن هذه المرأة المسكينة كانت مصابة بالشبق الجنسى وكانت تشرب؛ كانت تعلم أنها دميمة، وأنها قد صارت عجوزًا، فكانت من يأسها تشرب وفى بعض الليالى كانت تتحول فى البيت إلى حالة يرثى لها: بقبعتها الصغيرة المائلة، وبأنفها المكور الأحمر مثل الجزر وبعينيها شبه المغلقتين لتصير أكثر حزنًا وألمًا من أى وقت آخر.

كانت تلقى بجسدها فوق الفراش، وفى الحال كان الخمر الذى شربته كله ينسكب خارجًا وقد تحول إلى سيل من الدموع. وعندئذ كان على الأم الصغيرة المسكينة[١] وهى ترتدى "الروب" أن تسهر عليها وتواسيها حتى ساعة متأخرة من الليل؛ كانت تشعر بالشفقة عليها، شفقة تغلب الغثيان؛ كانت تعلم أنها وحيدة فى العالم وتعيسة تعاسة بالغة وبشهوتها الجنسية تلك التى كانت تجعلها تكره الحياة، التى حاولت التخلص منها مرتين؛ وكانت تدفعها رويدًا رويدًا إلى أن تعدها بأنها ستكون إنسانة صالحة، وأنها لن تفعل هذا بعد ذلك، نعم يا سادتى؛ وفى اليوم التالى كنت تراها بملابس مبهرجة وتأتى بحركات مثل حركات القرد ، وقد تحولت فجأة إلى طفلة ساذجة لها نزواتها.

كانت الليرات القليلة التى يتاح لها أن تكسبها من وقت لآخر من تدريب إحدى الممثلات المبتدئات فى مقاهى الفرق الموسيقية على الأغانى، تنفق هكذا، إما فى الشرب أو فى البهرجة، وهى لم تكن تدفع إيجار الحجرة أو ثمن الشىء اليسير الذى كانوا يقدمونه لها لتأكله هنالك داخل الأسرة. ولكن لم يكن من الممكن طردها. فماذا يفعل السيد أنسلمو بليارى بتجاربه الروحانية؟

وكان هناك فى الواقع سبب آخر؛ فبعد وفاة أم الآنسة كابورالى، قبل عامين، تركت الآنسة منزلها، ولما جاءت لتعيش هنالك عند أسرة بليارى أودعت حوالى ستة

(١) يقصد هنا أدريانا التى سبق أن وصفها بأنها آنسة صغيرة، وفتاة صغيرة، والآن يقدمها ويكسوها بالأمومة. (المترجم).

آلاف ليرة، حصيلة بيع الأثاث، لدى ترنسيو ببيانو لحساب مشروع تجارى مضمون ومربح عرضه عليها، واختفت الستة آلاف ليرة.

وعندما اعترفت لى بهذا الآنسة كابورالى نفسها، والدموع تنساب من عينيها، التمست العذر بعض العذر للسيد أنسلمو بليارى الذى بدا لى فى البداية أنه بسبب خبله فقط يأوى امرأة من هذا الصنف لتكون على احتكاك بابنته.

حقيقة ، إنه لم يكن هناك ما يخشى منه على الصغيرة أدريانا، التى كانت تظهر صالحة بالغريزة بل وذات عقل راجح! فهى فى الواقع كانت تشعر بالإهانة فى نفسها من ممارسات أبيها الغريبة، أكثر من أى شىء آخر، ومن استدعائه للأرواح عن طريق الآنسة كابورالى.

كانت الصغيرة أدريانا متدينة، أدركت هذا منذ الأيام الأولى بسبب وعاء الماء المقدس وهو من الزجاج الأزرق، وكان معلقًا على الحائط فوق "الكومودينو" بجوار فراشى. كنت قد استلقيت على الفراش والسيجارة لاتزال مشتعلة فى فمى، وأخذت أقرأ أحد كتب بليارى؛ وسهوا، أطفأت السيجارة ووضعتها فى وعاء الماء المقدس هذا. وفى اليوم التالى لم أجده. وعلى "الكومودينو" وجدت بدلاً منه مطفأة سجائر. وأردت أن أسألها إن كانت هى التى رفعته من الحائط، فأجابتنى وقد اكتسى وجهها بحمرة خفيفة:

- آسفة جدًا، بدا لى أنك أكثر احتياجًا إلى مطفأة سجائر.

- ولكن هل كان بالوعاء ماء مبارك؟

- كان به. فأمامنا هنا مباشرة كنيسة القديس روكو.

وانصرفت. أكانت إذن تريد منى أن أكون قديسًا، تلك الأم الصغيرة النحيلة، إن كانت قد جاءت بالماء المبارك من نبع القديس روكو لوعاء الماء المقدس الخاص بحجرتى؟ لقد جاءت به بكل تأكيد من أجل وعائى ووعائها. فلم يكن الأب يستخدمه طبعًا. وفى وعاء الماء المقدس الخاص بالآنسة كابورالى، إن كان لديها، كان عليها أن تضع بالأحرى، نبيذًا مباركًا.

كان كل شيء ضئيلاً. وأنا أشعر بنفسي منذ وقت مُعلقًا في فراغ غريب - يجعلني الآن أقع في تأملات طويلة. ودفعني وعاء الماء المقدس هذا إلى التفكير في أني، منذ كنت صبيًا، لم أهتم بشعائر الدين، ولم أعد أدخل أي كنسية للصلاة منذ أن تركنا بنزوني الذي كان يقتادني مع برتو إليها ، طبقًا لأوامر أمنا. ولم أشعر أبدًا بأية حاجة إلى أن اسأل نفسي إن كنت حقيقة مؤمنًا. وها هو ماتيا باسكال قد مات ميتة سيئة دون أن ينال أي عزاء ديني .

وفجأة رأيت نفسي في موقف فريد. فبالنسبة لكل من كان يعرفني تخلصت أنا - خيرًا كان أم شرًا - من أكثر الهموم كربًا وكدرًا التي قد تؤرق الإنسان: هم الموت. ومن يدري كم من أهل ميرانيو كانوا يقولون:

- يا لسعادته هو، في النهاية! فمهما كان، فقد حل المشكلة.

ولم أكن قد وجدت - أنا - حلاً لشيء. كنت أجد نفسي الآن وبين يدي كتب بلياري، وكانت هذه الكتب تعلمني أن الموتى - الموتى الحقيقيين - في ظروفي نفسها، في قوقعة الكمالوكا[1]، وخاصة المنتحرين، الذين يصفهم السيد ليدبيتر مؤلف كتاب الخطة الكوكبية (أول درجة من درجات العالم غير المرئي، بعد الثيوصوفية) بأنهم تستثيرهم شهوات البشر كلها ولا يمكنهم إشباعها إذ إنهم محرومون من الجسم اللحمي الذي يجهلون أنهم قد فقدوه.

كنت أفكر « أوه، انظر، أكاد أعتقد أني قد غرقت فعلاً في طاحونة ستيا وأني أتوهم على كل حال أني لازلت حيًا ».

من المعروف أن بعض أنواع الجنون معدية. وقد أصابني في النهاية جنون بلياري، برغم أني قد تمردت في البداية.ليس لأني قد صدقت في الحقيقة أني قد توفيت،

(١) طبقًا لنظرية الثيوصوفية تمر النفس بسبع مراحل للتناسخ، وفي المراحل المتوسطة منها تكون حبيسة جزئيًا فيما يشبه القوقع. (المترجم).

ولعله لم يكن شراً مستطيراً، لأن المهاب هو الموت، وبمجرد أن نموت لا أظن أننا تواتينا الرغبة البائسة فى العودة للحياة. لاحظت فجأة أننى لابد أن أموت ثانية: هذا هو الشر. من كان يتذكر هذا؟ فبعد انتحارى فى ستيا، من الطبيعى أننى لم أعد أرى شيئًا آخر، أمامى، إلا الحياة. وهكذا الحال هنا الآن: كان السيد أنسلمو بليارى يضع أمامى باستمرار شبح الموت.

لم يعد يعرف الحديث عن أمر آخر، هذا الرجل المبارك ! ولكنه كان يتكلم عنه بحماس شديد. وكانت تفلت منه من حين إلى حين، فى حمية الحديث، صور معينة وتعبيرات معينة، فريدة لدرجة أنى عندما كنت أستمع إليه كانت تتلاشى فوراً رغبتى فى التملص منه وفى الانصراف لأسكن فى مكان آخر. ثم إن مذهب السيد بليارى وإيمانه، رغم أنهما كانا يبدوان لى أحيانًا صبيانيين، كانا معزيين ومشجعين فى الواقع؛ وإذا ظهرت أمامى للأسف فكرة أنى فى يوم أو فى يوم آخر سوف أموت موتًا حقيقيًا، فإنى لم أكن أستاء من الاستماع إلى حديثه عن الموت بهذه الطريقة.

سألنى ذات يوم بعد أن قرأ على فقرة من أحد كتب فينوت[1]، ملىء بفلسفة تقشعر منها المشاعر عن حياة الديدان التى تولد من تحلل الجسم البشرى: هل يوجد منطق؟، هل يوجد منطق؟ مادة، نعم، مادة: فلنفترض أن كل شىء مادة. ولكن يوجد شكل وشكل، وطريقة وطريقة، ونوعية ونوعية: يوجد الحجر والأثير الذى لا يمكن وزنه، يا الله! وفى جسدى نفسه يوجد الظفر والسن والشعرة ويوجد نسيج العين متناهى الرقة. والآن، نعم يا سيدى، من يقول لك لا ؟ إن ما نسميها نفسًا قد تكون مادة هى أيضًا؛ ولكن ألا تريد أن تقر أنها لن تكون مادة مثل الظفر ومثل السن ومثل الشعرة: ستكون مادة مثل الأثير، أو غيره. الأثير، نعم، تقره فرضًا، والنفس لا؟ هل هذا منطق؟ مادة، نعم يا سيدى. تتبع تفكيرى وانظر إلى أين أصل مسلما بكل شىء. فلنأت إلى الطبيعة. نحن نعد الآن الإنسان وريثًا لسلسلة عديدة من الأجيال، أليس كذلك؟ نتاجًا

(١) الكاتب الفرنسى جان فينوت Jean Finot (١٨٥٢ - ١٩٢٢) (المترجم).

لعمليـة دقيقة متـأنية للطبيـعة[١]. وأنت، يا عزيزى السـيد مـايس، أترى أنه هو أيضًا حيوان، حيوان قاس للغاية، وأنه فى مجمله، قليل الاعتبار والتقدير؟ فلأسلم أيضًا بهذا وأقول: حسنًا، يمثل الإنسـان فى ترتيب الكائنات درجة غير عالية جداً، ولنفترض أن بين الدودة والإنسـان ثمـانى درجات، ولنفترض سبـعة، ولنفتـرض خمس درجـات. لكن ! لقـد بذلت الطبـيعـة جهـدًا طوال آلاف وآلاف وآلاف القـرون لكى تصـعد هذه الدرجـات الخمس، من الدودة إلى الإنسـان؛ وكـان عليـهـا أن تتطـور، أليس كذلك؟ فـهــذه المـادة لكى تصــل كشكل وخـلاصــة إلى هــذه الدرجة الخـامـسة، ولكى تصـبح هذا الحـيوان الذى يسرق، هذا الحيوان الذى يقتل، هذا الحـيوان الكاذب ولكنه بالرغم من هذا قـادر على كتابة الكوميديا الإلهية[٢] – يا سيد مايس – وعلى التضـحية بنفسه كما فعلت أمك وأمى؛ وفجأة وبلا مقدمات، يعود صـفراً، ولكن سيغدو دودة أنفى، وقدمى، وليس روحى! مـادة هى أيضًا، من يقول لك لا ، يـا سيدى؟ ولكنـهـا ليست مـثل أنفى أو مثل قـدمى. هل يوجد منطق؟

اعترضت عليه أنا : مـعـذرة، يا سيد بليـارى، رجل يتنزه ، ويسـقط، وترتطم رأسـه فيصير أبله. أين النفس؟

بقى السيد أنسلمو فترة ينظر، وكأن حجراً ضـخمًا قد سقط فجأة أمام قدميه.

– أين النفس؟

– نعم، أنت أو أنا، أنا ولست رجـلاً عظيمًـا، ولكنى بـالرغم من هذا، أفكر، أتنزة، وأسقط وترتطم رأسى وأصير أبله. أين النفس؟

عقد بليارى يديه وأجابنى بتعبير ينم عن إشفاق حميد:

---

(١) إشارة مباشرة إلى نظرية دارون التى دار حولها جدل كبير (المترجم).

(٢) أهم أعمال دانتى أليجييرى الشعرية ويمثل رحلة إلى العالم الآخر حيث يجرى دانتى لقاءات مـع بشر من عصره ومن سابقيه فى جهنم وفى المطهر ومع أرواح بشر فى الفردوس .... (المترجم).

– ولكن، يا إلهى القدوس، لماذا تريد أن تسقط وأن ترتطم رأسك، يا عزيزى السيد مايس؟

– افتراضًا..

– لكن، لا يا سيدى: فلتتنزه بهدوء. ولنأخذ مثلاً المسنين الذين دونما حاجة للسقوط ولارتطام الرأس، يمكن أن يتحولوا بشكل طبيعى إلى بلهاء. حسنًا، ماذا يعنى هذا؟ هل تريد بهذا أن تثبت أنه عندما يضعف الجسد يصيب الوهن النفس أيضًا لكى تبرهن هكذا على أن زوال الواحد يؤدى إلى زوال الأخرى؟ لكن معذرة ! فلتتخيل الحالة العكسية: حالة أجساد واهنة إلى أقصى حد، ومع هذا يلمع فيها بقوة شديدة نور النفس: جاكومو ليوباردى[1]! ومسنون كثيرون، مثل قداسة ليون الثامن! إذن، ولكن تخيل آلة بيانو وعازف: فى لحظة ما، وهو يعزف، يصبح نغم البيانو نشازًا لم يعد أحد الأصابع يضرب؛ وينقطع وتران أو ثلاثة؛ حسنًا، أتحدى! بمثل هذه الآلة وبحالتها هذه ورغم أن العازف ماهر إلا أنه بالضرورة سيعزف عزفًا سيئًا. وإذا صمتت آلة البيانو، فهل هذا يعنى أن العازف أيضًا لم يعد موجودًا؟

– هل تعنى أن المخ هو آلة البيانو، وأن العازف هو النفس؟

– مقارنة قديمة، يا سيد مايس! الآن، إذا فسد المخ ظهرت النفس بلهاء أو مجنونة، أو شيئًا آخر، لا أعلم. وهذا يعنى أنه لو أن العازف كسر الآلة، لا بسبب النحس، وإنما بسبب عدم انتباهه أو بإرادته، فإنه سيدفع الثمن؛ فمن يكسر يدفع، كل شيء لابد من دفع ثمنه، لابد من دفع ثمنه. ولكن هذه مسألة أخرى. معذرة، ألا يعنى بالنسبة لك شيئًا أن البشرية كلها، كلها، منذ أخبارها الأولى، تصبو دائمًا إلى حياة أخرى، هنالك؟ هذا واقع، واقع، ودليل حقيقى.

– يقولون: غريزة حب البقاء ...

---

(١) شاعر إيطالى من شعراء الرومانسية. (المترجم).

- لا يا سيدى، فأنا لا أكترث، هل تعلم؟ بهذا الجلد القبيح الذى يغطينى! إنه ثقيل علىّ، وأتحمله لأنى أعلم أننى يجب أن أتحمله، ولكن إن أثبتوا لى أننى - بعد أن أتحمله لخمس أو ست أو عشر سنوات أخرى - لن أدفع كفارتى بشكل ما، وأن كل شىء سينتهى عند ذاك، فسألقى به عنى اليوم نفسه وفى هذه اللحظة نفسها: فأين تكون إذن غريزة حب البقاء؟ إننى أحفظ ذاتى فقط؛ لأنى أشعر أن الأمر لا يمكن أن ينتهى هكذا! ويقولون لكن الإنسان الفرد شىء والبشرية شىء آخر؛ ينتهى الفرد، ويستمر النوع فى الارتقاء. طريقة جميلة فى التفكير، هذه ! لكن انظر! وكأن البشرية ليست أنا، وليست أنت، والجميع فرداً فرداً. أليس لكل منا الشعور نفسه؟ أى سيكون الأمر فى أقصى درجات العبث وفى أقصى درجات الفظاعة لو أن كل شىء ينحصر هنا فى هذه النفخة البائسة التى هى حياتنا الأرضية، خمسون أو ستون سنة من السأم والبؤس والمتاعب، لماذا؟ للاشىء! من أجل البشرية؟ وإذا كانت البشرية نفسها ستنتهى فى يوم من الأيام؟ فكر قليلاً: وهذه الحياة كلها، وهذا التقدم كله، وهذا التطور كله، ما الهدف من كل هذا؟ والعدم، العدم الخالص، يقولون إنه لا وجود له.... شفاء الكوكب، أليس كذلك؟ كما قلت أنت أول أمس حسناً، شفاء؛ ولكن ينبغى أن نرى ما المقصود به. انظر، يا سيد مايس، إن شر العلم يكمن كله هنا: فى أنه يريد أن يهتم بالحياة فقط[1] .

تنهدت وأنا أبتسم « إيه ! لأننا يجب أن نحيا.... »

ورد بلياري « ويجب كذلك أن نموت! »

« مفهوم؛ ولكن لماذا نفكر فى هذا كثيراً؟ »

« لماذا؟ لأننا لن نستطيع أن ندرك الحياة إن لم نفسر لأنفسنا بشكل ما الموت! إنه المعيار الدال على اتجاه أفعالنا، والخيط المؤدى للخروج من هذا التيه وعموماً الضوء، يا سيد مايس، الضوء الذى ينبغى أن يأتى إلينا من هناك، من الموت. »

---

(١) كان بيرندللو قد اتهم العلم بأنه السبب فى رفض "سر الحياة" بعد أن ساهم فى محاولة القضاء على المعتقدات الدينية (المترجم).

« وماذا تفعل بالظلام؟ »

« ظلام؟ ظلام بالنسبة لك! حاول أن تشعل فيه سراجًا صغيرًا من الإيمان، وبزيت النفس النقى. إن غاب هذا السراج، فإننا لن ندرك شيئًا هنا، فى الحياة، مثلنا مثل عميان كثيرين، برغم النور الكهربائى كله الذى اخترعناه؛ ولكننا، يا عزيزى السيد مايس، نحتاج كذلك إلى ذلك النور الآخر حتى يضىء لنا قليلاً من أجل الموت. انظر، إننى أحاول فى بعض الليالى أن أوقد مصباحًا أحمر الزجاج، ينبغى أن نسعى بكل الطرق وأن نحاول على أية حال أن نرى. حاليًا زوج ابنتى ترنسيو فى نابولى. وسيعود بعد بضعة شهور، وعندئذ سأدعوك لحضور إحدى جلساتنا المتواضعة، إن أردت. ومن يدرى، لعل هذا المصباح .... كفى، لا أريد أن أقول لك شيئًا آخر. »

كما هو واضح لم تكن صحبة أنسلمو بليارى صحبة تجلب كثيرًا من البهجة. ولكنى إذا فكرت جيدًا فهل كان يمكننى دونما مخاطرة، أو من الأفضل أن أقول، دون أن أجد نفسى مضطرًا للكذب، أن أسعى إلى صحبة أخرى أقل بعدًا عن الحياة؟ كنت لا أزال أتذكر الفارس تيتو لنتسى. أما السيد بليارى فلم يكن مهتمًا بأن يعرف عنى شيئًا، كان راضيًا بالاهتمام الذى أبديه بأحاديثه. كان فى كل صباح تقريبًا، وبعد أن يغسل جسمه بالكامل كالمعتاد، يصاحبنى فى نزهاتى؛ كنا نذهب إما فوق الچانيكولو أو فوق أڤنتينو أو فوق مونت ماريو، وأحيانًا كنا نصل إلى كوبرى نومنتانو[1]، ونحن نتحدث دائمًا عن الموت.

كنت أفكر : « يا له من مكسب كبير حصلت عليه، وهو ألا أكون ميتًا حقيقة!».

كنت أحاول أن أجذبه للحديث عن موضوع آخر؛ ولكن كان يبدو أن السيد بليارى لم يعد يجيد النظر فى مشهد الحياة المحيطة بنا؛ كان يمشى دائمًا والقبعة فى يده؛ وكان يرفعها عند لحظة معينة ليحيى شبحًا ما وكان يهتف:

« سخافات! »

---

(١) أسماء أماكن متباعدة عن بعضها فى روما (المترجم).

مرة واحدة فقط وجه لي فجأة سؤالاً خاصًا:

« لماذا تبقى في روما، يا سيد مايس؟ »

رفعت كتفيَّ وضممتهما وأجبته:

« لأنه تعجبني الإقامة فيها. »

فقال وهو يهز رأسه « مع أنها مدينة كئيبة. كثيرون يتعجبون لأن أي عملية لا تنجح فيها، ولأن أي فكرة حية لا تتأصل وتتجذر فيها. ولكن هؤلاء يتعجبون لأنهم لا يريدون الاعتراف بأن روما ميتة. »

هتفت، مرتاعًا « وروما أيضًا ميتة؟ »

« منذ زمن بعيد، يا سيد مايس! ولا طائل، صدقني، من أي جهد لإعادتها للحياة. وهي إذ انغلقت في حلم ماضيها التليد، لم تعد لديها أية رغبة في أن تكون له علاقة بهذه الحياة البائسة التي تصر على أن تدب حولها. وعندما تحيا مدينة حياة مثل حياة روما، بخصائص بارزة وخاصة؛ فإنها لا يمكنها أن تصير مدينة حديثة، أي مدينة مثل غيرها. إن روما تقبع هنالك، بقلبها الكبير المهشم، خلف كامبيدوليو. هل هذه المنازل الجديدة هي روما؟ انظر يا سيد مايس. لقد كلمتني ابنتي عن وعاء الماء المقدس الذي كان موجودًا في حجرتك، هل تتذكره؟ لقد انتزعت أدريانا من حجرتك وعاء الماء المقدس ذلك؛ ولكن أول أمس سقط من يدها وانكسر، وبقي منه فقط حوضه، وهو الآن في حجرتي، فوق مكتبي لاستخدامه في الغرض الذي استخدمته أنت سهوًا من أجله. حسنًا، يا سيد مايس، إن مصير روما مماثل لهذا. لقد جعل منها الباباوات – على طريقتهم، وهذا هو المقصود – وعاءً للماء المقدس؛ ونحن الإيطاليين جعلنا منها على طريقتنا، مطفأة سجائر. لقد جئنا إلى هنا من كل البلاد لننفض رماد سيجارتنا، وهو رمز لطيش حياتنا هذه البائسة، وللذة المرة والسامة التي تعطينا إياها. »

(١١)

النظر إلى النهر، مساءً

كلما زادت الألفة بسبب الإجلال والمحبة اللذين كان يبديهما لى صاحب البيت، كانت تزيد كذلك بالنسبة لى صعوبة التعامل، وعدم الثقة فى النفس التى سبق أن شعرت بها والتى كثيرًا ما تحولت إلى شعور حاد وكأنه ندم على وجودى هنالك، دخيلاً على تلك الأسرة، باسم مزيف، وملامح متبدلة، ووجود مختلق متقلب. وكنت أرى أن أنسحب بعيدًا كلما أمكن هذا، وأذكر نفسى باستمرار بأنى يجب ألا أقترب أكثر من اللازم من حياة الآخرين، وبأنى يجب أن أتحاشى أية علاقة حميمة وأن أكتفى بأن أعيش هكذا فى الخارج وعلى الهامش.

وكنت أقول أيضًا: حُر! ولكنى كنت أشرع فى الدخول إلى مغزى حريتى هذه وإلى قياس حدودها.

هكذا: كانت تعنى – على سبيل المثال – أن أبقى هنالك، فى المساء، وأطل من النافذة لأنظر إلى النهر الذى كان ينساب أسودَ وصامتًا بين جسريه الجديدين، وأسفل الكبارى التى كانت تنعكس على مائه أنوار أعمدتها التى كانت ترتعش كأنها حيات من نار؛ وأن أتابع بالخيال مجرى تلك المياه من منبعها البعيد فى جبال الأبنين ومرورًا بأرياف كثيرة، والآن عبر المدينة، ثم عبر الريف من جديد حتى مصبها؛ وأتصور بفكرى البحر المعتم المضطرب الذى كانت تلك المياه، وبعد جريانها الطويل، تذهب لتضيع فيه، وأفتح من آن إلى آخر فمى فى تثاؤب.

كنت أهمهم: حرية .... حرية ... ولكن ألن يكون الحال هو نفسه فى أى مكان آخر؟ كنت أرى فى بعض الأمسيات فى الشرفة المجاورة أم البيت الصغيرة "بالروب" مهتمة برى أصص الزهور. وكنت أفكر "ها هى الحياة!" وكنت أتابع بعينى الفتاة الحلوة فى أثناء رعايتها اللطيفة تلك، وأنا أنتظر بين الفينة والفينة أن ترفع عينيها نحو نافذتى. لكن هيهات. كانت تعلم أنى هناك؛ ولكنها عندما تكون بمفردها، كانت تتظاهر بعدم إدراك وجودى . لماذا؟ هل كان هذا التحفظ نتيجة للخجل فقط ، أم لعلها مازالت مستاءة ، تلك الأم الغالية، بسبب تقديرى الضئيل الذى كنت أصر بقسوة على إظهاره لها؟ ها هى الآن بعد أن وضعت الرشاشة، تستند إلى سور الشرفة وتأخذ فى النظر إلى النهر هى أيضًا، ولعلها بهذا تريد أن تظهر لى أنها لا تهتم بى من قريب أو من بعيد؛ فلديها هموم وأفكار خطيرة خاصة بها لابد لها أن تفكر فيها وهى فى ذلك الوضع وتحتاج إلى الوحدة.

كنت أبتسم سرًّا، وأنا أفكر هكذا؛ ولكنى بعد هذا، عندما أراها تنصرف من الشرفة، كنت أفكر فى أن حكمى ذاك ربما كان مخطئًا، وكان ثمرة العناء الغريزى الذى يشعر به كل من يرى عدم الاهتمام به؛ وكنت أتساءل « ثم لماذا عليها أن تهتم بى، وأن توجه إلى – بلا ضرورة – الكلام؟ إننى هنا أمثل بلية حياتها، وخبل أبيها؛ ولعلى أمثل إهانة لها. ولعلها كانت لا تزال تشتاق إلى الوقت الذى كان أبوها فى الخدمة ولم يكن محتاجًا إلى تأجير غرف البيت وإلى أن يستضيف غرباء فى المنزل. وعلى وجه الخصوص غريبًا مثلى! لعلى أخيفها – وهى الطفلة المسكينة، – بعينى هذه وبنظارتى هذه .....».

كانت ضوضاء إحدى العربات فوق الكوبرى الخشبى القريب تقلقنى من تلك التأملات؛ فكنت أنفخ وأنسحب من خلف النافذة ، وأنظر إلى الفراش ، وأنظر الى الكتب ، وأبقى مترددا بين هذه وذاك ، ثم أهز كتفىّ وألتقط قبعتى وأخرج آملا فى أن أتحرر فى الخارج من ذلك السأم المجنون .

كنت أمضى ، حسب إلهام اللحظة ، إما فى أكثر الطرق ازدحاما أو فى الأماكن المنعزلة. أذكر ، فى إحدى الليالى ، بميدان القديس بطرس ، انطباعا كالحلم ، حلما

يكاد أن يكون بعيداً ، أوحى إلى به ذلك العالم العتيق ، الذى تحتويه هنالك أذرع الرواق المهيب ، فى الصمت الذى كان يبدو متناميا بسبب صخب النافورتين . اقتربت من إحداهما وعندئذ بدا لى ذلك الماء وحده حيًا، هنالك، والباقى كله كأنه مشهد كئيب ، عميق الحزن فى مهابته الصامتة الساكنة .

عند عودتى عبر شارع بورجو نوڤو ، صادفت عند نقطة معينة منه مخموراً انحنى وهو يمر بجانبى ويرانى غارقا فى التفكير ، ومد رأسه قليلا لينظر وجهى من أسفل إلى أعلى، وقال لى وهو يهز ذراعى بخفة :

المرح !

توقفت فجأة ، وقد أصابتنى المفاجأة حتى أتفحصه من رأسه وحتى قدميه . كرر قوله – المرح ! ، وهو يصحب حثه لى بحركة من يده كانت تعنى « ماذا تفعل ؟ فيم تفكر ؟ لا تهتم بشىء ! » .

وابتعد مترنحا ، وهو يستند بيده إلى الحائط .

أزعجنى فى تلك الساعة ، وفى ذلك الطريق الخالى ، هنالك بالقرب من دار العبادة الكبيرة ، وبأفكار مازالت فى رأسى استثارها هو ، ظهور هذا السكير ونصيحته الغريبة الودودة والعطوفة بفلسفتها : لا أدرى كم من الوقت بقيت أتابع بعينى ذلك الرجل ، ثم شعرت بذهولى ذلك وهو يكاد أن يتحول إلى ضحكة مجنونة .

« المرح ! نعم ، ياعزيزى ، ولكنى لا أستطيع أن أذهب إلى حانة مثلك ، بحثا عن المرح الذى تنصحنى به فى قاع كأس . لعلى لا أستطيع أن أجده هنالك ، للأسف ! ولا أجده فى مكان آخر ؛ إننى أذهب إلى المقهى ، يا عزيزى ، بين أناس أفاضل يدخنون ويثرثرون فى السياسة ، قد نستطيع كلنا أن نكون مرحين ، بل سعداء ، بشرط واحد ، حسبما يقول محام استعمارى صغير يتردد على مقهاى : بشرط أن يقوم على حكمنا ملك مستبد صالح . أنت ، أيها السكير الفيلسوف المسكين ، لا تعرف هذه الأمور ، فهى لا تخطر إطلاقا ببالك . لكن السبب الحقيقى لأوجاعنا كلها ، ولحزننا هذا ، هل

تعرفه ؟ إنها الديموقراطية ، ياعزيزى، الديموقراطية ، أى حكم الأغلبية. لأنه عندما تكون السلطة فى يد فرد واحد فقط ، فإن هذا الفرد يعلم أنه واحد وأنه يجب عليه أن يرضى كثيرين ، ولكن عندما يحكم كثيرون ، فإنهم يفكرون فى إرضاء أنفسهم ، وعندئذ تظهر أكثر أشكال الاستبداد رعونة ومقتا : الاستبداد المقنع بالحرية . هذا مؤكد ! أوه ، ولماذا تظن أنى أعانى؟ أنا أعانى فعلا من هذا الاستبداد المقنع بالحرية .. فلنعد إلى البيت ! » .

ولكن تلك كانت ليلة اللقاءات .

بينما كنت أمر ، بعد قليل ، بتوردينونا فى الظلام تقريبا ، سمعت صرخة قوية بين صرخات أخرى مكتومة فى أحد الأزقة التى تؤدى إلى ذلك الطريق . وفجأة وجدت نفسى أجرى أمام جمهرة من المتشاجرين . كانوا أربعة من البؤساء ، ممسكين بعصى غليظة ذات عقد يهاجمون امرأة من نساء الشوارع .

أشير إلى هذه المغامرة لا لكى أتجمل بعمل من أعمال الشجاعة ، وإنما لأتكلم عن الخوف الذى شعرت به من تبعات هذا العمل . كان أولئك الأوغاد أربعة ، ولكنى أنا أيضا كنت ممسكا بعصا بها قطعة من الحديد . دافعت عن نفسى كيفما استطعت ، وأنا أدور وأقفز هنا وهنالك فى اللحظة المناسبة حتى لا يجعلونى فى وسطهم ، ونجحت فى النهاية أن أوجه لرأس أكثرهم هياجًا ضربة دقيقة بمقبض العصا الحديدى ؛ رأيته يترنح ، ثم ينطلق جاريا ، ولعل الثلاثة الآخرين ، خوفا من أن يهبَّ أحد للنجدة بسبب صراخ المرأة ، قد تبعوه . لا أدرى كيف وجدت نفسى وقد أصيبت جبهتى . صرخت فى المرأة التى لم تتوقف بعد عن طلب النجدة، أن تكف عن الصراخ؛ لكنها - وقد رأتنى والدم يسيل فى خطوط على وجهى - لم تستطع التوقف، وكانت تريد وهى باكية ومشعثة الشعر ، أن تسعفنى وأن تعصبنى بمنديلها الحريرى الذى كانت تضعه فوق صدرها وتمزق فى أثناء المشاجرة .

قلت لها وأنا أتوقاها فى نفور : لا ، لا شكرا . كفى .. لا شىء ! اذهبى ، اذهبى حالا - اختفى ولا تظهرى .

واتجهت إلى صنبور المياه ، الموجود أسفل قاعدة الكوبرى القريب، لأبلل جبهتى . ولكن ، وبينما كنت هنالك ، إذا بشرطيين لاهثين يريدان أن يعلما ماذا حدث . وأخذت المرأة، وكانت من نابولى ، تحكى فوراً " الحادث الذى تعرضت له " معى ، وتسرف فى التعبير بعبارات الود والإعجاب من جعبة لغتها الدارجة تجاهى . واحتاج الأمر منى مشقة كبيرة حتى أتخلص من هذين الشرطيين المجتهدين اللذين كانا يريدان بكل وسيلة أن يصطحبانى للإبلاغ عن الحادث – شاطر ! ما كان ينقصنى شىء غير هذا ! أن أذهب الى الشرطة ، الآن ! وأن أظهر فى اليوم التالى فى صفحة الحوادث بالجرائد وكأنى بطل ، أنا الذى كان يجب على أن أبقى صامتا ، فى الظل ، مجهولاً من الجميع ..

بطل ، نعم ، بطل ، لم يعد بإمكانى أن أكون .. إلا بشرط أن أموت .. ولكنى قد مت من قبل!

« هل أنت أرمل ، معذرة ، ياسيد مايس ؟ »

هذا السؤال نزل على كالصاعقة فى إحدى الأمسيات ، وجهته إلى الآنسة كابورالى فى الشرفة ، حيث كانت مع أدريانا ، وحيث دعتانى لقضاء بعض الوقت فى صحبتهما .

انزعجت ، فجأة ، أجبت :

« لا ، لماذا ؟ »

« لأنك تحك بإبهامك دائما إصبعك البنصر ، كمن يريد لف خاتم يحيط بإصبعه. هكذا .. أليس كذلك ، يا أدريانا ؟ »

انظر إلى أين تصل عيون النساء ، أو من الأفضل ، عيون بعض النساء ، لأن أدريانا صرحت بأنها لم تلاحظ هذا أبداً .

صاحت كابورالى « ربما لم تعيرى الأمر انتباها ! »

اضطررت إلى الاعتراض ، بالرغم من أنى لم أعر هذا الأمر اهتماماً مطلقاً ، بأن هذه العادة قد تكون إحدى عاداتى .

ووجدت نفسى مضطرا إلى أن أضيف : وفى الواقع كنت أضع لوقت طويل خاتما، هنا ، وكان على أن أجعل صائغًا... يقطعه لأنه كان يضغط بشدة على إصبعى ويؤلمنى.

تنهدت عندئذ وهى تتلوى ، تلك المرأة فى الأربعين من عمرها ، والتى كانت فى تلك الأمسية تحب أن تتصنع طريقة نطق الأطفال. « مسكين الخاتم الصغير ! كان ضيقا جداً ؟ كان لا يريد الخروج من إصبعك ؟ ربما كان ذكرى من .. »

قاطعتها أدريانا الصغيرة ، بلهجة توبيخ « ياسيلفيا ! »

استطردت تلك « وما العيب فى هذا ؟ كنت أريد أن أقول ذكرى حب أول ... هيا ، قل لنا شيئًا ، ياسيد مايس. هل من الممكن ألا تتكلم أبداً ؟ »

قلت : « كنت أفكر فى النتيجة التى استنتجتها من عادة حك إصبعى . وهى نتيجة اعتباطية ، يا آنستى العزيزة . لأن الأرامل ، حسب معلوماتى ، لا ينزعون عادة خاتم الزواج . فحملهم الثقيل هو الزوجة ، وليس الخاتم ، عندما لم يعد للزوجة وجود . بل ، كما يحب المحاربون القدماء أن يتقلدوا أوسمتهم ، هكذا أيضا الأرمل يحب ، على ما أعتقد ، أن يلبس خاتم الزواج . »

هتفت كابورالى « آه ، هكذا ! إنك تنأى بالحديث ببراعة . »

« كيف ! وأنا أريد أن أتعمق فيه ! »

« تتعمق فيه! أنا لا أتعمق فى شىء إطلاقا . لقد جاءنى هذا الانطباع ، وكفى . »

« أنى أرمل ؟ »

« نعم يا سيدى ، ألا يبدو لك أنت أيضا ، يا أدريانا ، أن السيد مايس تبدو عليه سمات الأرمل ؟ »

حاولت أدريانا أن ترفع عينيها نحوى . ولكنها خفضتهما فورا وهى لا تقدر – لخجلها – أن تقاوم نظرة الآخر ؛ وابتسمت بخفة ابتسامتها الحلوة الحزينة المعتادة ، وقالت :

« ماذا تريدين منى أن أعرف أنا عن هيئة الأرامل ؟ إنك غريبة ! »

لابد أن صورة ما قد بزغت فى تلك اللحظة فى ذهنها ، واضطربت ، واستدارت لتنظر النهر الكائن بأسفل . ومن المؤكد أن الأخرى قد أدركت هذا ، لأنها تنهدت واستدارت هى أيضًا لتنظر النهر .

من الواضح أن رابعا غير منظور قد أتى ليكون بيننا . وفى النهاية فهمت أنا أيضا وأنا أنظر " روب " حداد أدريانا ، واستنتجت أن ترنسيو بيبيانو ، زوج أختها الذى كان لايزال فى نابولى ، لم تكن تبدو عليه أمارات الأرمل المتأثر ، وأن هذه الأمارات بالتالى كانت ، حسب الآنسة كابورالى ، تظهر علىّ أنا .

أعترف أنى استسغت أن تنتهى تلك المحادثة هذه النهاية السيئة . فالألم الذى ألمّ بأدريانا لتذكر أختها المتوفاة وبيبيانو الأرمل ، كان فى الحقيقة هو العقاب الذى وقع على كابورالى بسبب عدم تحفظها .

إنما إذا أردنا الإنصاف ، ألم يكن ما بدا لى تطفلا ، هو فى واقع الأمر فضول طبيعى يمكن أن نلتمس له الأعذار ، لأنه كان نتيجة حتمية لذلك الصمت الغريب الذى كان يحيط بشخصى ؟ ولما كانت الوحدة قد صارت بالنسبة لى غير محتملة ، ولم أكن قادرًا على مقاومة الرغبة فى الاقتراب من الآخرين فإنه كان على أن أرد ، راضخًا ، على أسئلة الآخرين هؤلاء ، الذين كان من حقهم تماما أن يعلموا مع من يتعاملون ، أى أن أرد عليهم بأفضل طريقة ممكنة ، بأن أكذب وأن أختلق ؛ لم يكن هناك طريق وسط ! الذنب ليس ذنب الآخرين، كان ذنبى أنا؛ ولسوف أزيد الأمر سوءا الآن بالكذب؛ ولكن إن لم أكن أريد هذا ، وإن كان يسبب لى المعاناة ، فعلى أن أترك المكان ، وأستأنف تشردى وحيداً ومنغلقا على نفسى .

كنت ألاحظ أن أدريانا نفسها ، التى لم تكن توجه لى أبدا أى سؤال غير متحفظ كانت كلها آذانًا صاغية لإجاباتى على أسئلة كابورالى ، والتى كانت فى الحقيقة تتجاوز كثيراً حدود الفضول الطبيعى الذى يمكن التغاضى عنه .

فى إحدى الأمسيات ، على سبيل المثال ، سألتنى فى الشرفة التى كنا نجتمع فيها الآن عادة عند عودتى من العشاء ، سألتنى وهى تضحك وتحتمى بأدريانا التى كانت تصرخ فيها هائجة : « لا ، ياسيلڤيا ، أمنعك عن هذا ! لا تحاولى! » وسألتنى :

« معذرة يا سيد مايس ، تريد أدريانا أن تعرف لماذا لا تدع شاربك ينمو .. »

صاحت أدريانا « ليس هذا حقيقى ! لا تصدقها ، يا سيد مايس ! – على العكس، إنها هى ، أما أنا ... »

وانفجرت باكية فجأة ، الأم الغالية . وفى الحال حاولت كابورالى أن تخفف عنها قائلة لها :

« لا ، على كل ! ما دخل هذا ! ما الخطأ فى هذا ؟ »

دفعتها أدريانا بكوعها :

« الخطأ هو أنك كذبت ، وتغضبيننى ! كنا نتحدث عن ممثلى المسرح وكلهم ... هكذا ، وعندئذ قلت أنت : « مثل السيد مايس ! من يدرى لماذا لا يطلق شاربه على الأقل ؟ .. » ، وكررت أنا: «نعم، من يدرى لماذا ! .. » »

استأنفت كابورالى « حسنًا، من يقول «من يدرى لماذا» ، يعنى أنه يريد أن يعلم! »

واعترضت أدريانا ، وهى فى قمة غضبها « ولكنك قلت هذا أنت أولاً ! . »

سألت أنا لكى أعيد الهدوء « هل أستطيع الإجابة ؟ »

قالت أدريانا وهى تنهض للانصراف « لا ، معذرة ، يا سيد مايس : مساء الخير! »

ولكن كابورالى أمسكتها من ذراعها واستوقفتها :

« كفى ، كم أنت عبيطة ! إن هذا مزاح ... إن السيد أدريانو طيب جداً لدرجة أنه يسامحنا.

أليس كذلك ، ياسيد أدريانو ؟ قل لها أنت – لماذا لا تطلق على الأقل شاربك . »

ضحكت أدريانا فى هذه المرة ، وعيناها لاتزالان مغرورقتين بالدموع .

عندئذ أجبت أنا ، وأنا أغير صوتى لتصبح نغمته هزلية « لأن هناك سرًّا . أنا شريك فى مؤامرة ! »

صاحت كابورالى بنغمتى نفسها « نحن لا نصدق ! » ولكنها أضافت « ولكن ، اسمع : أن تكون متحفظا ، فهذا مالا تستطيع أن تنفيه . ولكن لماذا ذهبت بعد الغداء ، على سبيل المثال ، إلى مكتب البريد ؟ »

« أنا ، فى مكتب البريد ؟ »

« نعم يا سيدى ، هل تنكر ؟ لقد رأيتك بعينى . فى حوالى الرابعة ... كنت مارة بميدان سان سيلفسترو .. »

« ربما اختلط عليك الأمر ، يا آنسة ، لم أكن أنا . »

قالت كابورالى وهى لا تصدق « نعم ، نعم ، مراسلات سرية ... لأنه ، أليس هذا حقيقيًا يا أدريانا ؟ لا تصله أية خطابات بالمنزل ، هذا السيد . قالت لى هذا الخادمة ، انتبه ! »

تململت أدريانا على المقعد متضايقة .

قالت لى، وهى توجه لى نظرة تنم عن الألم، نظرة ساحرة أو تكاد« لا تعرها اهتمامًا. »

أجبت أنا « لا بالمنزل ، ولا بمكتب البريد . هذه هى الحقيقة مع الأسف ! لا يكتب لى أحد، يا آنسة ، لسبب بسيط وهو أنه لم يعد لى أحد يمكنه أن يكتب لى . »

« ولا صديق ؟ هل هذا ممكن ؟ لا أحد ؟ »

« لا أحد . ليس فوق سطح الأرض سوانا ، أنا وظلى . لقد اصطحبته معى هذا الظل ، للتنزه هنا وهنالك باستمرار ، ولم أتوقف أبدا طويلا ، حتى الآن ، فى مكان ما حتى يمكننى أن أعقد صداقة دائمة . »

صاحت كابورالى ، وهى تتنهد « يا لسعادتك ، فقد استطعت أن تسافر طول حياتك! حدثنا على الأقل عن رحلاتك، إذن، إن كنت لا تريد أن تحدثنا عن أمر آخر . »

شيئًا فشيئًا ، وبعد أن تخطيت صخور الأسئلة المحرجة الأولى ، وتحاشيت صخورا أخرى بمجدافى الكذب اللذين كنت استخدمهما كرافعة ودعامة ، وأنا أتعلق تقريبا بيدى الاثنتين معا بالصخور التى كانت تضيّق على عن قرب ، لكى أتحاشاها رويدا رويدا فى حذر، استطاع قارب وهمى فى النهاية أن ينطلق نحو العمق وأن أرفع شراع الخيال .

وهأنذا ، بعد عام ونصف من الصمت القسرى ، أشعر برضا كبير وأنا أتكلم ، وأتكلم كل مساء ، هنالك فى الشرفة ، عما رأيت ، وما لاحظت ، وعن الأحداث التى وقعت لى هنا وهناك . كنت مندهشا أنا نفسى من أنى أخذت ، خلال ترحالى ، انطباعات كثيرة ، دفنها الصمت بداخلى تقريبا ، والآن فإنها كانت تقوم وأنا أتكلم وتنطلق حية من شفتى . كان هذا العجب الداخلى يكسو بألوان عجيبة قصى ؛ ثم من السرور الذى كانت المرأتان تبديان إحساسهما به وهما تنصتان إلى ، نشأت رويدا رويدا حسرتى على خير لم أستمتع به حقيقة عندئذ ؛ وكانت حكايتى تكتسب الآن مذاق هذه الحسرة .

بعد عدة أمسيات تغير موقف الآنسة كابورالى وقسماتها تغيرا جذريا تجاهى . فقد ثقلت عيناها المتألمتان بأسى عميق عمقا يستدعى أكثر من ذى قبل صورة مثقال الرصاص الداخلى ، وأكثر من ذى قبل بدا التناقض بينهما وبين وجهها ، الذى يشبه قناع الكرنفال ، مضحكا . لم يكن هناك شك : لقد أغرمت بى الآنسة كابورالى .

من المفاجأة المضحكة التي شعرت بها ، لاحظت أنى ، فى هذه الأمسيات كلها ، لم أوجه كلامى لها أبداً ، وإنما إلى الأخرى التى ظلت دوما صامتة صاغية . ولكن من الواضح أن الأخرى هذه قد شعرت كذلك بأنى كنت أتكلم من أجلها فقط . فقد جرى بيننا فورا وكأنه اتفاق ضمنى أن نأخذ بالاستمتاع معا بأثر أحاديثى الهزلى غير المتوقع على أوتار مشاعر معلمة البيانو الحساسة ذات الأربعين ربيعًا .

ولكن ، مع هذا الاكتشاف ، لم يخطر بداخلى إلا كل فكر طاهر نحو أدريانا، فما كانت طيبتها الناصعة تلك ، التى تنضح بالحزن ، بقادرة على الإيحاء بغير هذا ؛ ولكنى كنت أشعر بسعادة غامرة بتلك الألفة الأولى التى كان يسمح لها بها خجلها كمًا وكيفًا . كانت نظرة عابرة مثل ومضة ومنّة شديدة الحلاوة ؛ كانت ابتسامة إشفاق على إغراء تلك المرأة المسكينة إغراء مضحكًا ؛ كانت دعوة رقيقة تشير بها إلىّ بعينها وبحركة لطيفة من رأسها ، لو أنى أفرطت قليلاً ، حتى نلهو سرًا ، فى إعطاء خيط من الأمل لطائرة تلك المرأة ، التى كانت تنطلق فى سماوات السعادة ، ولكنها ، تنحو نحوًا أخر إذا ما جذبت الخيط جذبًا عنيفًا مفاجئًا .

قالت لى كابورالى ذات مرة : لابد أنك بلا قلب ، إذا كان ما تقوله حقًا وهو مالا أصدق ، أقصد أنك قد قضيت حياتك حتى الآن سليما لم تصب .

« سليما ؟ كيف ؟ »

« نعم ، أقصد بدون أن تقع فى الهوى . »

« آه ، أبدًا ، يا آنسة ، أبدًا ! »

« ولكنك لم ترد أن تقول لنا من أين أتاك ذلك الخاتم الذى جعلت الصائغ يقطعه لأنه كان يضغط بشدة على إصبعك . »

« وكان يؤلمنى ! ألم أقل لك هذا ؟ طبعًا ! كان تذكارًا من جدى ، يا آنسة . »

« هراء ! »

« كما تريدين ؛ ولكنى أستطيع أيضا أن أقول لك إن جدى كان قد أهدانى هذا الخاتم فى فلورنسا ، فى أثناء خروجه من متحف أوفيتسى أتعلمين لماذا ؟ لأنى، وكنت أنذاك فى الثانية عشرة من عمرى ، قد نسبت إحدى لوحات بيروچينو إلى رفاييلو . نعم هكذا . ولكى يكافئنى على هذا الخطأ حصلت على الخاتم الذى اشتراه من أحد محال بونتى ڤيكيو. كان الجد فى الواقع يعتقد تمام الاعتقاد ، ولا أعلم ماهية أسبابه ، أن لوحة بيروچينو تلك يجب أن تنسب على العكس إلى رفاييلو . هاهو تفسير السر ! ويمكن أن تدركى الفرق بين يد صبى فى الثانية عشرة ويدى الضخمة هذه . أترين الآن أنا كلى هكذا ، مثل هذه اليد الضخمة التى لا تتحمل خواتم أنيقة . ربما لى قلب ؛ ولكنى كذلك إنسان منصف ، يا آنسة ؛ أنظر إلى نفسى فى المرآة ، بهذه النظارة التى قد تثير الشفقة ، وأشعر بالإحباط ، وأقول لنفسى : كيف تستطيع أن تدعى ، ياعزيزى أدريانو ، أن تحبك امرأة ؟ . »

صاحت كابورالى « يا لها من أفكار ! أتعتقد أنك منصف وأنت تقول هذا ؟ إن هذا، على العكس ، ظلم بيّن ، لنا نحن النساء . لأن المرأة ، ياعزيزى السيد مايس ، واعلم هذا ، أكرم من الرجل ولا تهتم مثله بالجمال الخارجى فقط . »

« فلنقل إذن إن المرأة أشجع كذلك من الرجل ، يا آنسة . لأنى أعترف أنه بالإضافة إلى الكرم يحتاج الأمر إلى جرعة كبيرة من الشجاعة لكى تحب المرأة حقًا رجلاً مثلى . »

« دعك من هذا ! إنك تستعذب أن تقول هذا وأن تجعل من نفسك أقبح مما أنت .»

« هذا حق . أتعلمين لماذا ؟ حتى لا أستثير شفقة أحد . فلو حاولت أن أصلح من شكلى بشكل ما ، سيقولون : « انظر إلى ذلك الرجل المسكين : يتصور أنه يبدو أقل قبحا بشاربه ذاك! » ولكن ، هكذا، لا ، هل أنا قبيح المنظر ؟ إذن ، حسنا قبيح القلب ، بلا رحمة ، ماذا تقولين فى هذا . »

تنهدت الآنسة كابورالى تنهيدة عميقة .

ثم أجابت « أقــول إنك على خطأ . فلو أنك حـاولت على العكس أن تطلق لحـيتك ولو قليلاً، على سبيل المثال، سوف تلاحظ فورا أنك لست ذلك الوحش الذى تتحدث عنه.»

سألتها « وهذه العين ؟ »

قالت كابورالى « آه يا الهى ، ما دامت تتكلم عنها بصراحة ، فإننى كنت أريد أن أقول لك منذ أيام ، معذرة ، لماذا لا تخضع لعملية تجرى بسهولة الآن ؟ يمكنك ، إن أردت ، أن تتخلص فى وقت قصير من هذا العيب البسيط أيضًا . »

اختتمت حديثى « انظرى ، يا آنسة ؟ من الممكن أن تكون المرأة أكرم من الرجل ؛ ولكننى أود أن أنبهك إلى أنك شيئًا فشيئًا نصحتينى بأن أغير وجهى بوجه آخر . »

لماذا كان إلحاحى على هذا الحديث ؟ هل كنت أريد أن تواجهنى المعلمة كابورالى بصــراحـة هناك ، وفى حضــور أدريانا ، بأنها قد تحـبنى ، بل بأنها كانت تحبنى ، كمـا أنا ، حليـقا هكذا وبهذه العـين التى تنظر فى اتجاه آخـر ؟ لا . كنت قد تكلمت كثـيرا ، ووجـهت كل هذه الأسئلة التفصـيلية إلى كـابورالى ، لأنى لاحظت السـرور ، ولعله سرور بلا وعى ، الذى كانت تشعر به أدريانا للإجابات المفحمة التى كانت ترد بها كابورالى .

هكذا أدركت ، رغم مظهرى الغريب ذاك ، أنها تستطيع أن تحبنى . لـم أقل هذا حتى لنفسى ؛ ولكن منذ تلك الأمسيـة وبعدها ، بدا لـى الفراش الذى كنت أشـغله فى ذلك البيت أكثر نعومة وراحة ، وأن الأشياء المحيطة بى كلها أكثر لطفا ، وأن الهواء الذى أستنشقه أكثر خفة ، وأن السماء أكثر زرقة ، والشمس أكثر سطوعا . أردت أن أعتقد أن هذا التغيير لايزال يرجع إلى أن ماتيا باسكال قد انتهى هنالك ، فى طاحونة ستيا ، وإلى أنى – أدريانو مايس – بعد أن جلت لفترة ضائعا فى تلك الحرية الجديدة غير المحدودة ، قد استعدت فى النهاية اتزانى ، ووصلت إلى المثل الذى وضـعته نصب عينى ، أن أجعل من نفسى رجلاً آخر ، لكى أحيا حياة أخرى ، أشعر الآن ، نعم ، بأنها كاملة بداخلى .

واستعادت روحى سعادتها، مثلما كانت فى شبابى الأول، وفقدت سموم التجربة . حتى السيد أنسلمو بلياري لم يعد يبدو لى مملا جداً ؛ فقد انقشع ظل وضباب ودخان فلسفته فى شمس فرحى الجديد ذاك . مسكين السيد أنسلمو ! فمن بين الأمرين اللذين كان عليه – حسب رأيه – أن يفكر فيهما على وجه الأرض ، لم يدرك أنه يفكر فى أمر واحد فقط منهما ، ولكن ربما ! فكر كذلك فى أن يحيا أيامه الجميلة . كانت المعلمة كابورالى هى الأجدر بالإشفاق ، فلم يكن حتى الخمر بقادر على أن يهبها مرح ذلك السكير الذى لا ينسى ، سكير شارع بورجو نوفو ؛ كانت ، المسكينة ، تريد أن تعيش ، وكانت تعد الرجال الذين يهتمون فقط بالجمال الخارجى غير كرماء . فهل كانت تشعر ، فى أعماقها ، وبروحها ، أنها جميلة ؟ أوه من يدرى ماهية وكمية التضحيات التى كانت قادرة عليها حقيقة ، لو أنها وجدت رجلا كريما! ربما لن تعود إلى شرب ولو قيراط واحد من النبيذ .

كنت أفكر « إن اعترفنا أن الخطأ من طبيعة الإنسان ، أفلا تكون العدالة قسوة تفوق قدرة البشر؟» .

وعاهدت نفسى ألا أكون بعد ذلك قاسيا فى مواجهة الآنسة كابورالى المسكينة. عاهدت نفسى على هذا ؛ ولكن ، هيهات ، فقد قسوت عليها دون أن أريد هذا ؛ بل كنت أقسى مما كنت أريد . لقد كانت دماثتى طعما جديداً لنارها سهلة الاشتعال . وعلى كل حال كان هذا يحدث ؛ كانت المرأة المسكينة تشحب لكلماتى بينما كانت أدريانا تتضرّج احمراراً ، لم أكن أعلم تماما ما أقول ، ولكنى كنت أشعر أن كل كلمة ، وصوتها .. والتعبير عنها لم يكن لها تأثير آخر إلا إثارة الاضطراب فيمن كانت الكلمة موجهة إليها ؛ لتكسر التناغم الكامن الذى – ولا أدرى كيف – كان قد توطد بيننا .

للنفوس طريقة خاصة فى التفاهم ، وفى الدخول إلى الحميمية حتى تتخاطب بلا تكلف بينما ترتبك أشخاصنا فى تجارة الكلمات العامة ، وفى عبودية الضرورات الاجتماعية. للنفوس حاجاتها الخاصة ، وتطلعاتها الخاصة ، لا يسلم بها الجسد عندما يرى عدم إمكان تحقيقها وترجمتها إلى واقع . وكلما تواصل اثنان فيما بينهما هكذا ،

تواصلاً بين النفسين فقط، وكلما التقيا وحدهما فى مكان ما ، فإنهما يشعران باضطراب شديد وبنفور عنيف لأى اتصال مادى طفيف ، وبمعاناة تُباعد بينهما ، وتنتهى بمجرد أن يدخل ثالث معهما. وعندئذ وبعد أن ينقشع الضيق، وترتفع المعنويات، تبحث كل نفس منهما عن الأخرى وتعود كل منهما للابتسام للأخرى من بعيد .

كم من مرة اختبرت هذا مع أدريانا ! ولكن الارتباك الذى شعرت به كان بالنسبة لى عند ذاك نتيجة لتحفظها الطبيعى ولحياء طبعها ، وكان ارتباكى على ما أعتقد ، ناجما عن الندم الذى كان يسببه لى الإيهام ، الإيهام المستمر بكيانى ، وذلك الإيهام الذى كنت مجبرا عليه فى مواجهة صفاء تلك المخلوقة الحلوة الوديعة وبراءتها .

كنت أراها بعينين أخريين ، ولكن ، ألم تتغير هى حقيقة منذ شهر وحتى الآن ؟ ألا تلمع نظراتها الشاردة بنور داخلى أكثر إشراقًا ؟ ألا تنم ابتساماتها الآن عن جهد أقل إيلاما من الجهد الذى كان يكلفها إياه تصرفها كأم صغيرة عاقلة ، ذلك التصرف الذى بدا لى فى البداية تصنعا وتكلفًا ؟

بلى ، ولعلها هى أيضا كانت ترضخ غريزيا لحاجتى نفسها ، للحاجة إلى توهم حياة جديدة ، دون أن تريد معرفة ماهيتها أو كيفيتها. رغبة مبهمة ، مثل نسيم النفس، كانت قد فتحت لها رويدا رويدا مثلما فتحت لى ، نافذة على المستقبل ، يأتى علينا منها شعاع له دفء النشوة ، نحن اللذين ما كنا نعرف الاقتراب من تلك النافذة لإغلاقها أو لنرى ماذا بخارجها .

كانت الآنسة كابورالى تستشعر نشوتنا النقية الحلوة .

قلت لكابورالى ذات ليلة : أوه هل تعلمين ، يا آنسة ، أنى تقريبا قد قررت أن أتبع نصحيتك ؟

سألتنى هى « أية نصيحة ؟ »

« أن يجرى لى أحد أطباء العيون العملية . »

صفقت كابورالى بيديها ، وكلها سعادة .

« آه ! حسن جداً ! الدكتور أمبروزيني ! اطلب أمبروزيني ؛ إنه أمهر الأطباء ؛ أجرى عملية الكتراكت لأمي المسكينة. أترين ؟ أترين ، يا أدريانا ، إن المرآة قد أقنعته؟ ماذا قلت لك أنا ؟ »

« ابتسمت أدريانا ، وابتسمت أنا أيضاً . »

ولكنى قلت : « ليست المرآة ، يا آنسة . إنها الضرورة . منذ بعض الوقت وحتى الآن تؤلمنى عينى ، إنها لم تخدمنى أبدا خدمة جيدة ؛ ومع ذلك فلا أريد أن أفقدها . »

لم تكن هذه هى الحقيقة، كان الحق معها، الآنسة كابورالى: المرآة، المرآة حدثتنى، وقالت لى إذا كانت عملية بسيطة نسبيا يمكنها أن تخفى من وجهى تلك العلامة القبيحة المميزة لماتيا باسكال ، فإن أدريانو مايس يمكنه التخلص من النظارة الزرقاء ، وأن يسمح لنفسه بإطلاق شاربه وأن يتوافق عموما ، وبقدر الإمكان ، جسديا مع التغيرات التى طرأت على ظروفه الروحية .

بعد أيام قليلة ، رأيت مشهدا ليليا وأنا مختبىء خلف إحدى نوافذ حجرتى ، أثار اضطرابى فجأة .

جرى المشهد فى الشرفة المجاورة التى مكثت فيها حتى العاشرة تقريبا مع المرأتين. وبعد أن عدت إلى غرفتى أخذت ، وأنا فى شرود ، فى قراءة أحد كتب أنسلمو المفضلة ، عن « تناسخ الأرواح » فى لحظة ما بدا لى أنى أسمع أحدا يتكلم فى الشرفة ، أرهفت السمع حتى أتأكد إن كانت أدريانا بالشرفة . لا . كان هناك اثنان يتحدثان حديثا ثائرا بصوت خفيض ، كنت أسمع صوت رجل، ولم يكن صوت بليارى، ولكن فى البيت لم يكن هناك رجال سوانا . هو وأنا . ثار فضولى ، فاقتربت من النافذة لأنظر من فتحات خشبها . فى الظلام بدا لى أنى أستطيع تمييز الآنسة كابورالى . ولكن من كان ذلك الرجل الذى كانت تتكلم معه ؟ هل وصل ترنسيو بيانو فجأة من نابولى ؟

من كلمة نطقتها كابورالى بصوت أقوى قليلاً أدركت أنهما يتحدثان عنى . اقتربت أكثر من النافذة وأرهفت السمع بشكل أكبر . كان ذلك الرجل يبدى غضبه من الأخبار التى نقلتها له عنى بكل تأكيد معلمة البيانو ؛ وها هى الآن كانت تحاول تخفيف الانطباع الذى أحدثته تلك الأخبار فى نفس ذلك الرجل .

سألها هو ، فى لحظة معينة « هل هو غنى ؟ »

وردت كابورالى :

« لا أعلم . يبدو هذا ! من المؤكد أنه يعيش بما يملك ، بدون أن يعمل شيئًا ... »

« هل يبقى فى البيت دائمًا ؟ »

« طبعًا لا ؛ ثم إنك ستراه غداً . »

قالت هذا بالضبط : ستراه ، إذن فهى تخاطبه بلا تكلف ؛ إذن كان ببيانو (ولم يعد هناك شك) عشيق الآنسة كابورالى.. وكيف إذن أظهرت – طوال تلك الأيام – أنها متعاطفة معى .

صار فضولى أكبر مما كان ، ولكن الاثنين وكأنهما يفعلان هذا عن قصد أخذا يتحدثان بصوت خفيض جداً . ولما لم أعد أستطيع التقاط شىء بأذنى فقد حاولت أن أستعين بعينى. وإذا بى وقد رأيت كابورالى تضع يدها على كتف ببيانو . وبعد قليل دفعها هو بفظاظة .

قالت وقد رفعت صوتها شيئًا ما بغيظ شديد « ولكن كيف كان يمكننى أنا أن أمنعه ؟ من أنا؟ ومن أكون أنا فى هذا البيت ؟ »

عندئذ أمرها ببيانو بلهجة متسلطة « استدع أدريانا ! »

عندما سمعته ينطق باسم أدريانا بهذه النغمة ، ضممت قبضتىّ وشعرت بالدم يغلى فى عروقى .

قالت كابورالى « إنها نائمة . »

فرد عليها مهددا وفى تجهم :

« اذهبى لإيقاظها ! حالا ! »

لا أدرى كيف تماسكت عن فتح النافذة على مصراعيها غضبا .

كان للجهد الذى بذلته لأكبح نفسى أثره فى استعادة صوابى للحظة . والكلمات نفسها التى نطقتها لتوها بغيظ شديد تلك المرأة المسكينة جاءت على شفتى: « من أنا ؟ ومن أكون أنا فى هذا البيت ؟» .

انسحبت من عند النافذة. ولكن أسعفنى العذر بأنى كنت موضوع الحديث هنالك. كان هذان الاثنان يتحدثان عنى ، وكان ذلك الرجل يريد أن يتحدث عنى كذلك مع أدريانا ! كان يجب أن أعلم ، وأعرف مشاعر ذلك الرجل نحوى .

ولكن السهولة التى قبلت بها هذا العذر لأقترف هذا العمل غير اللطيف بأن أتلصص وأتسمع وأنا مختبىء هكذا ، جعلتنى أشعر وأحس أنى أضع مصلحتى الخاصة قبل كل شىء ، حتى أمتنع عن أن أعى ما كانت تثيره أخرى فىّ من مشاعر فياضة فى تلك اللحظة.

عدت لأنظر من خلال فتحات خشب النافذة .

لم تكن كابورالى فى الشرفة . أما الآخر فقد أخذ ينظر إلى النهر بعد أن صار وحده ، وهو يستند بكوعيه على السور ورأسه بين يديه .

فى قلق جنونى انتظرت ، منحنيا وأنا أقبض بقوة بيدىّ على ركبتى ، أن تظهر أدريانا فى الشرفة . لم يتعبنى الانتظار الطويل إطلاقًا ، بل إنه أراحنى رويدا رويدا ، ومنحنى رضا حقيقيا متناميا ؛ فقد تصورت أن أدريانا من هنالك لم تشأ الرضوخ لجبروت ذلك الجلف . ولعل كابورالى كانت ترجوها وقد ضمت يديها . وها هو ذا هناك فى الشرفة يتميز غضبًا . تمنيت فى لحظة ما أن تأتى المعلمة لتقول له إن أدريانا لم تشأ أن تقوم . ولكن لا : ها هى !

ذهب ببيانو فوراً نحوها .

وأمر الآنسة كابورالى بحزم : اذهبى أنت للفراش . دعينى أتحدث مع أخت زوجتى . أطاعته تلك ، وعندئذ هم ببيانو ليغلق الباب الكائن بين قاعة الطعام والشرفة . قالت أدريانا وهى تضع ذراعها مقابل الباب : « لا أبداً ! »

غضب زوج الأخت بطريقة فظة ، وهو يحاول أن يتكلم بصوت خفيض « ولكن عندى ما أقوله لك ! »

استطردت أدريانا « تكلم هكذا ! ماذا تريد أن تقول لى ؟ كان يمكنك الانتظار حتى الغد . »

أجابها وهو يقبض على ذراعها ويجذبها نحوه « لا ! الآن ! »

صاحت أدريانا وهى تتخلص منه بحزم « عموماً! »

لم أستطع التحمل أكثر من هذا : فتحت النافذة.

ونادت هى فى الحال « أوه ! يا سيد مايس ! هل يمكنك المجىء هنا قليلاً ، إن لم يضايقك هذا ؟ »

أسرعت بالرد « ها أنذا ، يا آنسة ! »

قفز قلبى فى صدرى فرحًا وعرفانًا بالجميل ، وبقفزة صرت فى الطرقة ، ولكنى هنالك، بالقرب من باب حجرتى ، وجدت شابًا نحيفًا ، أشقرَ ، ذا وجه طويل جداً ، شاحبًا يفتح بعناء عينيه الزرقاوين الذابلتين الذاهلتين ، قابعا ملتويًا كالثعبان فوق صندوق، توقفت لحظة للمفاجأة أنظر له؛ فكرت أنه شقيق ببيانو ، وجريت إلى الشرفة .

قالت أدريانا « أقدم لك ، يا سيد مايس ، زوج أختى ترنسيو ببيانو ، وصل الآن من نابولى . »

هتف ببيانو وهو يظهر أمامى ويتصنع التبجيل ، ويضغط على يدى بحرارة «سعيد بمعرفتك ومحظوظ لرؤيتك! ويؤسفنى أنى بقيت طوال هذا الوقت غائبًا عن روما؛

ولكنى متأكد أن الأخت الصغرى لزوجتى قد قامت بكل شىء ، أليس كذلك ؟ إن كان ينقصك شىء ، قل ، قل كل شىء! إن كنت مثلاً، فى حاجة إلى مكتب أكبر . أو إلى أى شىء آخر ، قل بلا تردد – نحن يسعدنا أن نلبى احتياجات ضيوفنا الذين يشرفوننا .

قلت أنا « شكرًا ، شكرًا ، لا ينقصنى أى شىء ، شكرًا . »

« هذا واجبنا ، ولاحاجة للشكر. اطلب منى كل ما تحتاج إليه، وأنا فى خدمتك .. يا أدريانا، كنت تنامين يا بنيتى ، عودى إلى الفراش ، إن أردت ... »

قالت أدريانا « إيه ، عمومًا ، الآن وبعد أن قمت ... »

واقتربت من السور لتنظر إلى النهر .

شعرت أنها لا تريد أن تتركنى وحدى معه . مِمَّ تخاف ؟ ظلت هنالك مستغرقة ، بينما كان الآخر ، ومازالت القبعة فى يده ، يكلمنى عن نابولى ، حيث اضطر للبقاء وقتا أطول مما كان يتوقع ، لكى ينسخ عدداً كبيراً من وثائق المحفوظات الخاصة بصاحبة السعادة الدوقة السيدة تريزة رفسكييرى فييسكى : ماما الدوقة ، كما كان يدعوها الجميع ، وماما الرحمة ، كما كان يريد أن يدعوها هو، وثائق ذات قيمة نادرة ، سوف تلقى ضوءاً جديداً على نهاية مملكة الصقليتين ، وعلى وجه التحديد على شخصية جايتانو فيلانجييرى ، أمير ساتريانو ، الذى يريد المركيز چيليو ، دون إينيانسيو چيليو داوليتا ، الذى كان ببيانو يعمل سكرتيراً له ، أن يلقى الضوء على حياته بشكل مفصل وصادق . سيرة حياة صادقة على الأقل بمقدار ما يسمح به للسيد المركيز إخلاصه ووفاؤه للبربون .

ولم يتوقف عن الحديث . كان يستمتع بكل تأكيد بفصاحته ، وكان يكسو صوته ، وهو يتكلم ، بترخيم ممثل خبير ، وكان يطلق ضحكة هنا ويأتى بحركة معبرة هناك . بقيت مشدوها، كنت كالسندان ، وكنت أوافقه بين الفينة والأخرى بإيماءة من رأسى ، وكنت بين الفينة والفينة أتوجه بنظرى نحو أدريانا التى كانت عاكفة هنالك على النظر إلى النهر .

قال ببيانو بصوت أجش مختتما حديثه « هه ، للأسف ! إن المركيز چيليوداوليتا نصير للبربون وللإكليروس ! وأنا ، أنا الذى (ينبغى على أن أقولها بصوت خفيض ، حتى هنا، فى بيتى) وأنا الذى أرفع يدى كل صباح ، قبل مغادرة البيت ، بالتحية لتمثال غاريبالدى فوق الچانيكولو (هل رأيته ؟ من هنا يظهر واضحًا جليًا) ، وأنا الذى أود الهتاف فى كل لحظة: "يحيا ٢٠ سبتمبر[١] !" أجد نفسى مضطرًا للعمل سكرتيرًا له ! رجل فاضل هو ، ولاشك ! لكنه نصير للبربون والإكليروس . نعم يا سيدى - أكل العيش ! أقسم لك إنى فى كثير من المرات تواتينى الرغبة فى البصق عليه ، معذرة ! ولكن تبقى الغصة فى حلقى ، لتخنقنى - ولكن ماذا أستطيع أن افعل ؟ أكل العيش ! أكل العيش !

هز كتفيه مرتين ، ورفع ذراعيه وضرب فخذيه .

ثم قال وهو يمضى نحو أدريانا ويمسك وسطها بيديه برفق « هيا ، يا أدريانا يا مسكينة! إلى الفراش ! تأخر الوقت ! لابد أن السيد يريد النوم . »

أمام باب غرفتى ضغطت أدريانا على يدى بقوة ، كما لم تفعل أبدا حتى ذلك الوقت . وبعد أن بقيت وحدى احتفظت بقبضة يدى مضمومة وقتا طويلا ، وكأنى أريد أن أحتفظ بضغطة يدها . ظللت تلك الليلة كلها أفكر ، وأتخبط بين أفكار مضطربة ومستمرة . كان رياء الحفاوة والإذعان الثرثار الإيعازى ، وعداء ذلك الرجل سيجعل إقامتى بكل تأكيد غير محتملة فى هذا البيت الذى كان يريد أن يفرض عليه بلا شك طغيانه مستغلا طيبة حميه . من يدرى ما هى فنونه التى سيلجأ إليها ! لقد أذاقنى لونا منها عندما تغير فجأة بمجرد ظهورى. ولكن لماذا كان غير راض عن سكنى فى ذلك البيت ؟ لماذا لم أكن أنا بالنسبة له ساكنًا مثل غيرى ؟ وماذا قالت له كابورالى عنى؟ هل من الممكن أن يكون غيورا على أدريانا ؟ أم كان غيورا على غيرها ؟ وسلوكه الوقح المرتاب ؛ وطرده لكابورالى لكى يبقى وحده مع أدريانا، التى أخذ يتحدث إليها

---

(١) ٢٠ سبتمبر هو تاريخ دخول القوات الإيطالية روما البابوية (المترجم) .

بعنف شديد ؛ وتمرّد أدريانا ؛ وعدم سماحها له بغلق الباب ؛ والانزعاج الذى كان يصيبها كلما أشار أحد إلى زوج أختها الغائب ، كلّ هذا كان يؤيد شكّي البغيض ، أنه كان له مأرب فيها .

حسنا ولماذا أغضب كل هذا الغضب ؟ أما كان يمكننى فى النهاية أن أترك ذلك البيت، إذا ما ضايقنى ذلك الرجل ولو مضايقة بسيطة؟ ما الذى كان يمنعنى عن هذا ؟ لا شىء . ولكنى كنت أتذكر برضا ملىء بالحنان أنها نادتنى من الشرفة ، وكأنها تطلب حمايتى لها ، وأنها فى النهاية ضغطت بقوة على يدى .

تركت مصراع النافذة ، وخشبها مفتوحين . وفى لحظة محددة ظهر القمر ، وهو يغيب ، من فتحة نافذتى ، وكأنه يريد أن يرقبنى ويباغتنى وأنا مازلت مستيقظا فوق فراشى ، ليقول لى :

« لقد فهمت ، ياعزيزى ، فهمت ! وأنت ، ألم تفهم ؟ حقيقة ؟ »

(١٢)

العين وببيانو

جاء السيد أنسلمو بلياري ليخبرني « مأساة أورست في مسرح صغير للعرائس ! عرائس آلية ، مخترعة حديثًا . الليلة في الساعة الثامنة والنصف ، بشارع بريفتي رقم أربعة وخمسين . تستحق أن تذهب لمشاهدتها ، ياسيد مايس . »

« مأساة أورست ؟ [١] »

« نعم ، يقول الإعلان . قبل سوفوكليس . لعلها مسرحية إلكترا . والآن اسمع هذا الأمر الغريب الذي خطر بفكري ! إذا ما حدث في لحظة الذروة ، عندما تكون العروسة التي تقوم بدور أورست على وشك الانتقام لموت أبيه من أجيستو وأمه ، أن تمزقت سماء المسرح المصنوعة من الورق ، ماذا سيحدث ؟ قل أنت . »

أجبته وأنا أضم كتفيّ : « لا أدري . »

« ولكنه أمر سهل جدًا ، ياسيد مايس ! سيرتبك أورست ارتباكًا مروعًا من ذلك الثقب في السماء . »

« ولماذا ؟ »

« دعني أقل لك ، سيشعر أورستي بدوافع الثأر ، ويريد أن يتبعهما برغبة شديدة ، ولكن عينيه ، في تلك اللحظة تتجهان عفوا نحو هذا الثقب ، الذي ستتغلغل

---

(١) مأساة أورست ، المقصود بها كما سيظهر مسرحية إلكترا لسوفوكليس (المترجم) .

منه مؤثرات الشر كلها إلى المشهد ، وعندئذ يصيبه اليأس . ويتحول أورست عند ذاك إلى هاملت ، إن الاختلاف كله ، ياسيد مايس ، بين المأساة القديمة والحديثة يكمن فى هذا ، صدقنى : فى ثقب بالسماء الورقية . »

وانصرف يضرب بشبشبه على الأرض .

كان السيد أنسلمو كثيرا ما يترك أفكاره تسقط هكذا من قمم شروده السحابية مثل الكتل الثقيلة . أما منطقها وروابطها ومناسبتها فكانت تبقى فى الأعالى ، بين السحب ، بحيث لا يستطيع من يستمع إليه أن يفهم شيئًا .

ظلت صورة عروسة أوريست التى أصابها ثقب السماء بالارتباك عالقة مع هذا بذهنى مدة طويلة . وفى لحظة معينة تنهدت : « يالسعادة العرائس التى تعلو رؤوسها الخشبية سماء وهمية بلا ثقوب ! فلا حيرة تجلب القلق ، ولا تحفظ ، ولا سقوط ، ولا ظلال ولا شفقة : لا شيء ! ويمكنها أن تنكبّ بمهارة على ملهاتها وتتلذذ بها ، وأن تحب ، وأن تحتفظ باعتبارها وقدرها ، دون أن تعانى أبدا من دوار أو دوخة ، لأن تلك السماء ، بالنسبة لطولها ولأعمالها، سقف متناسب .

واستمر تفكيرى : « ونموذج هذه العرائس ، ياسيد أنسلمو ، موجود فى بيتك ، وهو زوج ابنتك غير الكريم ، ببيانو . من أكثر منه رضاء بالسماء الورقية ، المنخفضة، المنخفضة، التى تعلوه ، المسكن الهادىء المريح لذلك الرب الذى تضرب به الأمثال ، ذى الأكمام الواسعة ، الذى يغلق عينيه ويرفع يده بالصفح والمغفرة ؛ ذلك الرب الذى يكرر ناعسًا عند كل زلة : أعن نفسك ، لأعينك ، ويعين ببيانو نفسه بالطرق كلها . فالحياة بالنسبة له لعبة قدرات . وكم من المتعة يشعر بها عندما يشترك فى كل مكيدة ؛ فيصبح خفيفا وخلاقا وثرثاراً ! » .

كان ببيانو فى الأربعين من عمره تقريبا ، وكان طويل القامة قوى الأطراف ، كان أصلع إلى حد ما . له شاربان كثيفان خطهما الشيب تحت أنفه ، أنفه الكبير الجميل الذى يرتجف منخراه ، وكانت عيناه رماديتين ، وثاقبتين ، ومتوترتين كيديه . كان يرى

كل شىء ويلمس كل شىء . فبينما كان يتكلم معى ، على سبيل المثال ، كان يلاحظ - ولا أعلم كيف - أن أدريانا ، من خلفه ، كانت تجتهد في تنظيف شىء معين وترتيبه فى الحجرة ، وفى الحال كان ينطلق كالصاعقة .

« عفواً ! »

كان يجرى نحوها . وينتزع الشىء من يديها :

« لا ، يا بنيتى ، انظرى ، هكذا ! »

وكان ينظفه هو ، ويضعه فى مكانه ثم يعود إلى . أو كان يلاحظ أن أخاه ، الذى يعانى من تشنجات مرض الصرع ، يفقد وعيه ، فيجرى ليلطمه لطمتين على وجهه ويقرص أنفه :

« ياشبيونى ، ياشبيونى ! »

أو كان ينفخ فى وجهه حتى يفيق .

من يدرى مقدار المتعة التى كنت سأشعر بها لو لم أكن حساسا هذه الحساسية الملعونة! من المؤكد أنه لاحظ هذا منذ الأيام الاولى ، أو خمن هذا على الأقل . بدأ حصاراً كثيفاً من المبالغة فى الاهتمام بى ، ليجذبنى للتكلم . كانت كل كلمة يتفوه بها، وكل سؤال يطرحه وإن كان أكثر الأسئلة وضوحا ، يبدوان لى وكأنهما يخفيان لى شركًا . ولم أكن أريد أن أظهر أية ريبة حتى لا أزيد من شكوكه ، ولكن الاضطراب الذى كان يسببه لى بهيئته كظالم خدوم ، كان يمنعنى من إخفاء ريبتى هذه إخفاءً جيداً .

وكان لاضطرابى سببان آخران داخليان وسريّان . كان السر الأول هو هذا : أننى دون أن اقترف أفعالا سيئة، ودون أن أفعل شرا لأحد ، كان على أن أنظر هكذا ، أمامى وخلفى ، خائفًا ومرتابًا ، وكأنى فقدت الحق فى أن أعيش فى سلام . والسبب الآخر ، لم أكن أريد الاعتراف به لنفسى ، ولهذا بالذات كان يؤرقنى بشكل أقوى ، بداخلى . وكنت أقول لنفسى :

" يا أبله ، امض من هنا ، وتخلص من ذلك المزعج ! "

وكنت لا أمضى ؛ وما كنت قادراً على الانصراف .

كان صراعى مع نفسى ، حتى لا أعى ما أشعر به نحو أدريانا ، يمنعنى آنذاك من التفكير فى عواقب ظروف وجودى غير الطبيعى فى مقابل هذا الشعور . وكنت باقيا هنالك ، مترددا وثائراً فى عدم رضائى عن نفسى ، بل وفى اضطراب مستمر ، ولكنى كنت مبتسما خارجيًا .

لم يكن قد اتضح لى بعد ما حدث أن اكتشفته فى تلك الليلة ، مختفيًا خلف النافذة . كان يبدو أن الانطباع السيء الذى أخذه ببيانو عنى من أخبار الآنسة كابورالى ، قد انمحى فور تعارفنا . نعم كان فى الحقيقة يزعجنى ، وكأنه لا يستطيع أن يقلع عن هذا؛ وبكل تأكيد لم يكن هذا بناء على خطة سرية ليدفعنى إلى ترك المكان؛ بل ، على العكس تماما! ماذا كان يدبر ؟ كانت أدريانا ، بعد عودته ، قد صارت حزينة ومتحفظة ، مثلما كانت فى الأيام الأولى . وكانت الآنسة سيلفيا كابورالى تخاطب ببيانو بصيغة الاحترام ، على الأقل فى وجود الآخرين ، ولكن ذلك المتبجح الكبير كان يخاطبها بلا تكلف أمام الجميع ؛ بل وصل به الأمر لدرجة أن يناديها ريا سيلفيا[1]؛ وما كنت أنا أعرف كيف أفسر أساليبه الحميمة والهزلية هذه . حقيقة إن تلك الملعونة لم تكن تستحق احتراما كثيرا بسبب فوضى حياتها ، ولكنها لم تكن تستحق كذلك أن يعاملها رجل لا تربطه بها علاقة قرابة أو مصاهرة بمثل هذه المعاملة.

فى إحدى الأمسيات (وكان القمر بدراً ، منيرا كنور الصباح) رأيتها من نافذتى ، وحيدة وحزينة ، هنالك فى الشرفة حيث لم نعد نلتقى إلا نادراً ، وليس بالبهجة التى كنا نلتقى بها سابقًا ، لأن ببيانو كان يشترك فى هذه اللقاءات ، ويتحدث نيابة عنا جميعًا . دفعنى فضولى إلى التفكير فى مفاجأتها فى لحظة هبوط معنوياتها تلك .

---

(١) ريا سيلفيا : عندما أطلق عليها اسم أم رومولو وريمو مؤسس روما ربما أراد الكاتب أن يشير إلى إثمها، ألا وهو علاقة سيلفيا كابورالى مع ببيانو نفسه . لأن ريا Rea ، تعنى كذلك الآثمة (المترجم) .

كالعادة وجدت فى الطرقة وبالقرب من باب حجرتى شقيق ببيانو ملتفًا حول نفسه كالحية فوق الصندوق ، وفى الوضع نفسه الذى رأيته عليه أول مرة . أكان قد اختار لنفسه ذلك المكان مقرًا ، أم أنه كان يقوم بدور الحارس علىّ بأمر من أخيه ؟

كانت الآنسة كابورالى فى الشرفة تبكى . لم تشأ أن تقول لى شيئًا ، فى البداية ؛ شكت فقط من صداع شديد جداً، ثم وكأنها قد اتخذت قرارًا مفاجئًا ، التفتت لتنظر إلى وجهى، ومدت لى يدها وسألتنى :

« هل أنت صديقى ؟ »

أجبتها وأنا أنحنى أمامها « إن كنت تريدين منحى هذا الشرف .. »

« شكرًا ، أرجوك ألا تستخدم معى هذه المجاملات ! لو تعلم مدى حاجتى أنا لصديق ، لصديق حقيقى ، فى هذه اللحظة ! لابد أنك تدرك هذا ، وأنت وحيد فى العالم ، مثلى .. ولكنك رجل ! لو تعلم .. لو تعلم . »

وضعت المنديل ، الذى كانت تمسكه بيدها ، بين أسنانها ، حتى تمنع نفسها من البكاء؛ ولما لم تستطع هذا ، مزقته على مرات ، بغضب شديد .

صاحت « امرأة ، ودميمة، وعجوز ، ثلاث مصائب، لا علاج لها ! لماذا أعيش أنا؟»

رجوتها ، متألما « اهدئى ، لماذا تقولين هذا ، يا آنسة ؟ »

لم أستطع أن أضيف شيئًا .

اندفعت هى ، ولكنها توقفت فجأة : « لأن ... »

شجعتها « تكلمى ، إن كنت فى حاجة إلى صديق . »

رفعت هى المنديل الممزق إلى عينيها و ...

انتحبت فى ضيق عميق وقوى ، حتى أنى شعرت بغصة فى حلقى « أنا أحتاج أكثر ما أحتاج إلى الموت ! »

لن أنسى إطلاقًا الثنية المؤلمة لذلك الفم الذابل السمج وهـو ينطق بتلك الكلمات ، أو رعشة الذقن الذى كانت تلتف فوقه بعض الشعيرات السوداء .

استطردت « حتى الموت لا يريدنى . لا شىء ... معذرة يا سيد مايس ! ما المساعدة التى تستطيع تقديمها لى ؟ لا شىء . أقصى ما تستطيع ، بعض الكلمات ... نعم ... شىء من التعاطف والإشفاق .. إننى يتيمة ، ويجب أن أبقى هنا ، وأن أعامل معاملة الـ ... لعلك أدركت هذا . وليس لهم الحق ! فهم لا يقدمون لى إحسانا .. »

وهنا حدثتنى الآنسة كابورالى عن الستة آلاف ليرة التى أخذها منها ببيانو احتيالاً ، والتى أشرت إليها فى موضع سابق .

على الرغم من أن مواساة تلك التعسة كانت تهمنى ، فإن هذا لم يكن ما أريد معرفته منها . واستغلالا (أعترف بهذا) للثورة التى كانت تجتاحها ، وربما أيضًا بسبب أنها قد شربت بضعة كئوس أكثر من المعتاد ، خاطرت بسؤالها :

« لكن معذرة ، يا آنسة ، لماذا أعطيتيه ، هذه النقود ؟ »

أغلقت قبضتيها « لماذا ؟ بسبب عمليتى احتيال ، كل منهما أكثر سوادًا من الأخرى! أعطيتها له حتى أبرهن له أنى قد أدركت تماما ماذا كان يريد منى . هل فهمت ؟ وزوجته مازالت على قيد الحياة ، كان ذلك الرجل ... »

« فهمت . »

استأنفت حديثها باندفاع « تصور ، وريتا المسكينة ... »

« الزوجة ؟ »

« نعم ، ريتا ، أخت أدريانا .. مريضة لمدة سنتين ، بين الحياة والموت ... تصور لو أنى ... ولكن طبعا ، هنا يعلمون القصة ، وكيف تصرفت ؛ تعلم هذا أدريانا ، ولهذا فهى تحبنى؛ هى نعم ، مسكينة . ولكن كيف صار حالى أنا الآن ؟ انظر ، من أجله ، اضطررت أن أتخلص من آلة البيانو ، الذى كان بالنسبة لى ... كل شىء ، تصور !

ليس لعملى فقط ، أنا كنت أتكلم مع البيانو ! منذ كنت صبية ، وأنا فى الأكاديمية ، كنت أؤلف؛ وألفت أيضا بعدها ، بعد تخرجى ؛ ثم تركت الأمور تمضى . ولكن عندما كان عندى البيانو، كنت مازلت أؤلف، لنفسى فقط، وفجأة ؛ كنت أطلق العنان لنفسى .. كنت أنتشى حتى أسقط على الأرض ، صدقنى ، فاقدة الوعى ، فى بعض اللحظات . لا أعلم أنا نفسى ماذا كان يخرج من نفسى : كنت أتحول إلى شىء واحد مع آلتى ، ولم تعد أناملى تهتز على أصابع البيانو ؛ كنت أجعل نفسى تبكى وتصرخ . وأستطيع أن أقول لك هذا فقط ، فى إحدى الأمسيات (وكنا أنا وأمى فى مسكن بين الميزانين) وتجمع الناس بأسفل فى الطريق وصفقوا لى فى النهاية، طويلاً، وأصابنى الخوف ليلتها.»

وقدمت لها اقتراحًا لأواسيها بشكل ما « معذرة ، يا آنسة ، ألا يمكنك استئجار بيانو؟ يسعدنى جدًا جدًا ، أن أسمعك تعزفين ؛ وإذا كنت .. »

قاطعتنى « لا ، ماذا تريدنى أن أعزف ! لقد انتهى العزف بالنسبة لى . أعزف أغانى خفيفة سمجة عزفا سيئًا . كفى . لقد انتهى . »

خاطرت بالسؤال مرة أخرى « ولكن هل وعدك السيد ترنسيو ببيانو بأن يعيد إليك تلك النقود ؟ »

أجابت على الفور الآنسة كابورالى وهى ترتجف غضبًا « هو ؟ ومن طلبها منه ؟ لكن نعم ، هو يعدنى بهذا الآن ، إن ساعدته .. طبعا ! يحتاج إلى مساعدتى أنا ، مساعدتى أنا بالذات ، واتته الوقاحة ليعرض على هذا ، هكذا ، بكل هدوء . »

« تساعدينه ؟ فيم ؟ »

« فى احتيال جديد ! هل تفهم ؟ أرى أنك فهمت . »

همهمت « أدر ... الـ ... الآنسة أدريانا ؟ »

« تماما يجب على أنا أن أقنعها ! أنا ، هل تفهم ؟ »

« لتتزوجه ؟ »

« طبعًا .. وهل تعلم لماذا ؟ لأن معه، أو ينبغى أن تكون معه أربعة عشر أو خمسة عشر ألف ليرة ، دوطة تلك المسكينة : دوطة الأخت ، التى كان عليه أن يردها فورا للسيد أنسلمو، لأن ريتا ماتت دون أن تخلف أبناءً ؛ ولا أعلم ماهية الحيل التى لجأ إليها . طلب مهلة لمدة سنة حتى يرد هذا المبلغ . وهو الآن يتمنى أن .. اصمت .. ها هى أدريانا ! »

اقتربت أدريانا منى ، منغلقة على نفسها ومتحفظة أكثر من ذى قبل ؛ أحاطت بذراعها خصر الآنسة كابورالى وأومأت إلى برأسها بتحية خفيفة . شعرت ، بعد تلك الأسرار ، بحنق عنيف وأنا أراها خاضعة هكذا ، وكأنها أمة مستعبدة لاستبداد ذلك العكر المعجوج . ولكن بعد قليل ، ظهر فى الشرفة ، مثل خيال ، شقيق ببيانو . قالت كابورالى لأدريانا بصوت خفيض « ها هو . »

أرخت أدريانا جفنى عينيها ، وابتسمت فى مرارة ، وهزت رأسها ، وانسحبت من الشرفة وهى تقول :

« معذرة ، يا سيد مايس ، مساء الخير . »

همست لى الآنسة كابورالى غامزة « الجاسوس . »

فى غضبى الشديد تفوهت قائلا « مم تخاف الآنسة أدريانا ؟ ألا تدرك أنها بتصرفها هذا ، تقدم ذريعة أكبر لذلك للتكبر وليكون أكثر طغيانا ؟ اسمعى يا آنسة ، أنا أعترف لك أننى أشعر بحسد بالغ تجاه كل أولئك الذين يستسيغون الحياة ويهتمون بها وأعجب بهم . وبين من تستسلم لتقوم بدور الأمة وبين من يقوم ، ولو عنوة ، بدور السيد ، فإنى أستلطف هذا الأخير . »

لاحظت كابورالى الحماس الذى تكلمت به ، وفى تحد قالت لى :

« ولماذا إذن لا تحاول أنت التمرد أولا ؟ »

« أنا ؟ »

أكدت ، وهى تنظر فى عينى لاستثارتى « أنت ، أنت . »

أجبتها « وما دخلى أنا ؟ أنا قد أستطيع التمرد بطريقة واحدة فقط : أن أرحل من هنا . »

وختمت الآنسة كابورالى كلامها بخبث « على كل ، لعل هذا بالذات ، هو مالا تريده أدريانا . »

« أن أرحل عن هنا ؟ »

أدارت الآنسة منديلها الممزق فى الهواء ثم طوته حول إصبعها وهى تتنهد :

« من يعلم ! »

« هززت كتفىّ . »

هتفت ، وتركتها هنالك ، فى الشرفة « إلى العشاء ! إلى العشاء ! »

وحتى أبدأ من تلك الليلة نفسها توقفت فى أثناء مرورى فى الطرقة أمام الصندوق الذى عاد شيبيونى ليقبع فوقه ، وقلت له :

« معذرة ، ألا يوجد مكان آخر تجلس فيه بشكل مريح ؟ وجودك هنا يربكنى » .

نظر ذلك إلىّ ببلاهة ، بعينيه الذابلتين دون أن يهتز له طرف .

أردفت وأنا أهزه ممسكا بذراعه « هل فهمت ؟ »

كأنى أتحدث إلى الحائط ! وانفتح عندئذ الباب الموجود فى نهاية الطرقة ، وظهرت أدريانا .

قلت لها « أرجوك ، يا آنسة ، حاولى أنت أن تجعلى هذا المسكين يفهم أنه يمكنه الذهاب للجلوس فى مكان آخر . »

حاولت أدريانا أن تلتمس له العذر « إنه مريض . »

رددت أنا « وبخاصة لأنه مريض ! هذا المكان ليس صحيًّا ؛ ينقصه الهواء .. وبالأكثر وهو جالس فوق صندوق .. هل تريدين أن أقول هذا أنا لأخيه ؟ »

أسرعت بالإجابة « لا لا ، سأقول أنا له هذا ، تأكد . »

أردفت « غير معقول ، لست بعد ملكا ، حتى يوضع حارس على بابى . »

بدءًا من ذلك المساء ، فقدت السيطرة على نفسى ، وبدأت أحاول أن أفض بوضوح حياء أدريانا ؛ أغلقت عينىّ وأطلقت العنان لمشاعرى بدون تفكير .

مسكينة الأم الصغيرة العزيزة ! ظهرت لى فى البداية وكأن أمرين يتجاذبانها : الخوف والأمل. لم تعرف التعلق بالأمل، لأنها خمنت أن الغضب كان هو دافعى ، ولكنى كنت أشعر - من ناحية أخرى - أن خوفها كان على الرغم من هذا نابعا من الأمل الصامت حتى ذاك ، وغير الواعى تقريبا فى ألا تفقدنى ، ولهذا فإنها بزيادتى لأملها هذا بطرقى الجديدة الحازمة، لم تكن تعرف - مجرد معرفة - أن تستسلم كليا للخوف.

ومنعنى هذا التردد الرهيف ، وهذا التحفظ الشريف من أن أواجه نفسى بنفسى ، وجعلانى أجتهد أكثر وأكثر فى تحدى ببيانو تحديا مفهوما ضمنيًا .

كنت أنتظر أن يقف ببيانو فى مواجهتى منذ أول يوم وأن يكف عن مجاملاته المعتادة، وعن حفاوته المعتادة . ولكن ، لا . أبعد أخاه عن مكان الحراسة ، هنالك فوق الصندوق، كما كنت أريد ، ووصل به الأمر إلى السخرية من اضطراب أدريانا وذهولها فى حضورى .

« التمس لها العذر ، يا سيد مايس ؛ فأخت زوجتى الصغيرة خجولة ، كأنها راهبة جديدة ! »

هذا الخضوع غير المتوقع ، ورباطة الجأش الكبيرة أثارا هواجسى . ما هو الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه ؟

فى إحدى الأمسيات رأيته يصل إلى البيت ومعه شخص دخل وهو يضرب بعصاه على الأرض ضربات قوية وكأنه - إذ وضع قدميه فى حذاء من الجوخ لا يصدر صوتا - أراد أن يشعر هكذا ومن ضربات عصاه ، أنه كان يمشى .

وأخذ يصيح بلهجة تورينو ، ودون أن يخلع من فوق رأسه قبعته مرفوعة الحواف ، والمنغرسة فى رأسه حتى عينيه المحملقتين والمعتمتين من تأثير الخمر ، كما لم ينزع غليونه من فمه ، والذى يبدو أنه كان يطهو به أنفه الأكثر احمرارا من أنف الآنسة كابورالى « أين قريبى العزيز هذا ؟ أين قريبى العزيز هذا ؟ »

قال ببيانو وهو يشير إلىّ « ها هو ؛ ثم توجه إلىّ قائلاً : يا سيد أدريانو ، مفاجأة طيبة! السيد فرانشسكو مايس ، من تورينو ، قريبك . »

هتفت مذهولا « قريبى ؟ »

أغمض ذلك الرجل عينيه ، ورفع كدبٍّ ذراعه وأبقاه مرفوعا لفترة منتظراً أن أصافحه وأضغط على يده .

تركته هنالك ، فى ذلك الوضع ، لأتأمله مليا ، ثم سألت :

« ما هذه المهزلة ؟ »

قال ترنسيو ببيانو « معذرة ، لا ، لماذا ؟ السيد فرانشيسكو مايس أكد لى تأكيداً واضحاً أنه .. »

أكمل ذلك الرجل بدون أن يفتح عينيه « ابن عمك ، كلنا أفراد عائلة مايس أقارب .

اعترضت : ولكنى لم أحظ بمعرفتك ! »

هتف ذلك الرجل « أوه ، جميل هذا ! .. ولهذا تماما جئت لزيارتك . »

سألت متظاهرا بأنى أبحث فى ذاكرتى « مايس ؟ من تورينو ؟ ولكنى لست من تورينو؟ »

تدخل ببيانو فى الحوار « معذرة ! كيف ! ألم تقل لى إنك أقمت فى تورينو حتى عشر سنوات مضت ؟ »

استـأنف ذلك الرجل حـديثه عندئذ وقد تضـايق مـن أن يوضـع مـوضـع الشك أمر مؤكد تمام التأكيد بالنسبة له « نعم ، طبعًا ! يا ابن العم ! هذا السيد .. ما اسمه ؟ »

« اسمى ترنسيو ببيانو ، فى خدمتك . »

« ترنسيـانو : قال لى إن أباك قـــد ذهب إلى أمريــكا ، وماذا قصـد بهذا ؟ أنك ابن العم أنطونيو، الذى ذهب إلى أمريكا . ونحن أبناء عم . »

« ولكن أبى اسمه باولو .. »

« أنطونيو! »

« باولو، باولو، باولو. هل تعرفه أكثر منى؟ »

رفع كتفيه ومط فمه إلى أعلى:

« كان يبدو لى أن اسمه أنطونيو، » قال هـذا وهو يحك ذقنه الخشنة بلحيته التى لم يحلقها منذ أربعة أيام على الأقل، وكانت رمادية كلها تقريبًا . « لا أريد مخالفتك: لعله باولو، نعم أنا لا أذكر جيدًا ، لأنى لم أعرفه. »

يا للرجل المسكين! كان قادرًا على أن يعرف أكثر منى اسم ذلك العم الذى سافر إلى أمريكا، ولكنه رضخ واستسلم، لأنه كان يريد أن يكون قريبى بأى ثمن. قال لى إن والده، الذى كان يدعى فرانشســكو مثله ، وكان أخًا لأنطونيــو ... أى لباولــو ، أبى، قد هاجر من تورينو عندما كان هو لا يزال صغيرًا ، فى سن السابعة، وأنه – كموظف فقير – عاش باستمرار بعيدًا عن الأسرة، وقتًا هنا، ووقتًا هناك. وبالتالى كان يعلم القليل عن أقاربه ، سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم، ومع هذا فكان متأكدًا، متأكدًا تمامًا، أنه ابن عمى.

ولكن الجد، على الأقل، هل عرف الجد؟ أردت أن أسأله هذا . نعم، عرفه، ولم يكن يذكر بالتدقيق إن كان عرفه فى باڤيا أم فى بياتشنسا .

« صحيح؟ هل عرفته حقًا؟ وكيف كان؟ »

كان .... لم يكن يتذكره هو، بصراحة لا.

« لقد انقضت ثلاثون سنة. »

لم يبد إطلاقًا أنه مدلس؛ كان يبدو بالأحرى رجلاً تعيسًا أغرق نفسه فى الخمر، حتى لا يشعر شعورًا مضنيًا بعبء السأم والبؤس. كان يطأطئ رأسه مغلق العينين مؤيدًا كل ما أقول لأستمتع بوجوده، وأنا على يقين من أننى لو قلت له إننا قد نشأنا معًا منذ أن كنا طفلين، وإننى كثيرًا ما نزعت شعره فإنه كان سيؤيد مقولتى بالطريقة نفسها. شيء واحد كان على ألا أثير الريبة فيه، وهو أننا ابنا عم، فهو لم يكن قادرًا على أن يتساهل فى هذا، كان مصممًا على هذا ، ومركزًا عليه، وكفى.

ولكنى، عند لحظة ما؛ عندما نظرت إلى ببيانو ووجدته فرحًا، لم تعد لى رغبة فى المزاح. عندئذ صرفت ذلك الرجل المسكين، نصف المخمور، وأنا أجيبه: قريبى العزيز! وسألت ببيانو، وعيناى ثابتتان على عينيه، لكى أجعله يفهم فهمًا جيدًا أننى لست لقمة سائغة لأسنانه:

« قل لى الآن، أين ذهبت لتعثر على هذا الجميل غريب الأطوار. »

« آسف جدًا، يا سيد أدريانو ! » – هكذا قدم لكلامه ذلك المحتال، الذى لا مفر من أن أعترف بعبقريته. – « أفهم، أننى لم أكن موفقًا.. »

هتفت أنا « لكنك موفق جدًا، دائمًا! »

« لا، أقصد: أننى لم أقدم لك معروفًا. ولكن ثق تمامًا أنها كانت محض مصادفة. حدث هذا: اضطررت صباح اليوم للذهاب إلى مكتب ضرائب الدخل، نيابة عن المركيز، الذى أعمل لديه . وبينما كنت هناك سمعت صوتًا ينادى بقوة "السيد مايس ! السيد مايس!" فاستدرت فى الحال، ظنًا منى أنى سأجدك أنت أيضًا هناك، لعمل من الأعمال، وقلت، من يدرى ربما تحتاج إلى، وأنا مستعد دائمًا لخدمتك. ولكن ! كانوا ينادون على هذا الجميل غريب الأطوار، كما قلت عن حق؛ وعندئذ هكذا، اقتربت منه، فضولاً منى، وسألته إن كان يدعى مايس حقًا ومن أى بلد هو، لأنى نلت شرف وسعادة

استضافة شخص يدعى مايس فى بيتى ... هذا هو ما حدث! فقد أكد لى أنك لابد أن تكون قريبًا له، وأراد أن يأتى ليتعرف عليك.. »

« فى مكتب ضرائب الدخل؟ »

« نعم يا سيدى، فهو موظف هناك: مندوب مساعد . »

هل كان يجب أن أصدق هذا؟ أردت التأكد. وكان هذا حقيقيًا، نعم ؛ ولكن كان حقيقيًا كذلك أن ببيانو كان يتهرب منى، يتهرب منى ليبحث عن الماضى الخاص بى، ويهاجمنى هكذا من الخلف، بينما كنت أنا أريد أن أواجهه، هنالك، لأفضح، فى الحاضر، تلاعبه واحتياله الخفى، ولأنى أعرفه معرفة جيدة، فقد كان لى – للأسف – أن أخشى أنه بحاسة شمه تلك يستطيع ألا يستمر فشله طويلاً، لو أنه نجح فى استشعار أدنى أثر؛ فكان سيتعقبه بكل تأكيد حتى يصل إلى طاحونة ستيا.

ولنتخيل خوفى، بعد هذا بأيام قلائل، بينما كنت فى حجرتى أقرأ، وصل إلى مسامعى صوت، وكأنه آت من العالم الآخر، صوت لا يزال حيًا فى ذاكرتى.

« أشكر الله، كذلك، أنى قد تخلصت منها! »

الإسبانى؟ ذلك الإسبانى الملتحى قوى البنية الذى لقيته فى مونت كارلو ! ذلك الذى أراد أن يلعب معى، والذى تشاجرت معه فى نيس؟ آه! ها هو الأثر ! ها إن ببيانو قد نجح فى اكتشافه!

قفزت واقفًا على قدمى مستندًا إلى المنضدة الصغيرة حتى لا أقع ؛ فى ذهولى المقلق المفاجئ: فى ذهولى وخوفى استرقت السمع وأنا أفكر فى الهروب بمجرد أن يقطع الطرقة الاثنان – ببيانو والإسبانى (كان هو، ولا شك ، فقد رأيته من صوته). هل أهرب؟ وإذا كان ببيانو قد سأل الخادمة، فى أثناء دخوله، إن كنت موجودًا بالبيت؟ كيف سيفسر هربى؟ ولكن من الناحية الأخرى، هل كان يعلم أنى لست أدريانو مايس؟ مهلاً! ما الخبر الذى يمكن لذلك الإسبانى أن يعرفه عنى؟ رآنى فى مونت كارلو. هل قلت له آنذاك إنى أدعى ماتيا باسكال؟ لا أذكر.

وجدت نفسي، دون أن أدرى، أمام المرآة، وكأن أحدًا اقتادنى من يدى إلى هنالك. نظرت إلى نفسى. آه، هذه العين الملعونة! قد يتعرف علىّ ذلك الرجل بسبب عينى. ولكن كيف، كيف استطاع ببيانو أن يصل إلى هذا، إلى مغامرتى فى مونت كارلو؟ كان هذا هو ما يدهشنى أكثر من أى شىء آخر. وماذا على أن أفعل؟ لا شىء. أنتظر هنالك أن يحدث ما يجب أن يحدث.

لم يحدث شىء. وعلى الرغم من هذا لم ينقشع خوفى، حتى فى مساء ذلك اليوم نفسه، بينما كان يشرح لى ببيانو السر الرهيب الذى لا حل له لهذه الزيارة ، وبيّن لى أنه لم يكن يقتفى إطلاقًا آثار الماضى، وأن الصدفة وحدها، التى كنت منذ فترة أتمتع بأفضالها على، أرادت أن تشملنى بفضل آخر، بأن تضع فى طريقى هذا الإسبانى، الذى لعله لم يعد يتذكرنى من قريب أو من بعيد.

وطبقًا للأخبار التى قدمها لى ببيانو عنه أننى إذا ما ذهبت إلى مونت كارلو فلا يمكننى إلا أن أقابله هناك، لأنه كان لاعبًا محترفًا. كان الأمر الغريب أن ألقاه الآن فى روما، أو بالأحرى، أننى بوصولى إلى روما أنزل مصادفة فى بيت يمكن أن يدخله هو أيضًا. ومن المؤكد أننى لو لم يكن لدى ما أخشاه لما بدا لى هذا الأمر غريبًا إلى هذه الدرجة، فكم من مرة لا يحدث لنا أن نلتقى دونما انتظار مع شخص عرفناه فى مكان آخر صدفة؟ ثم إنه كان لديه أو كان يعتقد أن لديه أسبابه المعقولة للمجىء إلى روما وإلى بيت ببيانو. كان الخطأ خطئى، أو خطأ الصدفة التى جعلتنى أحلق لحيتى وأغير اسمى.

منذ عشرين عامًا خلت تقريبًا كان المركيز چيليو داوليتا، الذى كان ببيانو سكرتيرًا له، قد زوج ابنته الوحيدة لدون أنطونيو بنتوجادا، الملحق بسفارة إسبانيا لدى المقر البابوى. وبعد الزواج بوقت قصير، تم استدعاء بنتوجادا إلى مدريد، لأن الشرطة اكتشفت فى إحدى الليالى وجوده مع آخرين من الطبقة الأرستقراطية فى روما فى وكر للقمار. وفى مدريد استمر فى ممارسة هذا الداء وربما ما هو أسوأ منه، ولهذا اضطر إلى ترك العمل الدبلوماسى. ومنذ ذاك والمركيز داوليتا لم يعش فى سلام، إذ إنه كان

مضطراً باستمرار لإرسال مبالغ مالية لدفع ديون زوج ابنته ؛ الذى لا صلاح له من اللعب. وتوفيت زوجة بنتوجادا منذ أربع سنوات، تاركة له شابة فى سن السادسة عشرة تقريباً، أراد المركيز أن يضمها إليه لأنه كان يعرف للأسف فى حضانة من ستبقى إذا لم يفعل هذا. وكان بنتوجادا لا يريد أن يتركها تفلت منه، ولكنه اضطر فيما بعد بسبب حاجته الملحة للمال، إلى التراجع. وأخذ هو يهدد بلا هوادة حماه بأن يسترد ابنته، وفى ذلك اليوم بالذات جاء إلى روما لهذا الغرض ؛ أى ليبتز أموالاً أخرى من المركيز المسكين، وهو يعلم تمام العلم أن الجد لن يترك أبداً ثم أبداً حفيدته الغالية بيبيتا بين يديه.

كان بيبيانو ينطق بكلمات من نار يصم بها ابتزاز بنتوجادا هذا. وكان غضبه النبيل ذاك غضباً صادقاً حقاً. وبينما كان هو يتكلم، لم أكن أستطيع إلا أن أعجب من التجانس المتميز لضميره الذى على الرغم من غضبه الحقيقى بهذا الشكل من مظالم الآخرين، كان يسمح له بعد هذا بأن يقترف مظالم مثلها أو شبيهة بكل هدوء تقع على ذلك الرجل الطيب بلياري، حميه.

كان المركيز جيليو يريد على كل حال فى هذه المرة أن يتخذ موقفاً صلباً. واستتبع هذا أن بنتوجادا كان سيبقى وقتاً طويلاً فى روما وكان سيأتى بكل تأكيد إلى البيت لزيارة ترنسيو بيبيانو، الذى كان بالضرورة متفاهماً معه بشكل عجيب. وبالتالى فإن لقائى بالإسبانى كان أمراً لا يمكن تحاشيه من يوم لآخر ؛ فما العمل؟

ولما كنت لا أستطيع أن استشير أحداً فإنى استشرت المرآة من جديد. وعلى سطحها طفت صورة الراحل ماتيا باسكال وكأنها تأتى من عمق القناة، بتلك العين التى ظلت وحدها منه، وكلمنى هكذا:

« يا للمأزق الذى وضعت نفسك فيه يا أدريانو مايس ! أنت تخشى بيبيانو، اعترف بهذا! وتريد أن تلصق الذنب بى، بى أنا مرة أخرى، وفقط لأنى تشاجرت فى نيس مع الإسبانى. ومع هذا فقد كنت على حق، وأنت تعلم هذا. أويبدو لك أنه يكفيك الآن أن تزيل عن وجهك آخر أثر منى؟ إذن، نفذ نصيحة الآنسة كابورالى واطلب الدكتور أمبروزينى حتى يصلح لك عينك. ثم .... سترى!» .

(١٣)

المصباح

أربعون يومًا فى الظلام.

نجحت، أوه، نجحت العملية نجاحًا باهرًا. فقط ربما ستبقى عينى أكبر قليلاً، من العين الأخرى. صبرًا ! وعلى كل، نعم، أربعون يومًا فى الظلام، فى حجرتى.

استطعت أن أختبر أن الإنسان، عندما يعانى، تتكون لديه فكرة خاصة عن الخير وعن الشر، أى عن الخير الذى ينبغى على الآخرين أن يقدموه له والذى يطمح إليه هو، وكأن آلامه تعطيه الحق فى المكافأة؛ وعن الشر الذى قد يفعله بالآخرين، وكأنه بآلامه مؤهل كذلك لأن يفعل هذا. وإذا لم يقدم له الآخرون الخير بوصفه واجبًا، فإنه يتهمهم، وعن كل الشر الذى يفعله وكأنه حق من حقوقه، يلتمس بسهولة العذر لنفسه.

بعد عدة أيام من ذلك الحبس الأعمى نمت وتزايدت إلى أقصى حد الرغبة والحاجة إلى التعزية والسلوى. نعم، كنت أعلم أنى فى بيت غريب؛ وبأنى لهذا يجب أن أشكر مضيفىَّ على رعايتهم الرقيقة للغاية التى يقدمونها لى. ولكنها لم تعد كافية لى، تلك الرعاية؛ بل إنها كانت تثيرنى، وكأنها تقدم لى نكاية بى. أكيد! لأنى كنت أتكهن ممن تأتينى. كانت أدريانا تبين لى من خلالها، أنها كانت بفكرها طوال اليوم تقريبًا معى هنالك، فى حجرتى؛ وشكرًا على السلوى! ماذا كان يفيدنى، إن كنت فى تلك الأثناء أتعقبها، هنا وهنالك فى أنحاء البيت، وطوال اليوم، شوقًا إليها؟ كانت هى وحدها تستطيع أن تعزينى، كان يجب عليها؛ وهى التى كانت قادرة أكثر من غيرها

على فهم مقدار السأم الذى كان يجثم علىَّ وكيفيته، وكيف كانت الرغبة قوية فى رؤيتها أو فى أن أشعر بها بجانبى.

وكان ولعى وسأمى قد زادا بسبب الغضب الذى أثاره فىَّ خبر سفر بنتوجادا السريع من روما. فهل كنت سأقبع هنالك فى الظلام لأربعين يومًا، لو أنى علمت أنه كان سيرحل سريعًا هكذا؟

وحتى يواسينى أراد السيد أنسلمو بليارى أن يبين لى، من خلال حديث طويل، أن الظلام شىء خيالى.

صرخت « خيالى ؟ هذا؟ »

شرح لى: كن صبوراً .

وعرض على (ربما لأتهيأ كذلك لتجارب تحضير الأرواح التى كانت ستجرى هذه المرة فى حجرتى، حتى يتوفر لى شىء من التسلية) أقول، عرض على أحد مفاهيمه الفلسفية الفريدة والذى يمكن أن نطلق عليه مصباحًا صوفيًّا[١] .

وكان الرجل الطيب يتوقف عن الحديث بين الفينة والأخرى ليسألنى:

« هل أنت نائم، يا سيد مايس؟ »

وكانت تواتينى الرغبة أن أجيبه:

« نعم ، شكرًا، أنا نائم، يا سيد أنسلمو. »

ولكنى كنت أجيبه بأنى على العكس مستمتع جداً ، وكنت أرجوه أن يستمر فى حديثه لأن قصده فى الحقيقة كان مقصداً طيباً ، أى أن يجالسنى.

وكان السيد أنسلمو فى استطراده يبين لى أننا لسوء حظنا لسنا مثل الشجرة التى تحيا ولا تشعر ، ولا يبدو لها أن الأرض والشمس والهواء والمطر والريح أشياء مختلفة عنها؛ أشياء صديقة أو ضارة. أما نحن البشر فقد نلنا ، عند الولادة ، ميزة تعسة ؛ وهى أن نشعر بحياتنا ، وبالوهم الجميل الذى ينتج عن هذا ؛ أى أن نعتبر

---

(١) مصباحًا صوفيًا : يقصد فلسفة المصباح أو حكمته (المترجم).

شعورنا الداخلى هذا بالحياة ، هذا الشعور القابل للتغير والمتعدد الأشكال ، حسب الأزمان والأحوال والحظ ، وكأنه واقع قائم خارجنا.

وكان هذا الإحساس بالحياة بالنسبة للسيد أنسلمو مثل مصباح يحمله كل منا مضيئًا بداخله ، مصباح يجعلنا نرى أنفسنا تائهين على الأرض ، ويجعلنا نرى الشر والخير ، مصباح يبعث حولنا دائرة واسعة بشكل أو بآخر من الضوء ، وفيما وراءها الظل الأسود ، الظل المخيف الذى ما كان له أن يوجد لو لم يضئ المصباح فينا ، ولكننا للأسف نضطر للاعتقاد بأنه ظل حقيقيًا ، مادام يظل حيًا فينا ذلك المصباح. وفى النهاية ومتى انطفأ بنفخة واحدة فإن الليل المستمر سيستقبلنا بعد يوم وهمنا الملىء بالدخان ، ألن نبقى نحن تحت رحمة الكائن ، الذى سيكون قد قطع الأشكال الواهية لتفكيرنا ؟

« هل أنت نائم ، ياسيد مايس ؟ »

« استمر، استمر ياسيد أنسلمو: لست نائمًا. يبدو لى أنى أراه، أرى مصباحك هذا. »

آه ، حسنًا ... ولكن نظرًا لأن عينك مريضة ، فلا داعى لأن نخوض كثيرًا فى الفلسفة ، أليس كذلك ؟ ولنحاول بالأحرى أن نتعقب الأنوار المبعثرة ، فقد تكون مصابيحنا فى ظلمة المصير البشرى. أنا أميل إلى القول أنها قبل كل شىء ذات ألوان كثيرة ، فما رأيك أنت ؟ حسب الزجاج الذى يزودنا بالوهم ، وهو تاجر، تاجر زجاج ملون. ولكن يبدو لى ، ياسيد مايس ، أنه فى عصور معينة من عصور التاريخ ، وكذلك فى مواسم معينة من الحياة الفردية، من الممكن تحديد هيمنة لون معين ، أليس كذلك ؟ ففى كل عصر ، فى الواقع ، من المعتاد تحديد اتفاق محدد على المشاعر بين البشر وهو اتفاق يعطى ضوءًا ولونًا لتلك المصابيح الكبرى وهى المصطلحات المجردة : الحقيقة ، والفضيلة ، والجمال ، والشرف ، وغيرها ... ألا يبدو لك أن مصباح الفضيلة الوثنية هو اللون الأحمر؟ وأن اللون البنفسجى، وهو لون يثير الضيق، هو لون الفضيلة المسيحية. إن مصباح فكرة عامة يغذيه شعور جماعى ، أما إذا انفصل هذا الشعور فإن ما يبقى هو مصباح المصطلح المجرد ، ولكن شعلة الفكرة تتفجر فيه ، وتندفع ،

وتخفت، كما يحدث عادة فى كل الفترات التى يطلق عليها انتقالية. وفى التاريخ لا تندر هبّات رياح عاتية معينة تطفئ فجأة كل تلك المصابيح الكبرى. ياللسعادة ! وفى الظلمة المفاجئة لا يمكن وصف اضطراب المصابيح كل على حدة : فيذهب هذا إلى هنا ، وذاك إلى هناك ، ويعود أحدها إلى الخلف ، ويدور آخر ، فلا يجد أى منها الطريق ، وتتصادم ، وتتجمع عشرة وعشرون منها للحظة ، ولكنها لا تستطيع الاتفاق ، وتعود للتفرق فى اضطراب كبير ، وفى غضب مضن ؛ مثلها مثل النمل الذى لا يجد فتحة عشه التى سدها لهو طفل قاس. ويبدو لى ، ياسيد مايس ، أننا نحيا الآن إحدى هذه اللحظات. ظلمة عظيمة واضطراب كبير ! وكل المصابيح الكبرى قد انطفأت. إلى من نلجأ ؟ هل نرجع إلى الخلف ؟ إلى ما بقى من شعيلات ، إلى تلك التى خلفها كبار الموتى مشتعلة على قبورهم ؟ أذكر مقطوعة شعرية جميلة قالها نيقولا تومازيو[١]:

مصباحى الصغير
مثل شمس ، لا يسطع
ومثل نار ، لا يبعث دخانًا ؛
لا يصر ولا يبلى ،
وإنما بقمته يسعى
نحو السماء ، إياه منحتنى.
بعد دفنى ، حيًا فوقى سيبقى
لا مطر ، ولا ريح
ولا الأزمان عليه تقوى
ومن سيمرون تائهين
بفتيل مطفأ
سيوقدونه منى.

---

(١) شاعر إيطالى من القرن التاسع عشر تأثر به شعراء كبار مثل دانونسيو ومونتالى (المترجم) .

ولكن كيف ، ياسيد مايس ، إذا كان مصباحنا ينقصه الزيت المقدس الذى كان يغذى مصباح الشاعر ؟ كثيرون مازالوا يذهبون إلى الكنائس ليزودوا مصابيحهم الصغيرة بوقودها الضرورى . وهم فى الأغلب الأعم ، مسنون مساكين ، ونساء مسكينات ، كذبت الحياة عليهم، ويمضون للإمام فى ظلمة الوجود ، لشعورهم المتقد ذاك وكأنه شمعة نذر يحمونها بعناية يشوبها القلق من صقيع الأوهام الزائلة حتى تستمر متقدة حتى حافة المحتوم، التى يسعون إليها مسرعين وعيونهم يقظة على اللهب وهم يفكرون على الدوام: "الله يرانى !" حتى لا يستمعوا إلى ضجيج الحياة من حولهم، الذى يدوى فى آذانهم وكأنه تجديف ولعن كثير . "الله يرانى ..." لأنهم يرون، ليس فقط داخل نفوسهم ، وإنما فى كل شىء ، وأيضًا فى بؤسهم ، وفى معاناتهم ، أنهم سينالون ثوابًا ، فى النهاية . وهذا النور الخافت الهادئ ، نور تلك المصابيح الصغيرة يوقد فى كثير منا بالتأكيد غيرةً مؤلمة ؛ وأما فى آخرين ، يعتقدون أنهم قد تسلحوا ، مثل كواكب زهرة عديدة ، بصاعقة أخضعها العلم وروضها ، وبدلاً من تلك المصابيح الصغيرة، يحملون فى موكب النصرة مصابيح كهربية ، توحى إليهم بإشفاق مستهين. ولكنى أسأل الآن ، ياسيد مايس : ماذا لو كان هذا الظلام كله ، وهذا السر الهائل الذى تأمل فيه الفلاسفة فى البداية عبثًا ، والذى لا يستبعد العلم الآن، مع أنه تخلى عن البحث فيه، أن يكون فى نهاية المطاف وهما مثل أى وهم آخر، وهم مصدره عقلنا ، وأنه محض خيال لا لون له ؟ وماذا لو أننا اقتنعنا فى النهاية أن هذا السر كله لا وجود له خارجنا ، وإنما هو موجود بداخلنا فقط ، وبالضرورة، بسبب ميزة الشعور الشهيرة الذى نشعره نحو الحياة ، أى نحو المصباح ، الذى كلمتك عنه حتى الآن ؟ وماذا لو أن الموت – الذى يخيفنا خوفًا شديدًا –لا وجود له وأنه ليس إلا لإطفاء الحياة ، بل النفخة التى تطفئ فينا هذا المصباح، والشعور المنحوس الذى نشعر به نحوه ، وهو شعور مؤلم ، ومخيف ؛ لأنه محدود ، ومحدد بدائرة الظل الوهمى ، الكائن فيما وراء مجال النور الخافت الذى نلقيه نحن ، أسرجة الليل المسكينة التائهة ، من حولنا ، والذى تبقى حياتنا أسيرة له ، وكأنها مستبعدة لفترة من الزمن من الحياة الكونية ، الأبدية ، التى يبدو لنا أننا يجب أن نعود إليها يومًا ، بينما نحن فيها وسنظل فيها

دومًا ولكن بدون هذا الشعور بالنفى الذى يؤلمنا . إن الحد وهمى ، وهو مرتبط نسبيًا مع ضوئنا القليل ، ومع فرديتنا ، أما فى واقع الطبيعة فلا وجود له. نحن – ولا أعلم إن كان هذا قد يسعدك – نحن عشنا دائمًا وسنعيش دومًا مع الكون، وكذلك الآن ، فى هيئتنا هذه ، نشارك فى مظاهر الكون كلها ، ولكن لا نعلم هذا ، ولا نراه، لأن هذا النور الضئيل الباكى ، للأسف ، يرينا فقط القليل الذى يصل إليه ، وياليته يرينا إياه على الأقل كما هو فى الواقع ! لكن لا يا سيدى ، يلونه بطريقته ، ويرينا أشياء معينة ينبغى علينا أن نشكو منها حقيقة ، إذ لو كانت لنا هيئة وجودية أخرى لما كان لنا فم نستطيع به أن نضحك الضحكات المجنونة. ضحكات ، ياسيد مايس ، على كل الآلام الحمقاء عديمة الجدوى التى جاءنا بها ، وعلى كل الخيالات ، وكل الأوهام الطموحة والغريبة التى يضعها أمامنا ومن حولنا ، وعلى الخوف الذى بعثه فينا.

أوه! ولماذا إذن يريد السيد أنسلمو بليارى ، على الرغم من قوله ، عن حق ، قولاً سيئًا عن المصباح الذى يحمله كل منا مضيئًا فى ذاته ، أن يضىء الآن مصباحًا آخر من الزجاج الأحمر، هنالك فى حجرتى ، لإجراء تجاربه الروحية ؟ ألم يكن هذا المصباح الواحد أكثر من اللازم ؟

أردت أن أطرح عليه هذا السؤال.

أجابنى « تصحيحى ! مصباح ضد الآخر ! ثم إن هذا المصباح ينطفئ عند لحظة معينة!. »

« أيبدو لك أن هذه أفضل وسيلة لرؤية شىء ما ؟ » خاطرت بإبداء هذه الملاحظة. فرد على الفور السيد أنسلمو « ولكن ما يطلق عليه النور ، معذرة ، يمكن أن يفيد فى أن يرينا بطريقة خداعية هنا ، فيما يطلق عليها الحياة ؛ وهو لا يصلح أبدًا فى أن يكشف لنا ما وراء هذه الحياة ، صدقنى ، بل قد يكون ضارًا. إنها ادعاءات حمقاء يدعيها بعض العلماء من ذوى القلوب السقيمة ومن ذوى العقول المحدودة، الذين يريدون الاعتقاد – من أجل راحتهم – أن هذه التجارب يراد بها إهانة العلم أو الطبيعة. لكن لا ياسيدى ! نحن نريد أن نكتشف قوانين أخرى ، وقوى أخرى ، وحياة أخرى فى

الطبيعة ، دائمًا فى الطبيعة ! بالإضافة إلى ضآلة التجربة العادية ، نحن نريد أن نفتح الباب أمام الفهم الضيق، الذى توفره لنا عادة حواسنا المحدودة. والآن، معذرة ، أليس العلماء أول من يطالبون ببيئة وظروف مناسبة لنجاح تجاربهم ؟ هل يمكن ألا نستخدم الحجرة المظلمة للصورة ؟ وماذا بعد ؟ ثم إن هناك وسائل رقابة كثيرة ! »

ولكن السيد أنسلمو ، كما استطعت أن أرى بعد بضعة ليال ، لم يكن يستخدم أيًّا منها ، ولكنها كانت تجارب تجرى عائليًا ! هل كان يستطيع أن يشك أبدًا أن الآنسة كابورالى وبيبيانو يستمتعان بخداعه ؟ ثم ، ولماذا ؟ وما وجه الاستمتاع ؟ كان هو مقتنعًا تمام الاقتناع ، ولم يكن بحاجة إطلاقًا إلى تلك التجارب ليدعم إيمانه. وهو كرجل طيب ، لم يكن ليصل إلى افتراض أنهما يمكنهما خداعه لغرض آخر فى نفسيهما. أما فيما يتعلق بالضآلة المحزنة والصبيانية للنتائج فقد كانت الثيوصوفية كفيلة بأن توفر له تفسيرًا قابلاً للتصديق. فالكائنات العليا بالمستوى العقلى ، أو بما هو أعلى منه ، لم تكن لتستطيع النزول للتواصل معنا من خلال وسيط روحانى ، فكان من اللازم إذن أن نرضى بحضور نفوس من مستويات أدنى من مستوى الكواكب ؛ أى من أقرب المستويات إلينا ، هذا هو.

ومن كان يستطيع أن يقول له لا ؟

كنت أعلم أن أدريانا تعتذر دائمًا عن حضور هذه التجارب . ومنذ أن قبعت فى حجرتى ، فى الظلام ، لم تدخلها هى إلا نادرًا ، وليس بمفردها لتسألنى عن حالى . وفى كل مرة كان ذلك السؤال يبدو ، بل كان موجهًا ، لأسباب تتعلق باللياقة . كانت تعلم ، نعم كانت تعلم جيدًا حالى - ! بل كان يبدو لى أنى أشعر بطعم السخرية فى صوتها ، لأنها كانت تجهل لماذا قررت فجأة الخضوع لإجراء العملية ، ولهذا فلابد أنها تعتقد أنى أعانى بسبب عمل طائش ، أى لأكون أجمل أو أقل قبحًا ، بعين جرى تصحيحها طبقًا لنصيحة كابورالى .

كنت أجيب على سؤالها « أنا فى أحسن حال ، ياآنسة ، لا أرى شيئًا ... »

فكان بيبيانو يقول « آه ، ولكنك سترى ، سترى بشكل أفضل فيما بعد . »

كنت أستغل الظلام فأرفع قبضتى وكأنى أريد أن أوجهها إلى وجهه . ولكنه كان يفعل هذا عمداً بكل تأكيد ، حتى أفقد ما بقى لى من صبر . لم يكن من الممكن أنه لم يلاحظ ما يسببه لى من ضيق، كنت أظهر له هذا بكل الطرق ، بأن أتثاءب وبأن أنفخ ؛ ومع هذا، ها هو هنا ، كان مستمراً فى دخول حجرتى كل مساء تقريباً (آه هو ، نعم) وكان يبقى بها ساعات كاملة ، يثرثر ثرثرة لا نهاية لها . فى ذلك الظلام ، كان صوته يكاد يقطع أنفاسى ، ويجعلنى أتلوى فى مقعدى ، وكأننى فوق خازوق ، وأنشب أظافرى ، كنت أريد أن أخنقه فى لحظات بعينها. هل كان يخمن هذا ؟ هل كان يشعر بهذا ؟ فى تلك اللحظات بالذات ، كان صوته يصير ليناً متملقاً .

نحن نحتاج إلى إلقاء الذنب دائماً على أحد فى مصائبنا وأضرارنا . وكان ببيانو، فى نهاية الأمر ، يعمل كل ما يستطيع ليدفعنى إلى ترك ذلك البيت ؛ ولو أن صوت العقل حدثنى، فى تلك الأيام ، لشكرته على هذا من كل قلبى . ولكن كيف كان لى أن أستمع له ، لصوت العقل المبارك ذاك ، وهو لم يحدثنى إلا من خلال فمه هو ، فم ببيانو، الذى كان بالنسبة لى على خطأ ، خطأ بيِّن ، خطأ وقح ؟ ألم يكن يريد إبعادى فى الواقع حتى يحتال على بليارى ويدمر أدريانا ؟

هذا فقط هو ما كنت قادراً على إدراكه آنذاك من أحاديثه تلك كلها . أوه ، أمن الممكن أن يختار صوت العقل فم ببيانو بالذات حتى يجعلنى أستمع إليه ؟ ولكن لعلى كنت أنا الذى أضع صوت العقل هذا فى فمه لكى ألتمس لنفسى عذراً ، حتى يبدو لى صوتاً باغياً ، أنا الذى كنت أشعر بأنى غدوت داخل خيوط شبكة الحياة وأتحرق ، ليس بسبب الظلمة ، ولا بسبب الضيق الذى كان يسببه لى ببيانو عندما كان يتكلم . عن ماذا كان يكلمنى ؟ عن ببيتا بنتوجادا، ليلة إثر ليلة .

وعلى الرغم من أنى كنت أعيش حياة متواضعة جداً ، فقد أقنع نفسه بأنى كنت غنياً جداً . والآن ، ولكى يحول فكرى عن أدريانا ، فلعله كان يستحسن فكرة أن يدفعنى إلى أن أحب حفيدة المركيز چيليو داوليتا تلك ، وكان يصفها لى بأنها فتاة عاقلة ، معتزة بنفسها ، ذات ذكاء وإرادة وحزم ، صريحة ومليئة بالحيوية ، ثم إنها

جميلة، نعم، جميلة جداً ! سمراء، ونحيلة وممتلئة الجسم فى آن واحد ، وهى متوهجة ، لها عينان قتّالتان وفم ينتزع القبلات. كان لا يقول شيئًا عن الدوطة: - ضخمة جداً ! - ثروة المركيز داوليتا كلها ، ولا أقل. وسيكون المركيز ، بلا شك ، سعيداً جداً بتزويجها ، ليس فقط ليتخلص من بنتوجادا الذى كان يضايقه ، وإنما لأنه لم يكن هناك اتفاق كامل كذلك بين الجد والحفيدة ؛ فالمركيز ضعيف الطباع ، منغلق على عالمه البائد ، أما ببيتا فكانت قوية ، تشتعل حيوية.

ألم يدرك أنه كلما زاد من مدحه لببيتا هذه، زاد نفورى منها ، قبل أن أعرفها ؟ كان يقول إنى سأعرفها فى غضون بضع ليال ، لأنه سوف يجعلها تشترك فى جلسات تحضير الأرواح المقبلة . وسأعرف أيضًا المركيز چيليو داوليتا فهو يتوق إلى هذا لكثرة ما قال له ببيانو عنى . ولكن المركيز لم يعد يخرج من بيته ، ثم إنه لم يشترك فى إحدى جلسات الأرواح ، بسبب أفكاره الدينية .

سألته « وكيف هذا ؟ هو لا ، وفى الوقت نفسه يسمح لحفيدته بالاشتراك فيها ؟ »

هتف ببيانو ساخطًا « لأنه يعلم أنها فى أيد أمينة ! »

لم أرد أن أعرف المزيد . ولماذا كانت أدريانا ترفض الاشتراك فى تلك الجلسات ؟ بسبب وساوسها الدينية . والآن ، إذا ما اشتركت حفيدة المركيز چيليو فى تلك الجلسات بموافقة جدها المؤيد لرجال الدين ، ألا تستطيع هى أيضًا أن تشارك فيها ؟ وحاولت أنا - مستنداً إلى هذا - أن أقنعها ، فى اليوم السابق على الجلسة الأولى .

كانت قد دخلت حجرتى مع أبيها ، الذى ما أن سمع عرضى حتى تنهد قائلاً :

« لكننا مازلنا ندور فى هذا الفلك ، ياسيد مايس ! فالدين ، أمام هذه المسألة ، يصم أذنيه ويرفض، كما يفعل العلم. ومع هذا فتجاربنا - وقلت هذا وشرحته مراراً لابنتى - ليست إطلاقًا ضد هذا أو ذاك . بل إنها دليل على الحقائق التى يدافع الدين عنها . »

اعترضت أدريانا « وإذا كان الخوف ينتابنى ؟ »

رد الأب « مم تخافين ؟ من الدليل ؟ »

أضفت أنا : أم من الظلام ؟ كلنا هنا ، معك ، ياآنسة -! أتريدين الغياب وحدك؟

أجابت أدريانا مضطربة : ولكنى ، لا أعتقد فى هذه الأمور ، نعم ... لا يمكننى أن أصدقها، و ... من يعلم ؟!

لم تستطع إضافة شىء آخر . ومن نغمة صوتها ، ومن حرجها ، أدركت أنا أن الدين ليس فقط هو الذى يمنع أدريانا من حضور تلك الجلسات . والخوف الذى تحدثت عنه كذريعة، هل يمكن أن تكون له أسباب أخرى ، لا يعلمها السيد أنسلمو . أم أنه كان من المؤلم لها أن تحضر مشهداً لأبيها يثير الإشفاق وهو يقع ضحية، بشكل صبيانى ، لخداع ببيانو والآنسة كابورالى ؟

لم تواتنى الشجاعة للإلحاح أكثر من هذا .

ولكنها ، وكأنها قرأت ما فى قلبى من أسى يسببه لى رفضها ، أفلتت منها فى الظلام.

« ثم ... » فالتقطتها على الفور .

« آه ، أنت شجاعة -! إذن فهل ستكونين معنا ؟ »

أذعنت وهى تبتسم « لمساء الغد فقط . »

وفى اليوم التالى ، وفى ساعة متأخرة ، جاء ببيانو لتجهيز الحجرة، وأدخل بها منضدة مستطيلة من خشب الحور بلا أدراج ، وغير مدهونة ، وضئيلة القيمة ؛ أفرغ ركنًا من أركان الحجرة ، وعلق فيه ملاءة على أحد الحبال ؛ ثم جاء بجيتار ، وبطوق كلب به أجراس كثيرة وأشياء أخرى . جرت هذه الاستعدادات على ضوء المصباح المشهور ذى الزجاج الأحمر . وفى أثناء تحضير الغرفة لم يتوقف - وهذا مفهوم - لحظة واحدة عن الكلام .

« الملاءة تستخدم ، تستخدم ... لا أدرى ، لاختزال تلك الطاقة العجيبة : ستراها تتحرك، ياسيد مايس ، وتنتفخ مثل قلع مركب ، وتستضىء أحيانًا بنور غريب ، وكأنه

نور فلكى . نعم ياسيدى ! لم ننجح بعد فى الحصول على "أشياء مادية" ، ولكننا حصلنا نعم على أنوار، وستراها لو أن الآنسة سيلڤيا وجدت نفسها فى هذه الليلة فى حالة طيبة . إنها تتصل بروح زميل قديم فى الأكاديمية ، مات بالسل – حفظنا الله – وهو فى الثامنة عشرة من العمر . كان من ... لا أدرى ، من بازيليا ، على ما يبدو لى ، ولكنه كان يقيم فى روما منذ وقت طويل، مع عائلته . كان عبقريًا فى الموسيقى ، اختطفه الردى بميتة قاسية قبل أن يأتى بثماره . هذا على الأقل ما تقوله الآنسة كابورالى . كانت تتصل بروح ماكس كذلك قبل أن تعلم أنها تتمتع بموهبة الوسيط الروحانى ، نعم بماكس ... ماكس أوليز ، إن لم أخطئ . نعم ياسيدى -! كانت هذه الروح تتقمصها فترتجل على البيانو ، حتى تسقط أرضًا ، مغمى عليها ، فى لحظات معينة . وفى إحدى الليالى تجمع الناس أيضًا ، فى الطريق ، وصفقوا لها ... »

أضفت أنا بهدوء « وأصيبت الآنسة كابورالى بالخوف تقريبًا . »

قال ببيانو متعجبًا « أه ، أتعلم هذا ؟ »

« قالت لى هى نفسها هذا ... وبناء عليه فهل هم صفقوا لموسيقى ماكس التى عرفتها أنامل الآنسة كابورالى ؟ »

« طبعًا ، طبعًا ! للأسف ، ليس لدينا بيانو فى البيت . ويجب علينا أن نرضى بلحن قصير، وبإشارة طفيفة تعزفها على الجيتار . إن ماكس يغضب ، هه -! يغضب لدرجة أنه ينزع الأوتار ، فى بعض الأحيان ... لكنك ستسمع الليلة ، يبدو لى أن كل شىء مرتب الآن . »

أردت أن أسأله قبل أن ينصرف « قل لى ، يا سيد ترنسيو . هذا فضول منى ، هل تعتقد حقًا ؟ هل تعتقد فعلاً ؟ »

أجابنى فورًا ، وكأنه كان يتوقع السؤال « الحقيقة أنى لا أستطيع الرؤية بوضوح.»

« طبعًا ، أتحدى ! »

« آه ، ولكن انتبه ، ليس لأن الجلسات تجرى فى الظلام ! فالظواهر والظهورات حقيقية، لا جدال فى هذا ، ولا يمكن إنكارها . ونحن لا يمكننا أن نشك فى أنفسنا ...»

« ولم لا ؟ بل ! »

« كيف ؟ لا أفهم ! »

« ننخدع بسهولة ! وبخاصة عندما يعجبنا أن نعتقد فى شىء ما ... »

اعترض ببيانو « لكن ، أنا ، لا ، لا يعجبنى ! إن حماى ، الذى غاص داخل هذه الدراسات . يؤمن بها . أما أنا ، فمن بين الأسباب ، أنه ليس لدى الوقت للتفكير فى هذا ... ولو كانت لدى الرغبة . عندى عمل كثير ، كثير ، مع بوربون المركيز الملاعين أولئك ، الذين يشغلوننى تماماً ! أضيع هنا إحدى الأمسيات . ومن ناحيتى فإننى أظن أننا مادمنا قد ظللنا أحياء بنعمة الله فلن نستطيع أن نعرف شيئًا عن الموت ؛ وبالتالى ، ألا يبدو لك من العبث أن نفكر فيه ؟ فلنفكر فى أن نحيا حياة أفضل بدلاً من هذا ، يا إلهى القدوس! هذا هو رأيى، ياسيد مايس . إلى اللقاء ، أليس كذلك ؟ الآن أنصرف لآخذ الآنسة بنتوجادا من شارع بونتفيشى . »

وعاد بعد حوالى نصف الساعة ، متضايقًا جدًا ، مع الآنسة بنتوجادا والمربية جاء رسام إسبانى ، قدمه لى من بين أسنانه ، صديقًا لعائلة چيليو . كان يدعى مانويل برنالديز ، وكان يتحدث لغة إيطالية صحيحة ، ولكن لم نفلح فى أن نجعله ينطق بحرف السين الموجود فى لقبى ؛ كان فى كل مرة ، عند نطقه، يبدو كأنه يخشى أن يصيب لسانه جرح.

كان يقول ، وكأننا قد غدونا فجأة أصدقاء قدامى « أدريانو ماى . »

كدت أنا أرد عليه « أدريانو توى [1]. »

---

(١) أدريانو ماى ... أدريانو توى : تلاعب بالألفاظ بين (mei و tui) وهما من صيغ الملكية أو الإضافة باللاتينية (المترجم) .

دخلت النساء : ببيتا ، والمربية ، والآنسة كابورالى وأدريانا .

قال لها ببيانو بعدم لياقة : « حتى أنت ؟ وما الجديد ؟ »

لم يكن يتوقع هذه التسديدة الأخرى . وفهمت أنا - على كلٍّ - من الطريقة التى قوبل بها برنالديز ، أن المركيز چيليو لم يكن على علم باشتراكه فى الجلسة ، وأنه لابد أن تكون هناك مكيدة ما مع ببيتا.

ولكن ترنسيو العظيم لم يتخل عن خطته ؛ فعند ترتيبه لسلسلة الوساطة الروحية حول المنضدة ، أجلس أدريانا بجانبه ووضع بجانبى الآنسة بنتوجادا .

ألم أكن راضيًا ؟ لا . ولم تكن ببيتا راضية كذلك . وتمردت فورًا وهى تتكلم مثل والدها تمامًا :

« شكرًا جزيلاً ، هذا غير ممكن ! أنا أريد الجلوس بين السيد بليارى ومربيتى ، ياعزيزى السيد ترنسيو ! »

كانت الظلمة الحقيقية المائلة للون الأحمر تكاد تسمح بتمييز مجمل الأشكال ؛ وهكذا لم أستطع أن أرى إلى أى حد تتفق الصورة التى رسمها لى ببيانو عن الآنسة بنتوجادا مع الواقع، ولكن تقاطيعها وصوتها وتمردها السريع كانت تتفق تمام الاتفاق مع الفكرة التى كونتها عنها بعد وصفه لها .

من المؤكد ، أن رفض الآنسة بنتوجادا المكان الذى حدده لها ببيانو بجانبى بغضب ، كان إهانة لى ، ولكنى لم أغضب ، بل كنت سعيدًا أيضًا .

هتف ببيانو « صحيح جدًا ! إذن يمكننا أن نجلس هكذا ، بجانب السيد مايس لتجلس السيدة كانديدا ، ثم تأخذين مكانك ، ياآنسة . وليبق حماى فى مكانه ، ونحن الثلاثة نبقى هكذا، فى مكاننا نفسه . هل هذا حسن ؟ »

لا ! حتى هذا الترتيب لم يكن جيدًا؛ لا بالنسبة لى ، أو بالنسبة للآنسة كابورالى ، أو لأدريانا ، أو - كما رأينا بعد قليل - لببيتا ، التى جلست فى مكان أفضل كثيرًا فى ترتيب جديد للسلسلة قام به روح ماكس العبقرى .

في تلك اللحظة، رأيت بجانبي تقريبًا شبح امـرأة، وفـوق رأسـها تل صغـير (هل كانت قبعة؟ أم كوفية ؟ أم باروكة ؟ ماذا كانت ؟) . ومن تحت تلك الحمولة الضخمة كانت تخرج من وقت إلى آخر تنهدات تنتهى بتأوه قصير . لم يفكر أحد فى أن يقدمنى إلى السيدة كانديدا تلك : والآن ، ولكى يتم عمل السلسلة كان علينا أن يمسك كل منا بيد الآخر ، وكانت هى تتنهد . لم يحز إعجابها ، نعم . ياالله ، يالها من يد باردة !

بيدى الأخرى كنت أمسك بيد الآنسة كابورالى اليسرى التى كانت تجلس على رأس المنضدة ، وخلفها الملاءة المعلقة فى الركن ؛ وكان ببيانو يمسك بيمناها . وبجانب أدريانا من الناحية الأخرى ، كان يجلس الرسام ؛ وكان السيد أنسلمو عند رأس المنضدة من الجهة المقابلة ، أمام كابورالى تمامًا .

قال ببيانو :

« ينبغى أن نشرح قبل كل شىء للسيد مايس وللآنسة بنتوجادا اللغة الخاصة . ما اسمها؟ »

« لقنه السيد أنسلمو : لغة الطَّرَقَات . »

تحمست السيدة كانديدا ، وهى تتململ على مقعدها « معذرة ، ولى أنا أيضًا . »

« صحيح تمامًا ! وكذلك للسيدة كانديدا ، معلوم ! »

أخذ السيد أنسلمو فى الشرح « هكذا ، طرقتان تعنيان نعم ... »

قاطعته ببيتا « طَرْق ؟ أى طَرْق ؟ »

أجاب ببيانو « طَرَقَات ، أو خبطات على المنضدة ، أو على الكراسى أو فى أماكن أخرى أو نحس بها من خلال لمسات . »

هتفت عندئذ تلك فى تسرع وهى تهب على قدميها « آه لا – لا – لا – لا – لا ! أنا لا أحب اللمسات . ممن ؟ »

شرح لها ببيانو « لكنها لمسات من روح ماكس ، ياآنسة . أشرت إليك بهذا ونحن قادمون ، وهى غير مؤلمة ، اطمئنى . »

أردفت السيدة كانديدا بلهجة حنونة ، كامرأة أعلى شأنًا « طرقات . »

استطرد السيد أنسلمو « إذن ، طرقتان ، نعم ؛ ثلاث طرقات ، لا ؛ أربع ، ظلام ، خمس ، تكلموا ؛ ست ، نور . سيكفى هذا . والآن فلنركز ، ياسادتى . »

ساد الصمت وركزنا .

(١٤)

جسارة ماكس

جزع ؟ لا . ولا مجرد هاجس . ولكن فضولاً قويًا كان يشملنى ، وكذلك خشية معينة، أن يكون بييانو على وشك أن يظهر بمظهر سيئ . كان على أن أستمتع بهذا ؛ ولكن ، لا . من ذا الذى لا يتألم أو بالأحرى لا يشعر بمهانة شديدة عندما يحضر مسرحية كوميدية يمثلها ممثلون لا خبرة لهم تمثيلاً سيئًا ؟

كنت أفكر : « هناك أمران ، إما أنه ماهر جدًا ، وإما أن إصراره على أن تكون أدريانا بجواره لا يجعله يرى بوضوح أين يضع نفسه ، ليترك برنالديز وبيبيتا ، ويتركنى وأدريانا غير واقعين فى شرك الوهم ، وبالتالى قادرين على أن ندرك ، دونما تلذذ ، ودونما مقابل ، خداعه واحتياله . وستلاحظ هذا أكثر من غيرها أدريانا التى تجلس بجانبه ؛ ولكنها تشك مسبقًا فى الاحتيال وتعد نفسها له . ولعلها فى هذه اللحظة ، إذ لم تستطع الجلوس بجانبى ، تتساءل لماذا تبقى هناك لتشاهد مشهدًا هزليًا وهو بالنسبة لها ليس تافهًا فقط، وإنما غير لائق ومدنس لعقيدتها كذلك . ومن المؤكد أن برنالديز وبيبيتا، من ناحيتهما، يطرحان على نفسيهما السؤال نفسه . كيف لا يدرك بييانو هذا ، وقد رأى أنه فشل فى خطته بأن يضع بجانبى الآنسة بنتوجادا ؟ هل يثق هذه الثقة كلها فى مهارته ؟ فلننتظر» .

بينما كنت أقوم بهذه التأملات ، لم أفكر مطلقًا فى الآنسة كابورالى وفجأة ، أخذت هى تتكلم وكأنها فى حالة خفيفة بين اليقظة والمنام .

قالت « السلسلة ، يجب تغيير السلسلة ... »

سأل السيد أنسلمو ، ذلك الرجل الطيب ، فى لهفة « هل حضر ماكس ؟ »

تمهلت كابورالى وقتًا قبل أن ترد ، ثم قالت بألم ، وكأنها تلهث « نعم . ولكننا كثيرون ، هذه الليلة ... »

اندفع ببيانو « نعم ، هذا حق . ولكن يبدو لى ، أن ترتيبنا هذا جيد جداً. »

نبه بلياري : « صه ! فلنسمع ما يقول ماكس . »

أردفت كابورالى « السلسلة ، لا تبدو له متوازنة توازنًا جيداً . هنا ، فى هذه الناحية (ورفعت يدى) توجد امرأتان بجانبه . من الأفضل أن يأخذ السيد أنسلمو مكان الآنسة بنتوجادا ، والعكس صحيح . »

هتف السيد أنسلمو وهو ينهض واقفًا « حالاً ! تفضلى ، ياآنسة ، اجلسى هنا ! » ولم تتمرد ببيتا ، هذه المرة . غدت بجوار الرسام .

وأضافت كابورالى « ثم ، السيدة كانديدا ... »

قاطعها ببيانو :

« فى مكان أدريانا ، أليس كذلك ؟ لقد فكرت فى هذا . حسن جداً ! »

ضغطت بقوة ، وبقوة ، وبقوة على يد أدريانا حتى آلمتها ، بمجرد أن جاءت لتأخذ مكانها بجوارى . وفى الوقت نفسه كانت الآنسة كابورالى تضغط على يدى الأخرى ، وكأنها تسألنى : «هل أنت سعيد هكذا ؟» . أجبتها بضغطة أخرى «طبعًا ، سعيد جداً» وكانت ضغطتى تعنى كذلك : « والآن اعملوا ، وافعلوا ما تشاءون !» .

فى تلك اللحظة أمر السيد أنسلمو « الصمت ! »

ومن تنفس ؟ من ؟ المنضدة ! أربع طرقات « ظلام ! »

أقسم أنى لم أسمعها .

إلا أنه ، ما إن أطفئ المصباح ، حتى حدث شىء شوش فجأة تصوراتى كلها . فقد أطلقت الآنسة كابورالى صرخة مدوية ، جعلتنا كلنا نقفز من مقاعدنا .

« نور ! نور !. »

« ماذا حدث ؟ »

لكمة ! تلقت الآنسة كابورالى لكمة على فمها ، لكمة هائلة ؛ كانت لثتها تنزف .

قفزت ببيتا والسيدة كانديدا على أقدامهما ، وقد أصابهما الهلع . ووقف ببيانو كذلك ليوقد المصباح . وسحبت أدريانا يدها فوراً من يدى . وكان برناليدز بوجهه الأحمر ، لأنه كان ممسكًا بين أصابعه بعود ثقاب ، يبتسم وهو بين مندهش وغير مصدق ، بينما كان السيد أنسلمو مهتمًا وهو مرتاع بأن يكرر :

« لكمة ! وما تفسير هذا ؟ »

كنت أنا أيضًا أتساءل ، مضطربًا . لكمة ؟ إذن لم يكن تغيير الأماكن متفقًا عليه مسبقًا بين الاثنين . لكمة ؟ إذن تمردت الآنسة كابورالى على ببيانو . والآن ؟

والآن ، بعد أن نحت كابورالى مقعدها وضغطت بمنديل على فمها ، أخذت تحتج بأنها لا تريد الاستمرار . وكانت ببيتا بنتوجادا تصرخ :

« شكراً ، يا سادة ! شكراً ! هنا توجه اللكمات ! »

هتف بلياري « لا ! لا ! ياسادتى ، هذا أمر جديد ، وغريب جداً ! يجب أن نطلب له تفسيراً . »

سألت أنا « من ماكس ؟ »

« طبعًا ، من ماكس ! هل أنت ، ياعزيزتى سيلڤيا ، فسرت طلباته خطأً بالنسبة لترتيب السلسلة ؟ »

هتف برناليدز ، وهو يضحك « من المحتمل ! من المحتمل ! »

سألنى بلياري الذى لم يكن برناليدز ينال إعجابه «وأنت ياسيد مايس، ماذا تظن؟»

قلت أنا « طبعًا ، من المؤكد ، يبدو هذا . »

ولكن كابورالى نفت نفيًا قاطعًا برأسها .

واستطرد السيد أنسلمو « وإذن ؟ كيف نفسر هذا ؟ ماكس عنيف ! ومتى كان كذلك؟ ماذا تقول فى هذا ، ياترنسيو ؟ »

لم يقل ترنسيو شيئًا ، وهو فى حماية العتمة ، رفع كتفيه ، وكفى .

عندئذ قلت أنا لكابورالى « هيا ، هل نريد إرضاء السيد أنسلمو ، ياآنسة ؟ فلنطلب من ماكس تفسيرًا ، وإذا ما ظهر من جديد أنه روح ... بلا روح ، فسنترك الأمر. هل كلامى حسن ، ياسيد ببيانو ؟ »

أجاب ببيانو « حسن جدًا . فلنسأله ، لنسأله . أنا مستعد . »

فردت كابورالى متجهة إليه ردًا مفحمًا « ولكنى أنا لست مستعدة ، هكذا ! »

قال ببيانو « تقولين هذا لى ؟ إذا كنت تريدين ترك الجلسة ... »

جازفت أدريانا بخجل « نعم ، قد يكون هذا أفضل . »

ولكن السيد أنسلمو وبخها فورًا :

« ها هى الخائفة . إنها سلوكيات صبيانية ! معذرة ، أقول هذا لك أنت أيضًا ياسيلفيا ! أنت تعرفين جيدًا الروح، فهو مألوف لديك، وتعلمين أن هذه هى أول مرة ... سيكون من الخطأ! لأنه – على الرغم من أن هذا الحادث مؤسف غاية الأسف – فإن الظواهر كانت تشير فى هذه الليلة إلى ظهورها بطاقة غير عادية . »

هتف برنالديز وهو يضحك ويسعى لإضحاك الآخرين « زيادة عن اللازم ! »

أضفت « وأنا ، لا أريد أن أنال لكمة على هذه العين ... »

أضافت ببيتا « ولا أنا أيضًا ! »

عندئذ أمر ببيانو بحسم « اجلسوا ! ولنتبع نصيحة السيد مايس . فلنحاول أن نطلب تفسيرًا. فإذا كانت الظواهر عنيفة من جديد ، سنتوقف . اجلسوا ! »

ونفخ فى المصباح .

بحثت فى الظلام عن يد أدريانا ، وكانت باردة ومرتعشة . ومراعاة لخوفها لم أضغط عليها فى البداية؛ ورويدًا رويدًا ، وبالتدريج، ضغطت عليها، وكأنى أبعث فيها حرارة، ومع الحرارة ، الثقة فى أن كل شىء سيمضى الآن فى هدوء . لم يكن هناك شك، فى الواقع، أن ببيانو ربما قد ندم على العنف الذى ترك له العنان، فغير مسلكه. على كل حال سنحصل على فترة من الهدنة ، وبعدها ربما نصير أنا وأدريانا ، فى هذا الظلام، هدف ماكس . قلت لنفسى : « حسنًا ، لو صار اللعب ثقيلاً ، فسنجعله يستمر قليلاً . ولن أسمح بأن يصيب أدريانا الانزعاج» .

فى تلك الأثناء كان السيد أنسلمو قد أخذ فى الحديث مع ماكس ، تمامًا مثلما يجرى الحديث مع شخص حقيقى ، موجود هنالك .

« هل أنت موجود ؟ »

طرقتان خفيفتان ، فوق المنضدة . كان حاضرًا !

سأله بليارى ، بلهجة عتاب لطيف « وكيف حالك ، ياماكس ، ولماذا ، وأنت طيب ولطيف جداً، عاملت الآنسة سيلفيا معاملة سيئة ؟ هل تريد أن تقول لنا هذا ؟ »

فى هذه المرة اهتزت المنضدة فى البداية شيئًا ما، ثم دوت ثلاث طرقات قوية حاسمة فى وسطها. ثلاث طرقات : إذن ، لا ، لم يكن يريد أن يقول لنا السبب .

رضخ السيد أنسلمو« لن نلح . ألازلت غاضبًا غضبًا طفيفًا ، ياماكس ؟ إنى أشعر بهذا، وأعرفك ... أعرفك ... هل تريد أن تقول لنا إن كنت راضيًا عن السلسلة بترتيبها هذا ؟ »

لم يكد بليارى أن ينتهى من هذا السؤال ، حتى شعرت بضربتين سريعتين على جبهتى ، وكأنهما طرقتان بطرف أحد الأصابع .

هتفت فى الحال ، لإبلاغ ما حدث ، وضغطت على يد أدريانا « نعم ! »

ويجب أن أعترف أن تلك "الطرقة" غير المنتظرة قد تركت فيّ ، في تلك اللحظة ، انطباعًا غريبًا . كنت متأكدًا أنني لو كنت رفعت يدي في تلك اللحظة لأمسكت بيد بيبيانو ... ومع هذا ... كانت خفة اللمسة الرهيفة ودقتها رائعتين ، على أية حال . ثم ، أكرر ، إنني لم أكن أنتظر هذا . ولكن لماذا اختارني بيبيانو ليعلن استسلامه ؟ هل كان يريد بهذه الإشارة أن يهدئني ، أم أنها كانت على العكس من هذا تحديًا وتعني : «الآن سترى إن كنت راضيًا ؟»

هتف السيد أنسلمو « أحسنت ، ياماكس ! »

وقلت أنا في نفسي :

«أحسنت ، نعم ! كم أود أن أصفعك صفعًا كثيرًا على قفاك !».

استأنف صاحب البيت حديثه « والآن ، إن لم يضايقك هذا ، فهل تعطينا إشارة على رضاك عنا ؟ »

خمس طرقات على المنضدة أمرتنا : « تكلموا ! »

سألت السيدة كانديدا ، خائفة « ماذا تعني ؟ »

فسر بيبيانو بهدوء « إنه ينبغي أن نتكلم . »

وقالت بيبيتا :

« مع من ؟ »

« مع من تريدين ، ياآنسة ؟ تكلمي مع جارك ، مثلاً . »

« بصوت عال ؟ »

قال السيد أنسلمو « نعم . إن هذا يعني ، ياسيد مايس ، أن ماكس يعد لنا في هذه الأثناء ظهورًا جميلاً ، ربما نورًا ... من يدري ! فلنتكلم ، لنتكلم ... »

ومـاذا نقـول ؟ منذ وقت كنت أنا أتكلم مع يد أدريانا ، ولم أكن أفكر ، للأسـف ، لم أكن أفكر فى أى شىء ! كنت أجرى مع تلك اليد الرقيقة حديثًا عميقًا وضاغطًا ومع هذا رقيقًا ، وكانت هى تنصت إليه مرتجفة ومستسلمة ؛ كنت قد أجبرتها أن تترك لى أصابعها لتتشابك مع أصابعى . كانت نشوة متقدة قد تملكتنى وهى تستمتع بلوعة كبت فيض أشواقها لكى تعبر عن ذاتها ، على العكس من هذا ، بحنان رقيق يليق بصفاء تلك النفس الحلوة الخجولة .

والآن ، وبينما كانت يدانا تجريان هذا الحديث الفياض ، بدأت أشـعر بحكة فى العارضة بين قائمى الكرسى الخلفيين ، واضطربت . لم يكن ببيانو قادرًا على الوصول بقدمه إلى هناك ، وإن وصل ، لوقفت عارضة القائمين الأماميين عائقًا فى سبيله . فهل قام عن المنضدة ، وجاء خلف مقعدى ؟ ولكن ، فى هذه الحالة ، كانت السيدة كانديدا ستلاحظ هذا، إن لم تكن بلهاء حقيقة . وقبل أن أنقل للآخرين هذه الظاهرة ، أردت أن أستوضحها بطريقة أو بأخرى ؛ ولكنى فكرت بعـد هذا أنه مادامت قد حصلت على ما كنت أريد ، فإنه ينبغى على الآن، ومن المناسب لى أن أتتبع الاحتيال ، بلا تعطيل آخر ، حتى لا أثير ببيانو بشكل أكبر . وبدأت أقول ما كنت أشعر به .

هتف ببيانو ، من مكانه ، بدهشة بدت لى صادقة « صحيح ؟ »

ولم تظهر الآنسة كابورالى اندهاشًا أقل .

أحسست بشعرى يرتفع فوق جبهتى . هل كانت هذه الظاهرة حقيقية إذن ؟

سأل السيد أنسلمو منزعجًا « حكة ؟ كيف ؟ كيف ؟ »

أكدت فى غضب « نعم ! وتستمر ! وكأن كلبًا صغيرًا يوجد هنا خلفى ! ... »

استقبلت شرحى هذا ضحكات عالية .

صاحت ببيتا بنتوجادا « إنها مينرڤا ! إنها مينرڤا . »

سألت ، فى خزى « ومن هى مينرڤا ؟ »

استطـردت ببيتا الحديث وهى لا تزال تضحك « إنها كلبتى الصغيرة ! إنها كلبتى العجوز ، ياسيدى ، تحك جسمها هكذا تحت الكراسى كلها . عن إذنكم ! عن إذنكم ! »

أشعل برنالديز عود ثقاب آخر ، ونهضت ببيتا لتأخذ تلك الكلبة ، والتى كانت تدعى مينرڤا ، لتضعها فى حجرها .

قال السيد أنسلمو متضايقًا « الآن أفهم ، الآن أفهم سر غضب ماكس . تنقصنا الجدية الليلة ! »

كان هذا ، بالنسبة للسيد أنسلمو، صحيحًا ، ولكن لم تكن هناك – فى الحقيقة – جدية أكبر ، بالنسبة لنا ، فى الليالى التالية ، بخصوص جلسات تحضير الأرواح ، وهذا هو المقصود.

من استطاع بعد ذلك أن يتنبه إلى أعمال ماكس الشجاعة فى الظلام ؟ كانت المنضدة تقرقع ، وتتحرك ، وتتكلم بضربات قوية أو خفيفة ؛ وكنا نسمع ضربات أخرى على عوارض كراسينا، وهنا وهناك، على أثاث الحجرة ، وحك ، وجر ، وضجيج آخر ، وأنوار فسفورية غريبة ، مثل الأنوار المنبعثة من المقابر، كانت تظهر للحظة وتسرى ، وكانت الملاءة أيضًا تستنير وتنتفخ مثل قلع مركب ، ومنضدة صغيرة يوضع عليها السيجار، تجولت عدة جولات فى أنحاء الحجرة ، بل وقفزت مرة على المنضدة التى كنا نجلس حولها ؛ وطارت آلة الجيتار، وكأنها صارت ذات أجنحة ، من فوق الصندوق الموضوعة عليه وجاءت لتعزف فوق رؤوسنا ... ولكن بدا لى أن ماكس كان يظهر مواهبه الموسيقية السامية بشكل أفضل بأجراس طوق الكلب الذى وضع فى لحظة ما حول رقبة الآنسة كابورالى ؛ مما بدا للسيد أنسلمو أنها مداعبة ودودة ولطيفة من جانب ماكس ، ولكن الآنسة كابورالى لم ترحب بها كثيرًا .

كان من الواضح أن شيبيونى ، شقيق ببيانو ، قد دخل فى المشهد ، تحت ستار الظلام، بتعليمات محددة . كان مصابًا بالصرع حقيقة ، ولكنه لم يكن أبله بالدرجة

التى كان أخوه ترنسيو وهو نفسه يريدان أن يوهما بها الآخرين . وباعتياده الطويل على العتمة ، صارت عيناه بالضرورة قادرتين على الرؤية فى الظلام . وفى الحقيقة ، لا أستطيع أن أقول إلى أى مدى كان يظهر براعته فى حيله التى كان يرتبها مسبقًا مع أخيه ومع كابورالى ؛ كان يمكنه بالنسبة لنا ، أى بالنسبة لى ولأدريانا ، وبالنسبة لببيتا وبرنالدين، أن يفعل ما يشاء ، وكان كل شىء حسنًا ، كيفما كان يفعله ، لم يكن عليه إلا إرضاء السيد أنسلمو والسيدة الأخرى. أوه ، كان السيد أنسلمو يبتهج فرحًا ؛ وكان يبدو فى لحظات معينة صبيًا فى مسرح العرائس؛ وعند صياحه صياحًا صبيانيًا، كنت أتألم ، ليس فقط للامتهان الذى كانت تسببه لى رؤية رجل ، غير أبله بكل تأكيد، يظهر بهذا المظهر غير الحقيقى؛ وإنما كذلك لأن أدريانا كانت تجعلنى أدرك أنها تشعر بالندم على الاستمتاع على حساب وقار أبيها ، باستغلال طيبته المثيرة للضحك.

كان هذا فقط هو ما يكدر من وهلة إلى أخرى فرحتنا . ومع هذا فكان لابد أن يواتينى الشك، لمعرفتى ببيانو، من أنه إذا كان قد أذعن لبقاء أدريانا بجوارى، ولم يدع روح ماكس تزعجنا أبدًا، على عكس مخاوفى، بل وبدا كأنه يساعدنا ويحمينا، فلابد أنه قد قام بتنفيذ فكرة معينة أخرى. ولكن الفرحة التى جلبتها لى الحرية، التى لم يكدرها إزعاج فى الظلام، كانت فرحة بالغة حتى أن هذا الهاجس لم يخطر لى إطلاقًا.

صرخت الآنسة بنتوجادا فى لحظة ما « لا ! »

وعلى الفور سألها السيد أنسلمو :

« قولى ، قولى ، ياآنسة . ماذا جرى ؟ بماذا شعرت ؟ »

ودفعها برنالدين كذلك بحماس إلى الكلام ؛ وعندئذ قالت ببيتا :

« بلمسة هنا ... »

سألها بليارى « باليد ؟ لمسة رقيقة ، أليس كذلك ؟ لمسة باردة وسريعة ورقيقة ... أوه، إن ماكس ، يعرف كيف يكون لطيفًا مع النساء ، عندما يشاء ! لنرَ ، ياماكس هل تستطيع أن تكرر ملاطفتك للآنسة ؟ »

أخذت ببيتا تصرخ فوراً وهى تخور « إنها هنا ! إنها هنا ! »

سأل السيد أنسلمو « ماذا يعنى هذا ؟ »

« يكرر ، يكرر ... يلاطفنى ! »

عندئذ طلب بلياري « ياماكس ، هل تقبلها ؟ »

وصاحت ببيتا ، من جديد « لا ! »

ولكن قبلة رنانة قرقعت على وجنتها.

ورفعت يد أدريانا عندئذ ، بلا إرادة ، إلى فمى ؛ ثم لم أكتف بهذا ، فانحنيت أبحث عن فمها ، وكانت أول قبلة ، قبلة صامتة دامت طويلاً ، تبادلناها معاً.

وماذا جرى بعد ذلك ؟ كان لابد أن يمر وقت حتى يمكننى أن أفيق من اضطرابى وخجلى، وسط هذه الفوضى الفجائية ، هل لاحظوا قبلتنا تلك ؟ كانوا يصيحون : عود ثقاب ، عودان ، مشتعلان ؛ ثم الشمعة أيضاً ، تلك الشمعة نفسها التى كانت بداخل الفانوس ذى الزجاج الأحمر . وجميعهم واقفون ! لماذا ؟ لماذا ؟ طرقة كبيرة ، طرقة هائلة ، وكأنها صادرة عن قبضة عملاق خفى ، قصفت المنضدة ، هكذا ، فى النور . ذهلنا كلنا ، وزاد ذهول ببيانو والآنسة كابورالى عن الجميع :

نادى ترنسيو « ياشيبيونى ! ياشيبيونى ! »

كان المريض بالصرع قد سقط على الأرض يحشرج حشرجة غريبة.

صرخ السيد أنسلمو «جلوس! لقد سقط فى حالة نشوة هو أيضاً. ها هى، ها هى المنضدة تتحرك ، وترتفع ، ترتفع ... الارتفاع ! شاطر ، ياماكس ! يحيا ماكس ! »

وارتفعت المنضدة فى الحقيقة ، دون أن يلمسها أحد ، ارتفعت بمقدار شبر عن الأرض، ثم سقطت بثقلها .

وجاءت كابورالى ممتقعة ومرتعدة ومرتعبة لتخفى وجهها فى صدرى . وهربت الآنسة بنتوجادا ومربيتها من الحجرة ، بينما كان بليارى يصرخ مهتاجًا :

« لا ، تعالوا هنا ، بالله عليكم ! لا تكسروا السلسلة ! الآن يأتى ما هو أفضل ! ماكس ! ماكس ! »

هتف ببيانو وهو يهتز أخيرًا من الخوف الذى ثبته فى مكانه ، وهرع إلى أخيه لكى يهزه ويفيقه « ماكس ، من ياهذا ؟ »

اختنقت ذكرى القبلة لحظتها بداخلى من الدهشة التى أصابتنى بسبب ذلك الكشف الغريب والغامض حقيقة الذى شهدته . فلو أن القوة الغامضة ، كما كان بليارى يؤكد ، والتى عملت فى تلك اللحظة ، فى النور ، وتحت ناظرى ، كانت نابعة من روح خفية ، فمن الواضح أن هذه الروح لم تكن روح ماكس ، كان يكفى النظر إلى ببيانو والآنسة كابورالى حتى أقتنع بهذا . فماكس ذاك ، اخترعاه هما . فمن الذى عمل إذن ؟ من الذى ضرب هذه اللكمة الهائلة فوق المنضدة ؟

طفرت فى اضطراب إلى ذهنى كثير من القراءات التى قرأتها فى كتب بليارى ؛ وأصابتنى رعدة ، وأنا أفكر فى ذلك المجهول الذى غرق فى قناة طاحونة ستيا ، الذى حرمته من بكاء الأقرباء والغرباء.

قلت فى نفسى « لو كان هو ! لو جاء هو لزيارتى هنا ، ليقتص منى ، بأن يكشف شيئًا ... » .

فى ذلك الوقت كان بليارى ، هو الوحيد الذى لم يشعر بالاندهاش أو الفزع ، ولم يستطع حتى ذاك أن يقتنع كيف أن ظاهرة بسيطة وشائعة مثل ارتفاع المنضدة يمكن أن تؤثر فينا هذا التأثير الكبير بعد تلك العجائب التى شهدناها من قبل. وبالنسبة له كان ظهور هذه الظاهرة فى النور أمرًا قليل الأهمية . ولكنه لم يجد تفسيرًا لوجود شيبيونى هناك ، فى حجرتى ، بينما كان يعتقد أنه أوى إلى فراشه .

كان يقول « إن هذا يدهشنى ، لأن هذا المسكين لا يهتم عادة بشىء . ولكن من المشاهد أن جلساتنا الغريبة هـذه قد أثارت فضـوله ، لعله دخل متلصصاً ، وعندئذ ، تم الإمسـاك به ! لأنه لا يمكن أن ننكر ، ياسيد مايس ، أن ظواهر الوساطة الروحية غير العادية تستمد أصولها فى الأغلب من عصاب الصرع ، والإغماء ، والهستيريا . وماكس يأخذ من الكل، ويسحب منا جانباً كبيراً من الطاقة العصبية ، ويستخدمها فى إنتاج الظواهر . هذا مؤكد. ألا تشعر أنت أيضاً ، فى الواقع ، وكأن أحدهم قد انتزع منك شيئًا ؟ »

« حتى الآن لا ، لأقول الحق . »

حتى الفجر تقريباً تململت فى فراشى ! وأنا أتخيل ذلك التعيس المدفون فى مقابر ميرانيو، باسمى . من هو ؟ ومن أين أتى ؟ ولماذا قتل نفسه ؟ لعله كان يريد أن يعلم الناس بنهايته التعيسة ؛ لعله كان إصلاحًا أو كفارة ... وقمت أنا باستغلاله ! ولأكثر من مرة ، فى الظلام تجمدت خوفًا ، أعترف بهذا ، تلك اللكمة على المنضدة ، فى حجرتى ، لم أسمعها أنا وحدى . هل وجهها هو ؟ هل لم يزل موجوداً هنا ، فى هذا السكون ، حاضراً وخفياً بجانبى؟ كنت أرهف السمع ، إذا حدث أن التقطت صوتًا فى الحجرة . ثم نمت ورأيت أحلاماً مفزعة .

وفى اليوم التالى فتحت النوافذ للنور .

(١٥)

أنا وخيالى

حدث لى أكثر من مرة، عندما استيقظت فى قلب الليل (والليل، فى هذه الحالة، لا يظهر حقيقة أن له قلبا)، أن شعرت، فى الظلام، وفى السكون، بتعجب غريب، وبخيرة غريبة عند تذكر شىء حدث فى أثناء النهار، فى النور، دون تبصر؛ وعندئذ تساءلت إن كانت لا تتبارى كذلك، فى تحديد أفعالنا، الألوان، ورؤية الأشياء المحيطة بنا، وصخب الحياة المتنوع . بلى - بلا شك - ومن يعلم كم من الأشياء الأخرى . ألا نحيا نحن «حسب رأى السيد أنسلمو»، مرتبطين بالكون ؟ والآن علينا أن نرى كم من الحماقات يدفعنا إلى اقترافها هذا الكون اللعين، ثم نعد وعيَنا المسكين مسئولاً عنها، وعيُنا الذى تجاذبته قوى خارجية، وأصابه بالعشى نور من خارجه . وعلى النقيض من هذا كم من القرارات تتخذ، وكم من الخطط ترسم، وكم من التدابير تحكم فى أثناء الليل، فلا تبدو باطلة ولا تتهاوى، ولا تتلاشى فى ضوء النهار؟ وكما أن النهار شىء، فإن الليل شىء آخر، ولعلنا هكذا نكون شيئًا نهاراً، وشيئًا آخر ليلاً ؛ شيئًا بائسًا جداً، للأسف، بالليل وكذلك بالنهار.

أعلم أنى عندما فتحت نوافذ غرفتى بعد أربعين يومًا، لم أشعر بأى فرح لرؤية النور من جديد، فذكرى ما فعلته فى تلك الأيام فى العتمة، عتّم الفرحة بشكل مفزع. الأسباب كلها والعلل جميعها والقناعات التى كان لها وزنها وقدرها فى تلك العتمة، لم يعد لها أى وزن، بمجرد أن فتحت النوافذ، أو صار لها وزن آخر، على النقيض تماماً. وعبثًا كان ذلك الأنا الذى بقى وقتا طويلاً والنوافذ مغلقة، وسعى بكل الوسائل لتخفيف

سـأم الأسـر الجنونى، الآن - هيـابًا مـثل كلب مضـروب - يذهب لدى ذلك الأنا الآخـر الذى فتح النوافذ ويستيقظ على ضوء النهار، متـجهمًا، جادًا، عنيفًا، عبثًا كان يـحاول أن يقصـيه عن الأفكار الكئيبة مغـريًا إياه بأن يرضى بالأحـرى، أمـام المرآة، بنتـيـجة العـملية الجيـدة، وباللحـية التى نمت من جديد وكذلك بالشـحوب الذى كان بشكل ما يجعل هيئتى لطيفة.

« ماذا فعلت أيها الأبله؟ ماذا فعلت؟ »

مـاذا فعلت أنا؟ لا شىء، لنكن منصفين! غازلتـهـا فى الظلام - وهل هذا ذنبى؟ - لم أر أى عائق، وفقدت ضـبط النفس الذى فرضته على نفسى. كان ببيانو يريد انتزاع أدريانا منى، وأعطتنى إياها الآنسة كابورالى، وجعلتها تجلس بجانبى، وتلقت لكمة على فـمـهـا، المسكينة! ؛ كنت أعـانى ومن الطبيـعـى كنت أعـتـقـد شـأنى شـأن كل منحـوس (اقْرَأها إنسان) أن من حقى أن أنال تعويضًا عن معاناتى تلك، ولأنه كان بجانبى، فقد أخذته ؛ هناك كانت تجرى جلسـات الموت، وأدريانا، بجانبى، كانت الحياة، الحياة التى تنتظر قبلة لتتفتح على الفرح؛ كان مانويل برنالديز قد قبل فى الظلام ببيتا، وعندئذ أنا أيضًا ...

«آه !»

ألقيت بجسدى على المقعد، ويدى على وجهى. كنت أشـعر بشفتى تتـحرقان لذكرى تلك القبلة. أدريانا! أدريـانا! أى آمـال أججـتـهـا فى قلبـهـا بهذه القبلة؟ عـروسـى أليس كذلك؟ بعد أن انفتحت النوافذ، ليحتفل الجميع!

بقيت وقتًا لا أعلم مقداره هنالك، فوق المقـعـد، أفكر، مـرة وعينـاى مغلقتـان، ومـرة أخرى وقد انكمشت فى غضب وكأنى أتوقى تقلصـات داخلية قوية. كنت أرى أخيرًا، أرى خداعَ وهمى بقساوته كلها: ما كان، حقيقةً، ذلك الذى بدا لى أكبر الحظوظ، فى نشوتى الأولى بتحررى.

كنت قـد اخـتـبـرت كيف أن حـريتى، التى بدت لى فى البـداية بلا حـدود، كـانت للأسـف مـحدودة فى عـدم وفرة مـالى ؛ ثـم لاحظت كذلك أنهـا يمكن أن تدعى بـالأحـرى

وحدة وسأم وأنها كانت تحكم على بعقوبة رهيبة ؛ عقوبة أن أكون في صحبة ذاتي، عند ذاك دنوت من الآخرين، ولكن التصميم على الاحتراس من وصل الخيوط المقطوعة، مهما كان وصلاً ضعيفًا جداً، فيم كان نفعه؟ هاهي، لقد اتصلت وحدها تلك الخيوط، والحياة، على الرغم منا إعتراضي- احتراسًا مني - الحياة جرفتني باندفاعها الذى لا يقاوم، الحياة التي لم تعد لي. آه، الآن ألاحظها حقًا، الآن وأنا لم أعد قادرًا، بأسباب ملفقة وبأوهام صبيانية، وبأعذار واهية تثير الشفقة، أن أمتنع عن إدراك شعورى نحو أدريانا، وأن أخفف من قيمة مقاصدى وكلماتي وأفعالي . أشياء كثيرة قلتها، بلا كلام، قلتها وأنا أضغط على يدها وأدفعها حتى تتشابك أصابعها مع أصابعي، وقبلة، قبلة في النهاية صادقت على حبنا. والآن كيف أرد بالأفعال على الوعد ؟ هل كنت أستطيع أن أجعل أدريانا لي؟ ولكن في قناة الطاحونة، هناك في ستيا ، ألقيتاني هاتان المرأتان الطيبتان، روميلدا وأرملة بسكاتوري، ولم تلقيا بنفسيهما فيها، لا! وهكذا ظلت حرة هي - زوجتي - ولست أنا، الذى جهزت نفسي لأقوم بدور الميت، موهمًا نفسي أني أستطيع أن أصير رجلاً أخر، وأن أحيا حياة أخرى. رجل أخر، نعم، ولكن على شرط ألا أفعل شيئًا. وأى رجل إذن ؟ خيال رجل ! وأى حياة تكون ؟ ما دمت رضيت بأن أبقى منغلقًا على ذاتي وأن أرى الآخرين يحيون، نعم، استطعت بشكل حسن أو سيء أن أنقذ الوهم بأني كنت أحيا حياة أخرى ؛ ولكن الآن وقد اقتربت من هذه لدرجة أن أقطف قبلة من شفتين غاليتين، كان على أن أنسحب مرتاعًا، وكأني قبلت أدريانا بشفتي ميت، بشفتي ميت ما كان يستطيع أن يحيا مرة أخرى من أجلها! كنت أستطيع أن أقبل شفاها مرتزقة، نعم، كنت أستطيع أن أقبل شفاها أجيرة، ولكن ماهو طعم الحياة في شفاه كهذه؟ أوه، لو أن أدريانا، متى عرفت حكايتي الغريبة ... هي ؟ لا ... لا ... ! مستحيل مجرد التفكير في هذا ! هي، بنقاوتها هذه وخجلها هذا... ولكن لو أن الحب الذى شعرت به كان أقوى من كل شيء، أقوى من أى اعتبار اجتماعي .. آه، مسكينة أدريانا !، وكيف لي أنا أن أغلق عليها معي في فراغ مصيرى، وأجعل منها رفيقة رجل لم يكن يمكنه بأى شكل من الأشكال أن يعلن ويدلل على أنه حي؟ ما العمل؟ ما العمل؟ طرقتان على الباب جعلتاني أقفز من المقعد . كانت هي، أدريانا.

على الرغم من أني حاولت بمجهود عنيف أن أكبح داخلي اضطراب مشاعري، فلم أستطع إلا أن أبدو لها على الأقل قلقًا. مضطربة كانت هي أيضًا، ولكن من الخجل الذي كان لا يسمح لها بأن تظهر سعيدة، كما كانت تريد برؤيتي وقد شفيت أخيرًا، وفي النور ومسرورًا ... لا ؟ ولم لا ؟ ... رفعت عينيها بالكاد لتنظر إلي، واحمر وجهها، وقدمت لي خطابًا :

«هذا لك ...»

«خطاب؟»

«لا أظن . سيكون حساب الدكتور أمبروزيني. الخادم يريد أن يعرف إن كان هناك رد» .

كان صوتها يرتعش. ابتسمت.

قلت أنا «حالاً» ؛ ولكن حنانًا مفاجئًا تملكني، إذ أدركت أنها قد جاءت بحجة ذلك الخطاب لكي تحصل مني على كلمة تؤكد لها آمالها، وغلبتني شفقة عميقة موجعة، شفقة عليها وعلي، شفقة قاسية كانت تدفعني – ولا سبيل لمقاومتها – إلى أن أربت عليها، أربت فيها على ألمي، الذي كان يمكنه فيها فقط – على الرغم من أنها كانت السبب فيه – أن يجد له عزاء. وعلى الرغم من علمي بأني كنت سأتورط بشكل أكبر، فإنني لم أستطع المقاومة : وبسطت لها يدي. ورفعت هي رويدًا رويدًا يديها في ثقة ولكن وجهها كان محمومًا، ووضعتهما في يدي. عندئذ جذبت رأسها الأشقر الجميل إلى صدري ولاطفت بيدي شعرها .

«مسكينة أدريانا !»

سألتني، ويدي لا تزال تلاطف شعرها «لماذا؟ ألسنا سعيدين؟»

«بلى ...»

«إذن لماذا مسكينة؟»

انتابتني في تلك اللحظة اندفاعة تمرد، وكنت على وشك أن أبوح لها بكل شيء، وأن أجيبها : « لماذا ؟ اسمعي : إني أحبك، ولا أستطيع، ولا يجب على أن أحبك ! أما إذا أردت أن ... » لكن كفى! ماذا كانت تريد تلك المخلوقة اللطيفة؟ ضغطت رأسها بقوة على صدري، وشعرت بأني سأكون قاسيًا أشد القسوة لو أني، من علياء فرحتها التي كانت تشعر - لجهلها - بأن الحب قد رفعها إليها، أطحت بها في هوة اليأس الذي كان بداخلي.

قلت وأنا أتركها «لأني، لأني أعلم أمورًا كثيرة، لا يمكن بسببها أن تكوني سعيدة؛ » .

أصابها ذهول مؤلم عندما رأت نفسها فجأة وقد تحررت من ذراعي . ألعلها كانت تنتظر، بعد تلك الملاطفات، أن أناديها باسمها ؟ نظرت إليّ، وعندما لاحظت اضطرابي، سألت بتردد:

«أمور ... تعرفها ... عنك، أم هنا ... عن منزلي ؟»

أجبتها بالإشارة : « هنا، هنا» حتى أتخلص من الوسواس الذي كان يوسوس لي لحظة بعد لحظة، أن أكلمها، وأن أبوح لها بكل شيء .

لو أني فعلت هذا! لو أني سببت لها ذلك الألم الوحيد القوي، لوفرت عليها آلامًا أخرى، ولما تورطت في خدع جديدة وأكثر ضراوة. ولكن اكتشافي التعس كان عند ذاك قريبًا جدًا، وكنت مازلت بحاجة لأن أسبر أغواره، وكان الحب والشفقة ينزعان عني شجاعة تحطيم آمالها فجأة وحياتي نفسها، أي خيال الوهم الذي، كان يمكن أن يبقى لي منها ما دمت بقيت صامتًا . ثم كنت أشعر كم كان مقيتًا التصريح الذي كان ينبغي علي أن أصرح به لها، أي أنه لا تزال لي زوجة. نعم ! نعم ! لو أني كشفت لها أني لست أدريانو مايس، فإنني سأكون من جديد ماتيا باسكال، متوفى ولا يزال متزوجًا ! كيف يمكن قول مثل هذه الأمور؟ كانت هذه أقصى درجات العسف التي يمكن أن تمارسها زوجة على زوجها ؛ أن تتحرر منه هي، بأن تتعرف عليه ميتًا في جثة غريق

مسكين، وأن تظل، بعد الوفاة، جاثمة عليه بكل ثقلها. كنت قادراً، حقيقة، على التمرد، وأن أعلن أنى لازلت حيًا، آنذاك .. ولكن من فى مكانى، ما كان ليتصرف مثلى؟ الجميع، الجميع، فى تلك اللحظة، وفى ظروفى نفسها، كانوا سيحسبون أنفسهم بكل تأكيد محظوظين إن استطاعوا التحرر بطريقة غير منتظرة وغير مأمولة مثل هذه، من الزوجة، ومن الحماة، ومن الديون، ومن حياة تعيسة سقيمة مثل حياتى. هل كنت أتخيل أبداً، آنذاك، أننى لن أتحرر من زوجتى وإن مت؟ هى، نعم، تتحرر منى، وأنا لا، ليس منها ؟ وأن الحياة التى رأيتها أمامى حرة حرة حرة، ليست فى الواقع إلا وهما، لا يمكن أن تتحول إلى حقيقة، إلا بشكل سطحى جداً، وتصبح مستعبدة أكثر من أى وقت آخر، مستعبدة للأوهام، وللأكاذيب التى وجدت نفسى مضطراً لاستخدامها بقرف بالغ، مستعبدة للخوف من اكتشاف أمرها، على الرغم من أنها لم تقترف أى جريمة ؟

اعترفت أدريانا أنها فى الحقيقة لم يكن لديها فى بيتها ما يجعلها سعيدة، ولكن الآن ... وبعينيها وبابتسامة حزينة سألتنى إن كان ما يسبب لها الألم يمكن أن يمثل بالنسبة لى عائقًا «لا ؛ أليس كذلك ؟» كانت تلك النظرة وتلك الابتسامة الحزينة تسألاننى. تظاهرت بأنى تذكرت فجأة الخطاب والخادم الذى كان ينتظر بالخارج فهتفت :

«أوه، ولكن لندفع حساب الدكتور أمبروزينى ، فضضت الخطاب وبدون أن أضيع وقتًا، وفى محاولة منى أن أتكلم بلهجة مازحة، قلت» ستمائة ليرة . انظرى يا أدريانا : تقوم الطبيعة بعمل عمل من أعمالها الشاذة المعتادة، وتحكم علىّ بأن أبقى لسنين طويلة بعين، لنقل، عاصية، وأنا أعانى آلاما وحبساً لكى أصحح خطأها، والآن إضافة إلى هذا على أن أدفع. هل يبدو لك هذا عدلاً ؟

ابتسمت أدريانا بألم.

قالت : «لعل الدكتور أمبروزينى لن يسعده إن أجبته بأن يتوجه للطبيعة لدفع الحساب. أعتقد أنه يتوقع أيضاً أن توجه له الشكر، لأن العين ...»

«هل تبدو لك بحالة جيدة ؟

اجتهدت أن تنظر إلى، وقالت بصوت خفيض، وهى تخفض عينيها فوراً :

«نعم ... تبدو مختلفًا ...»

«العين أم أنا ؟»

«أنت .»

«ربما بهذه اللحية الطويلة ...»

«لا ... لماذا ؟ إنها جميلة ومناسبة لك ...»

كنت لأقلعها بأصبع من أصابعى، عينى هذه! ماذا يهمنى بعد فى أن تكون سليمة؟

قلت «ومع هذا فلعل عينى، كانت أكثر سعادة، وهى تنظر بطريقتها . والآن تسبب لى شيئًا من الضيق ... كفى، سينتهى !»

ذهبت نحو الخزانة الصغيرة الموضوعة فى الحائط، والتى كنت أضع بها النقود. عندئذ بدا على أدريانا أنها تريد الانصراف، فاستبقيتها، أنا الأحمق، ولكن كيف كان لى أن أتوقع هذا؟ فى مآزقى كلها، كبيرة كانت أم صغيرة، كان الحظ، كما هو واضح، يأتى لمعونتى. والآن ها هو، فى هذه المرة كذلك، كيف جاء لعونى.

عندما هممت بفتح الخزانة، لاحظت أن المفتاح لا يلف فى قفلها، دفعته بخفة وفى التو لم يبد الباب مقاومة ؛ كان مفتوحًا !

هتفت «كيف ! أمن الممكن أن أكون تركته هكذا ؟»

عندما لاحظت أدريانا اضطرابى المفاجئ، شحب وجهها جدًا . نظرت إليها، و :

«لكن هنا ... انظرى، يا آنسة، هنا لابد أن أحدًا قد وضع يديه !»

بداخل الخزانة كانت هناك فوضى عارمة ؛ كانت أوراق البنكنوت الخاصة بى قد

استخرجت من الحافظة الجلدية التى كنت أحفظها بداخلها، وكانت مبعثرة هناك على الرف . أخفت أدريانا وجهها براحتيها، فزعًا . وجمعت أنا محمومًا أوراق البنكنوت تلك وأخذت فى عدها.

هتفت بعد أن عددتها، وأنا أمرر يدىّ المرتعشتين على جبهتى الباردة من العرق:

«هل هذا ممكن؟»

كانت أدريانا على وشك الإغماء، ولكنها استندت على منضدة صغيرة قريبة، وسألت بصوت لم يبد لى صوتها :

«هل سرقوا مالك ؟»

قلت أنا : «انتظرى .. انتظرى .. أهذا ممكن؟»

وأخذت أعد من جديد وأنا أضغط بعصبية على أصابعى وعلى الورق، وكأن إعادة فركها يمكن أن تخرج من تلك الأوراق، الأوراق الأخرى الناقصة.

سألتنى هى، وقد أصابها الذهول من الرعب والتقزز، بعد أن انتهيت من العد :

«كم ؟»

تمتمت : «اثنا عشر ... اثنا عشر ألف ليرة .. كان المبلغ خمساً وستين ... والآن ثلاث وخمسون ! عديها أنت ...»

لو لم ألحق بها لأسندها، لسقطت أدريانا المسكينة على الأرض، وكأنها أصيبت بضربة هراوة. ومع هذا استطاعت بجهد عظيم أن تتمالك نفسها مرة أخرى، وحاولت، وهى تجهش بالبكاء وتتشنج، أن تتحرر منى، إذ كنت أريد أن أجلسها على المقعد، وأخذت تدفع جسمها نحو الباب :

«سأدعو أبى ! سأدعو أبى !»

صرخت فيها وأنا أستبقيها وأجبرها على الجلوس : «لا ! لا تضطربى هكذا، من

فضلك! إنك تؤلميننى ألَمًا أكبر ... أنا لا أريد، لا أريد : وما شأنك أنت؟ من فضلك، اهدئى. دعينى أتأكد أولاً، لأن ... نعم، كانت الخزانة مفتوحة، ولكنى لا أستطيع، ولا أريد أن أعتقد بعد فى وقوع سرقة كبيرة هكذا ... تمالكى نفسك، أرجوك !»

وعدت من البداية أعد النقود لآخر مرة درءا للشك، وبرغم علمى بأن مالى كله كان موضوعًا بكل تأكيد هنالك، فى تلك الخزانة، فإننى أخذت فى البحث والتفتيش فى كل مكان، وكذلك فى الأماكن التى كان من المستحيل بأى شكل من الأشكال أن أترك فيها مبلغًا كهذا، إلا إذا داهمتنى لحظة جنون . ولكى أتحفز للبحث الذى كان يبدو لى من لحظة إلى أخرى بحثًا غبيًا لا طائل من ورائه، كنت أبذل ما فى وسعى لكى أعتقد بعدم صحة جرأة اللص . أما أدريانا، فكانت تهذى وكفَّاها يغطيان وجهها، وصوتها يجهش بالبكاء :

كانت تتأوه قائلة «لا فائدة ! لا فائدة ! لص ... لص ... وكذلك لص ... تم تدبير كل شيء مسبقًا ... سمعت، فى الظلام ... تولد عندى الشك ... ولكنى لم أرد أن أصدق أنه يمكنه أن يصل إلى هذا الحد ...»

ببيانو، نعم : اللص لم يكن أحدًا غيره، هو، عن طريق أخيه، فى أثناء جلسات تحضير الأرواح تلك ...

تأوهت هى فى اضطراب «ولكن كيف .. كيف تحتفظ بأموال كثيرة كهذه، فى البيت؟»

التفتّ لأنظر إليها مبهوتًا . بماذا أرد عليها؟ هل كنت أستطيع أن أقول لها إنى بسبب ظروفى، كنت بالضرورة مضطرًا أن أحتفظ بالمال معى ؟ هل كنت أستطيع أن أقول لها إنه كان محظورًا على أن أستثمره بشكل ما، وأن أستودعه أحدًا ؟ وأننى ما كنت أستطيع أن أتركه وديعة فى أحد البنوك، لأنه إن حدثت بعد ذلك مشكلة أو صعوبة ممكنة لسحبه، فإننى ما كنت لأجد وسيلة أثبت بها حقى فيه ؟

وكنت قاسيًا، حتى لا أبدو مندهشًا، وقلت :

«هل كنت أستطيع أن أتصور هذا ؟»

غطت أدريانا وجهها من جديد بكفيها، وهى تئن من الألم :

«يا إلهى ! يا إلهى ! يا إلهى !»

وأصابنى أنا الهلع، الذى كان ينبغى أن يصيب اللص عند اقترافه السرقة، عندما فكرت فيما سيحدث . كان ببيانو لا يمكنه بكل تأكيد أن يتصور أنى قد أتهم بهذه السرقة المصور الإسبانى أو السيد أنسلمو، أو الآنسة كابورالى، أو خادمة المنزل أو روح ماكس، لابد أنه كان متأكداً أنى سوف أتهمه هو، هو وأخاه، ومع هذا، فها هو ذا يتحدانى أو يكاد .

وأنا؟ ماذا كنت أستطيع أن أعمل؟ الإبلاغ عنه؟ وكيف؟ لا شىء، لا شىء، لا شىء! ما كنت أستطيع عمل أى شىء ! ومرة أخرى، لا شىء ! شعرت بنفسى مطروحًا على الأرض، ومنسحقًا . كان هذا ثانى اكتشاف فى ذلك اليوم ! كنت أعرف اللص، ولم أكن قادرًا على الإبلاغ عنه. هل كان لى حق حماية القانون؟ لقد كنت خارجًا على كل قانون. من كنت أنا؟ لا أحد! لم أكن أنا موجوداً، فى نظر القانون . والآن، كان لأى أحد أن يسرقنى، وأنا، أصمت!

ولكن ببيانو لم يكن ليعلم هذا كله. وإذن؟

«كيف استطاع أن يفعل هذا؟» قلت هذا لنفسى «من أين جاءته هذه الشجاعة كلها؟»

رفعت أدريانا وجهها عن راحتيها، ونظرت إلى مندهشة، وكأنها تقول : «ألا تعلم هذا ؟» قلت وقد فهمت فجأة : «آه، نعم !»

هتفت وهى تقف على قدميها «ولكنك ستبلغ عنه ! دعنى، أرجوك، دعنى أنادِ أبى ... فسيبلغ عنه حالاً !»

أوقفتها فى آخر لحظة مرة أخرى . ماكان ينقصنى إلا هذا، أن تجبرنى أدريانا نفسها على الإبلاغ عن السرقة ! ألم يكن كافيًا أنهم سرقوا منى اثنى عشر ألف ليرة، وكأنها لا شىء ؟ وكان يجب على كذلك أن أخشى أن يعرف خبر السرقة، وأن أرجو

وأستحلف أدريانا ألا تتحدث عنها بصوت عال، وألا تقول لأحد، حبًا وكرامة، ولكن هيهات! كانت أدريانا– والآن أقصد هذا تمامًا – لا تستطيع إطلاقًا أن تسمح لي بالسكوت، وأن أجبرها هي أيضًا على الصمت. كانت لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تقبل ذلك الذي كان يبدو كرمًا مني، لأسباب كثيرة : أولاً بسبب حبها، ثم حفاظًا على سمعة بيتها، وكذلك لأجلي، وبسبب الكراهية التي كانت تحملها بين جنبيها لزوج أختها.

ولكن في ذلك الظرف الصعب، بدا لي تمردها الصحيح مبالغًا فيه، وفي غيظ، صرخت :

«أنت ستصمتين، أفرض عليك الصمت ! لن تقولي شيئًا لأحد، هل فهمت ؟ هل تريدين إثارة فضيحة ؟»

أسرعت تعترض باكية، أدريانا المسكينة «لا ! لا! أريد أن يتخلص بيتي من عار ذلك الرجل!»

أردفت أنا «ولكنه سينكر ! وعندئذ، ستمثلين أنت وكل من بالبيت أمام القاضي... ألا تفهمين؟»

أجابت أدريانا في حماس، وهي ترتجف من الغيظ «نعم، حسن جدًا ! فلينكر، فلينكر كما يشاء ! ولكننا، من جانبنا، لدينا أشياء أخرى، صدقني، نقولها عنه. أبلغ عنه، ولا تتحفظ من أجلنا، ولا تخش علينا ... صدقني، ستعمل لنا خيرًا، خيرًا عظيمًا ! ستنتقم لأختي المسكينة ... ويجب أن تفهم، يا سيد مايس، أنك إن لم تفعل هذا، فإنك ستهينني . أنا أريد، أريد أن تبلغ عنه فإن لم تفعل هذا أنت، فسأفعله أنا! كيف تريد أن أبقى أنا مع أبي في هذا العار! لا! لا! لا! ثم ...»

احتضنتها بين ذراعيّ، لم أعد أفكر في المال المسروق، وأنا أراها تتألم هكذا، وتحترق في يأس، ووعدتها أن أفعل ما كانت تريد، بشرط أن تهدأ . لا، أي عار ؟ لم يكن هناك أي عار بالنسبة لها أو لأبيها، كنت أعلم على من تقع تبعة هذه السرقة، كان

ببيانو قد قدّر أن حبى لها يساوى اثنى عشر ألف ليرة، فهل كان علىّ أنا أن أثبت له عكس هذا ؟ هل أشكوه ؟ طبعًا، نعم كان ينبغى على أن أفعل هذا، ليس من أجلى أنا، ولكن لكى أخلص بيتها من ذلك الشقى، نعم، ولكن على شرط أن تهدأ أولاً وقبل كل شيء، وألا تعود للبكاء هكذا، كفى ! كفى ! وأن تقسم لى بعد هذا على أغلى ما عندها فى العالم، أنها لن تتحدث إلى أحد، أى أحد، عن تلك السرقة، إلا بعد أن أستشير أحد المحامين عن التبعات كلها التى لا نستطيع، لا أنا ولا هى، أن نتصورها بسبب غضبنا البالغ .

«أتقسمين لى ؟ على أغلى ما عندك ؟»

وأقسمت لى، وبنظرتها، بين دموعها، أفهمتنى على أى شيء تقسم لى، وما هو أغلى ما عندها.

مسكينة أدريانا !

ظللت هناك، وحدى، فى وسط الغرفة، مشدوهًا، وخاويًا ومدمرًا، وكأن العالم كله قد صار بالنسبة لى عبثًا . كم من الوقت مرّ قبل أن أتمالك نفسى ؟ وكيف أفقت ؟ عبيط ... عبيط !... مثل عبيط، ذهبت للنظر إلى باب الخزانة، لأرى إذا كان بها أثر للعنف، لا، لا أثر لقد فتحت بنظافة، بفتاحة أقفال، بينما كنت أنا بعناية كبيرة أحتفظ بمفتاحها فى جيبى .

كان بليارى قد سألنى عند نهاية آخر جلسة «ألا تشعر أنت، ألا تشعر أنت وكأنهم قد انتزعوا منك شيئًا ؟»

اثنا عشر ألف ليرة !

ومن جديد هاجمنى وسحقنى التفكير فى عجزى المطلق، وفى عدم قيمتى . لم يخطر ببالى حقيقة أنهم قد يسرقوننى وأن أضطر للبقاء ساكتًا بل وأيضًا خائفًا من أن تكتشف السرقة، وكأنى اقترفتها أنا وليس لصًا .

اثنا عشر ألف ليرة ؟ قليلة ! قليلة ! يمكنهم أن يسرقوا منى كل شيء، وأن يخلعوا عنى قميصى أيضًا، وأنا، صامت ! هل لى الحق فى الكلام ؟ أول سؤال قد يسألونه، هو: « ومن أنت ؟ ومن أين جاءك هذا المال ؟ » ولكن إن لم أبلغ عنه .. لنرى !

إن أمسكت برقبته الليلة وصحت فيه « هات فوراً المال الذى أخذته من هناك، من الخزانة، أيها اللص» . فإنه سيصرخ، وينفى، وهل يمكنه أن يقول لى: "نعم يا سيدى، ها هو هنا، لقد أخذته عن طريق الخطأ ... " ؟ وماذا بعد ؟ ولكن هناك احتمال أن يشكونى للتعريض بسمعته. أصمت، إذن، أصمت ! هل بدا لى حظًا طيبًا أن يعتقد الناس أنى ميت؟ ومن ثم، وتوفيت حقيقة . ميت ؟ أسوأ من ميت، لقد ذكر لى هذا السيد أنسلمو : الموتى لا يموتون مرة أخرى، وأنا نعم، أنا لا أزال حيًا بالنسبة للموت، وميتًا بالنسبة للحياة. وأى حياة يمكن فى الواقع أن تكون حياتى بعد ؟ سأم الماضى، والوحدة، والصحبة مع نفسى ؟

أخفيت وجهى فى راحتى يدىّ، وسقطت جالسًا على المقعد.

آه، لو كنت على الأقل نذلاً ! لاستطعت أن أتوافق مع البقاء هكذا، معلقًا فى عدم يقينية المصير، مستسلمًا للوضع، ومعرضًا لمخاطرة مستمرة، وبلا أصل أو منطق، ولكنى ؟ أنا، لا . وإذن، ماذا أفعل ؟ هل أرحل ؟ وإلى أين ؟ وأدريانا ؟ ولكن ماذا كنت أستطيع أن أعمل من أجلها ؟ لا شىء ... لا شىء ... لا شىء ... ولكن كيف أرحل هكذا بلا أى تفسير، بعد كل ما حدث ؟ ستنسب هى السبب فى هذا إلى عملية السرقة تلك، ولسوف تقول: «ولماذا أراد إنقاذ المجرم، وعقابى أنا البريئة ؟ » . آه، لا، لا، مسكينة أدريانا! ولكن، من ناحية أخرى، مادمت غير قادر على عمل أى شىء، فكيف آمل أن أجعل دورى تجاهها أقل سوءًا ؟ كان علىّ بالضرورة أن أظهر قاسيًا وبلا منطق. كانت اللا منطقية والقسوة من سمات مصيرى، وكنت أنا أول من يعانى منهما . وبيبانو نفسه، اللص كان بارتكابه جريمة السرقة أكثر منطقية، وأقل قسوة منى كما كان ينبغى على أن أظهر مع كل أسف.

كان هو يريد أدريانا، حتى لا يعيد لحميه دوطة الزوجة الأولى، وأنا هل أردت أن

أنتزع منه أدريانا ؟ إذن كان يجب أن أعيد الدوطة، إلى بليارى.

رغم أنه لص، إلا أنه منطقى للغاية!

لص؟ ولكنه ليس لصًا كذلك ؛ لأن السلب، فى الواقع، كان ظاهريًا أكثر مما كان واقعيًا ؛ ففى الواقع كان لا يمكنه أن يظن، نظرًا لمعرفته باستقامة أدريانا، أننى كنت أريد أن أجعل منها عشيقتى، وأنى بكل تأكيد كنت أريدها زوجة لى ؛ إذن فلسوف أسترد مالى على صورة دوطة أدريانا، والأكثر من هذا، فلسوف تكون لى زوجة حبيبة حكيمة وطيبة، فماذا أريد أكثر من هذا؟

أوه، كنت على يقين أننى لو استطعت الانتظار، ولو كانت لأدريانا القدرة على الاحتفاظ بالسر، فلسوف نرى ببيانو يفى بوعده بإعادة دوطة زوجته المتوفاة، قبل مهلة السنة.

هذا المال، فى الحقيقة، لن يؤول إلىَّ، لأن أدريانا لن تكون لى، ولكنه سيؤول إليها، إن هى عرفت الآن أن تصمت، متبعة نصيحتى، وإن استطعت أنا أن أبقى بعض الوقت هنالك . كان على أن أستخدم الحيلة، حيلة كبيرة، وعندئذ فلعل أدريانا تكسب هذا، إن لم تكسب شيئًا آخر : استعادة دوطتها.

هدأت شيئًا ما، على الأقل من ناحيتها، وأنا أفكر هكذا. آه، ليس من ناحيتى . بالنسبة لى كانت قسوة الاحتيال المكشوف قائمة، غش أوهامى التى لم تكن سرقة الاثنى عشر ألف ليرة شيئًا بالنسبة لها، بل إن السرقة كانت خيرًا إن كانت ستتحول إلى ميزة لأدريانا.

رأيت ذاتى مستبعدًا من الحياة إلى الأبد، وبلا إمكانية للدخول فيها من جديد. وبذلك الحزن فى قلبى، وبتلك الخبرة، سوف أرحل الآن عن هذا البيت الذى ألفته، والذى وجدت فيه شيئًا من الراحة والذى جعلت منه عُشى، وسوف أمضى من جديد فى

---

(١) تنتالوس : ابن زيوس، وقد قضى عليه بأن يعانى العطش والجوع إلى الأبد، بعدما أراد أن يختبر قدرة الآلهة على معرفة كل شىء (أسطورة) (المترجم) .

الطرقات، بلا هدف، بلا غاية، فى الفراغ. ولسوف يجعلنى الخوف من الوقوع فى حبائل الحياة مرة أخرى أقصى نفسى عن الناس، وأبقى وحيداً، وحيداً، وحيداً تماماً، وحذراً، ونفوراً، ولسوف يتجدد بالنسبة لى تعذيب تنتالوس.(١)

خرجت من البيت، وكأنى صرت مجنوناً. وبعد وقت وجدت نفسى فى شارع فلامينيا، بالقرب من بونتى موللى. لماذا ذهبت إلى هنالك ؟ نظرت حولى، ثم حملقت عيناى فى ظل جسدى، وبقيت لفترة أتأمله، وفى النهاية رفعت قدمى بغضب عليه. ولكنى أنا لا، أنا لم أكن أستطيع أن أطأ، ظلى.

من منا كان ظلاً أكثر من الآخر؟

ظلان!

هناك، هناك على الأرض، وكان كل أحد يستطيع أن يمر فوقه ؛ يسحق رأسى، ويسحق قلبى، وأنا، صامت، والظل، صامت.

ظل ميت، هاهى ذى حياتى ...

مرت عربة، بقيت هناك واقفاً، عن عمد ؛ فى البداية الجواد، بأرجله الأربعة، ثم عجلات العربة.

«هناك، هكذا ! بقوة، على العنق ! أوه، أوه، حتى أنت، أيها الكلب؟ هيا، تشجع، نعم : ارفع وركا! ارفع وركا!»

انفجرت ضاحكاً ضحكة خبيثة، وهرب الكلب، خائفاً، واستدار سائق العربة ناظراً إلىّ. عندئذ تحركت، والظل معى، إلى الأمام . أسرعت الخطى لأضعه تحت عربات أخرى، تحت أقدام المارة، برغبة مجنونة. تملكتنى رغبة قوية سيئة، وكأنها تنشب مخالبها فى أحشائى ؛ وفى النهاية لم أستطع أن أرى ظلى ذاك أمامى، كنت أود أن أزحزحه عن قدمىّ، التفتّ، ولكن هاهو، كان خلفى، فى تلك الساعة.

فكرت : « وإن أخذت فى العدو، فسوف يتبعنى! »

دلكت جبهتى بقوة، خوفًا من أن أكون على وشك الجنون، وعلى وشك أن أجعل منه فكرة متسلطة . ولكن نعم ! هكذا كان ! كان هذا الظل رمز حياتى وخيالها، كنت أنا، هنالك على الأرض، معروضًا تحت رحمة أقدام الآخرين. هاهو ما بقى من ماتيا باسكال، الذى مات فى ستيا : ظله فى شوارع روما.

ولكن ذلك الظل، كان له قلب وما كان يستطيع الحب ؛ كان له مال، ذلك الظل، وكان كل أحد يستطيع أن يسرقه منه ؛ كانت له رأس، ولكن لتفكر وتعى أنها كانت رأس ظل وليست ظل رأس . كان هذا تمامًا !

عندئذ شعرت به مثل شىء حى، وشعرت بألم من أجله، وكأن الجواد وعجلات العربة وأرجل المارة قد مزقته تمزيقًا . ولم أشأ أن أتركه هناك، معروضًا، على الأرض . ومر ترام، وركبته.

وعندما عدت إلى البيت ...

(١٦)

لوحة مينرفا

قبل أن يفتح الباب لى، استشعرت أن حدثًا جسيمًا قد وقع فى البيت ؛ كنت أسمع ببيانو وبلياري يصرخان. وجاءت نحوى كابورالى منزعجة:

«هل هذا صحيح؟ اثنا عشر ألف ليرة؟»

توقفت لاهثًا، وشارداً. فى تلك اللحظة عبر شيبيونى ببيانو، المريض بالصرع، قاعة المدخل، كان حافيًا والحذاء فى يده، شاحبًا جداً، بدون سترة، بينما كان أخوه يصرخ من هناك :

«والآن، أبلغ عنى ! أبلغ عنى !»

وفى الحال اعترانى غضب شديد ضد أدريانا التى، على الرغم من منعى لها، على الرغم من قسمها، تكلمت.

صحت فى كابورالى «من قال هذا ؟ ليس هذا صحيحًا إطلاقًا : لقد وجدت النقود!»

نظرت كابورالى إلى مندهشة :

«النقود ؟ وجدتها ؟ حقًا ؟ آه، الحمد لله !» هكذا هتفت رافعة ذراعيها، وجرت، وأنا من خلفها، لتبشرهم مبتهجة، إلى قاعة الطعام حيث كان ببيانو وبلياري يصيحان، وأدريانا تبكى «وجدها ! وجدها ! هاهو السيد مايس ! وجد النقود !»

«كيف !»

«هل وجدتها ؟»

«هل هذا ممكن ؟»

بقى الثلاثة مذهولين ؛ ولكن أدريانا وأباها، كان وجهاهما مشتعلَيْن غضبًا، بينما كان ببيانو شاحبًا، مقلوب السحنة.

حملقت فيه للحظة. كنت أكثر شحوبًا منه، وكنت أنتفض. خفض عينيه وكأنه مذعور، وترك سترة أخيه تسقط من يديه. ذهبت نحوه، ووقفت أمامه ومددت له يدى.

قلت «أعتذر لك كثيراً ؛ لك، وللجميع .. أعتذر لكم.»

صاحت أدريانا غاضبة «لا !» ولكنها ضغطت على الفور بمنديلها على فمها.

نظر إليها ببيانو، ولم يجرؤ أن يمد لى يده . عندئذ كررت قولى :

«معذرة ...» ومددت يدى أكثر، لأشعر بيده كيف كانت ترتعش . كانت تبدو يد أحد الموتى، وكانت عيناه كذلك معكرتين وتكاد أن تكون مطفأتين، كانتا تبدوان عينى أحد الموتى .

أردفت «إننى متألم فعلاً لهذا الخطأ، وللأسى الشديد الذى سببته بدون إرادة منى.»

تمتم بلياري «لا ... أقصد، نعم ... فى الحقيقة ... طبعًا، كان شيئًا ... نعم، لم يكن ممكنًا ! أنا سعيد جداً، يا سيد مايس، سعيد حقًا لأنك وجدت هذا المال، لأن ....»

نفخ ببيانو، ومسح بيديه جبهته المبللة بالعرق وكذلك رأسه، وبعد أن أدار لنا كتفيه أخذ ينظر ناحية الشرفة.

استطردت محاولاً الابتسام «فعلت مثلما فعل ذلك الذى ... كنت أبحث عن الحمار وأنا راكب فوقه . كانت الاثنا عشر ألف ليرة هنا فى المحفظة، معى .»

ولكن أدريانا، فى هذه اللحظة، لم تستطع أن تتحمل ما هو أكثر قالت :

«ولكنك، بحثت فى وجودى، فى كل مكان، وكذلك فى المحفظة، وإذا كان هناك، فى الخزانة ...»

قاطعتها بحسم بارد وقاس «نعم، يا آنسة ولكنى لم أبحث جيداً، كما هو واضح، مادمت وجدتها ... بل إنى أطلب المعذرة منك على وجه الخصوص، لأنك بسبب هبلى عانيت أكثر من الآخرين . ولكننى أتمنى أن ...»

صاحت أدريانا وهى تجهش بالبكاء، وتخرج مسرعة من الحجرة تتبعها كابورالى : «لا! لا! لا!»

قال بلياري مذهولاً «لا أفهم ...»

واستدار بيبانو فى غضب :

«سأرحل اليوم نفسه ... يبدو أنه لم تعد لى حاجة لـ ......»

وتوقف عن الكلام، وكأنه يشعر بأنفاسه تتوقف، وأراد أن يلتفت نحوى، ولكن لم تواته الشجاعة لينظر إلى وجهى :

«أنا ... أنا لم أستطع، صدقنى، حتى أن أقول لا ... عندما وضعونى ... هنا فى المنتصف ... فأسرعت إلى أخى الذى ... فى عدم وعيه ... ومرضه ... غير مسئول، أى، أعتقد ... من يدرى ! كان من الممكن أن نتصور، أنه ... سحبته إلى هنا ... مشهد وحشى! وجدت نفسى مضطراً إلى خلع ملابسه ... وأن أفتشه ... فى كل مكان ... فى الملابس، وفى الحذاء ... وهو ... آه!»

عند هذا تهدج صوته بالبكاء، وامتلأت عيناه بالدموع، وأضاف وكأنه يختنق بالأسى «... وهكذا رأوا أن ... ولكن نعم، إن كنت ... بعد هذا، أنا راحل !»

عندئذ قلت أنا «لا ! لا إطلاقًا ! بسببى أنا ! يجب أن تبقى هنا ! أما أنا فسأرحل !»

هتف بلياري متألمًا «ما هذا الذى تقوله، يا سيد مايس ؟»

وكذلك ببيانو، نفى بيده فقد منعه البكاء الذى كان يريد كتمانه، ثم قال :

«كان علىّ ... كان يجب على أن أرحل، بل حدث كل هذا لأننى ... هكذا، ببراءة ... أخبرتهم، أننى كنت أريد الرحيل، بسبب أخى الذى لم يعد ممكنًا أن يبقى بالبيت ... بل إن المركين، أعطانى ... – وهو معى هنا – خطابًا لمدير دار رعاية صحية فى نابولى، حيث يجب أن أذهب بسبب وثائق أخرى يحتاج إليها ... وعندئذ فإن أخت زوجتى ... وهى تكن لك ... عن جدارة ... احترامًا كبيرًا ... هبت تقول إنه يجب ألا يتحرك أحد من البيت ... وأننا يجب أن نبقى جميعًا هنا ... لأنك ... لا أعلم ... اكتشفت ... لى أنا، هذا ! لزوج أختها ! قالت لى أنا هذا ... وربما لأنى أنا، البائس ولكن الشريف، يجب أن أعيد إلى هنا، إلى حماى ...»

هتف بلياري مقاطعًا إياه «ما هذا الذى تفكر فيه الآن!»

أكد ببيانو باعتزاز «لا! إننى أفكر فى هذا ! أفكر تمامًا، لا يكن عندكم شك ! وإن رحلت ... مسكين، مسكين، مسكين شيبيونى !»

ولم يستطع أن يكبح نفسه، فانفجر باكيًا بكاءً حارًا .

قال بلياري مندهشًا ومتأثرًا «على كل، وما دخله الآن ؟»

استمر ببيانو فى غم وكرب شديدين، حتى أنى أنا أيضًا شعرت كأن أحشائى تضطرب إشفاقًا «مسكين أخى !»

أدركت فى هذا الغم الندم الذى كان يشعر به بالضرورة فى تلك اللحظة بدلاً من أخيه، الذى استخدمه، والذى كان سيحمله ذنب السرقة، لو أنى أبلغت عنه، والذى جعله قبل قليل يعانى مهانة ذلك التفتيش.

ما من أحد كان أعلم منه أننى لم أجد الأموال التى سرقها هو منى . لقد سحقه تمامًا إعلانى غير المنتظر ذاك، الذى كان ينقذه فى الوقت الذى أخذ – عندما وجد نفسه ضائعًا – يتهم أخاه، أو على الأقل يلمح – طبقًا للخطة التى وضعها مسبقًا – أن هذا وحده كان من الممكن أن يكون مقترف السرقة. والآن كان يبكى لحاجته التى لا تقاوم للتفريج عن نفسه التى طعنت طعنًا شديدًا، وربما أيضًا لأنه كان يشعر بأنه لا يستطيع أن يبقى إلا كذلك باكيًا أمامى. بذلك البكاء كان يتذلل إلى، كان يركع تقريبًا أمام قدمى، ولكن بشرط أن أتمسك بما أكدته، أى بأنى قد وجدت مالى، أما إذا ما اغتنمت فرصة رؤيته الآن ذليلاً لكى أتراجع، فإنه كان سيهاجمنى بغضب شديد . كان من المفترض أنه ما كان يعلم وما كان ينبغى أن يعلم شيئًا عن تلك السرقة، وأنا بتأكيدى ذلك، لم أكن أنقذ إلا أخاه، الذى لم يكن، فى نهاية الأمر، لو أنى أبلغت عنه ليصيبه أى ضرر نظرًا لمرضه ؛ ومن جانبه هو، فلقد كان يلتزم، كما ترك الآخرين يستنتجون، بأن يرد الدوطة لبليارى .

كل هذا، بدا لى أنى أفهمه من بكائه ذاك . وبعد أن حثه السيد أنسلمو وحضضته أنا أيضًا، هدأ فى النهاية، وقال إنه سيعود سريعًا من نابولى، بمجرد أن يودع أخاه فى دار الرعاية الصحية، وبمجرد أن يصفى ما يخصه فى تجارة ما شرع فيها هناك بالاشتراك مع صديق له ، وكذلك بعد الانتهاء من البحث عن الوثائق التى يحتاج إليها المركيز .

واختتم حديثه متوجهًا إلىّ «بل، بالمناسبة، لقد نسيت هذا فى الموقف العصيب! قال لى السيد المركيز إذا لم يكن فى هذا إزعاج لك، اليوم ... ومع حماى ومع أدريانا ...»

هتف السيد أنسلمو دون أن يتركه يستكمل حديثه «آه، براڤو، نعم ! سنذهب جميعًا ... حسن جدًا ! يبدو لى أن هناك ما يدعو لأن نبتهج جميعًا، الآن ! ما رأيك، يا سيد أدريانو ؟

قلت أنا، فاتحًا ذراعىّ «بالنسبة لى ...»

اقترح ببيانو وهو يجفف دموع عينيه تماماً «إذن، فى حوالى الرابعة ... اتفقنا ؟»

انسحبت إلى حجرتى. وجرى تفكيرى فوراً إلى أدريانا، التى كانت قد هربت باكية، بعد إنكارى ذاك. لو أنها جاءت تطلب منى تفسيراً ؟ من المؤكد أنها لم تكن تستطيع أن تصدق هى أيضًا أنى قد وجدت النقود فعلاً. وماذا كان عليها إذن أن تفترض؟ أننى، بإنكارى السرقة بتلك الطريقة، كنت أريد عقابها على حنثها اليمين. ولكن لماذا؟ لأننى بكل وضوح علمت من المحامى، الذى قلت لها إنى أريد استشارته قبل الإبلاغ عن السرقة، أنها هى كذلك وكل من بالبيت كان سيتم اعتبارهم مسئولين عن السرقة. وعلى كل حال، ألم تقل هى لى إنها كانت على استعداد لمواجهة الفضيحة ؟ نعم : ولكنى – وكان هذا واضحًا – لم أرد هذا، وفضلت التضحية هكذا باثنى عشر ألف ليرة ... وبناء على هذا، هل كان عليها أن تعتقد أن هذا كان كرمًا منى، وتضحية فى سبيل حبها ؟ ها هى كذبة أخرى تضطرنى إليها ظروفى : كذبة ممجوجة تجملنى بدليل لذيذ رهيف على الحب، فتنسب إلى كرماً أكبر بكثير مما لم تطلب ولم تشأ.

ولكن لا! ولكن لا! ماذا كنت أتوهم ؟ إلى نتائج أخرى كان ينبغى على أن أصل، بينما أنا أتبع منطق كذبتى الضرورية تلك التى لم يكن من الممكن تحاشيها. أى كرم ! أى تضحية ! أى دليل حب ! ألعله كان يجب على أن أوهم تلك الفتاة المسكينة بما هو أكثر؟ كان علىّ أن أخنق، أن أخنق هواى، وألا أوجه لأدريانا بعد ذلك نظرة أو كلمة حب. وماذا بعد ؟ كيف كان سيمكنها التوفيق بين كرمى البادى وموقفى الذى كان علىّ من الآن فصاعداً أن أفرضه على نفسى تجاهها ؟ كنت أنا إذن ميالاً بالضرورة إلى استغلال هذه السرقة التى كشفت أمرها هى ضد إرادتى والتى نفيتها أنا، لكى أقطع كل علاقة بها. ولكن ما هذا المنطق ؟ كان هناك أحد أمرين : إما أنى وقعت ضحية للسرقة، وعندئذ ما السبب، مادمت أعرف اللص، فى أنى لم أبلغ عنه، وإنما تنكرت لحبى لها، وكأنها هى كذلك كانت مذنبة ؟ أو أنى وجدت فعلاً النقود، وعندئذ لماذا لا أستمر فى حبها؟

شعرت بأنى أختنق من الغثيان، ومن الغضب، ومن الكراهية لنفسى : لو

استطعت على الأقل أن أقول لها إن هذا لم يكن كرمًا منى، وإننى لم أكن أستطيع، بأى شكل، أن أبلغ عن السرقة ... ولكن على أية حال، كان يجب على أن أقول لها سببًا لذلك ... هل كانت نقودى ... نقودًا مسروقة؟ كان يمكنها أن تفترض هذا أيضًا ... أم كان على أن أقول لها إننى كنت متابعًا - يقتفى أثرى - وإنى كنت هاربًا مشتبهًا فيه، لابد أن يعيش فى الخفاء، ولا يمكنه أن يربط بمصيره مصير امرأة ؟ كذبات أخرى للفتاة المسكينة ... ولكن، من ناحية أخرى، الحقيقة التى كانت تبدو لى غير ممكنة التصديق، وخرافة مستحيلة، وحلمًا لا معنى له، هذه الحقيقة هل كان من الممكن أن أقولها لها ؟ وحتى لا أكذب الآن أيضًا، هل كان يجب على أن أعترف لها أنى كذبت دائمًا ؟ هاهو ما كان سيؤدى إليه كشف حالى. وما الفائدة من هذا ؟ لن يكون هذا عذرًا بالنسبة لى، أو علاجًا بالنسبة لها.

وعلى الرغم من ذلك، كنت فى سخطى وغضبى فى تلك اللحظة سأعترف بكل شىء لأدريانا، لو أنها، بدلاً من أن ترسل كابورالى إلىّ، دخلت بنفسها فى حجرتى لتشرح لى لماذا حنثت باليمين.

كان السبب معروفًا لى ؛ فقد قاله لى بيبانو نفسه . وأضافت كابورالى أن أدريانا لا تستطيع أن تهدأ .

سألتها بلا مبالاة مصطنعة «ولماذا ؟»

أجابتنى «لأنها لا تصدق أنك قد وجدت حقيقة النقود»

خطرت لى فى تلك اللحظة فكرة (كانت تتناغم كذلك مع ظروف نفسى، ومع الغثيان الذى كنت أشعر به من ذاتى)، فكرة أن أجعل أدريانا تفقد أى احترام لى، حتى لا تحبنى بعد ذلك، وأبين لها أنى زائف وجاف ومتقلب ونفعى ... هكذا كنت سأعاقب ذاتى على ما سببته لها من ألم. نعم كنت سأسبب لها ألمًا آخر فى تلك اللحظة، ولكن هدفه خيرها، حتى تبرأ.

قلت بضحكة شريرة لكابورالى «لا تصدق؟ وكيف لا؟ إنها اثنا عشر ألف ليرة، يا

آنسة ... أهي حفنة من الرمل ؟ أتعتقد هي أني سأكون هكذا هادئًا، لو أنهم سرقوها مني حقيقة؟»

حاولت تلك أن تضيف «ولكن أدريانا قالت لي ...»

قاطعتها «حماقات ! حماقات ! انظري، لقد شككت للحظة حقًا ... ولكني قلت أيضًا للآنسة أدريانا إنني لا أعتقد أن السرقة ممكنة ... وفي الواقع ! ثم ما الدافع الذي يجعلني أقول إني وجدت النقود، إن لم أكن قد وجدتها حقًا ؟»

رفعت الآنسة كابورالي كتفيها.

«ربما أدريانا تظن أن لديك سببًا لكي ...»

أسرعت بمقاطعتها «لا! لا! أعود فأقول إنها اثنا عشر ألف ليرة، يا آنسة. لو كانت ثلاثين، أو أربعين، هـه ممكن ! ... ليست عندي أفكار الكرم هذه، صدقيني ... وإلا لكنت بطلاً ...»

عندما انصرفت الآنسة كابورالي، لتنقل إلى أدريانا كلماتي عصرت يديّ وعضضتهما. هل كان علي أن أتصرف هكذا؟ أن أستغل تلك السرقة وكأني أريد أن أدفع لها بهذا المال المسروق وأن أعوضها عن الآمال الضائعة ؟ آه ! كانت طريقة تصرفي تلك دنيئة ! كانت بكل تأكيد ستصرخ من الغضب من هناك وستحتقرني ... دون أن تعي أن ألمها هو أيضًا ألمي. على كل حال، كان هذا ما ينبغي أن يكون ! كان يجب أن تكرهني، وتحتقرني، كما كنت أنا أكره نفسي وأحتقرها. بل إني حتى أجعلها تزداد غضبًا مني، وحتى أزيد من احتقارها لي، سأبدو الآن رقيقًا مع ببيانو، مع عدوها، وكأني أعوضه أمام عينيها عن الشك الذي انتابني نحوه. نعم، نعم، وهكذا كنت سأدير رأس سارقي، نعم، لدرجة أن أجعل الجميع يعتقدون أني مجنون ... وما هو أكثر، ما هو أكثر : ألم يكن علينا أن نذهب إلى بيت المركيز جيليو ؟ إذن في ذلك اليوم نفسه كنت سأبدأ في مغازلة الآنسة بنتوجادا.

تنهدت، وأنا أتقلب على الفراش :- ستحتقرينني هكذا احتقارًا أكبر، يا أدريانا !

ماذا غير هذا، ماذا غير هذا أستطيع عمله من أجلك؟

وبعد الرابعة بقليل، جاء السيد أنسلمو يقرع باب حجرتي .

قلت له وأنا أضع عليّ معطفي «هاأنذا، أنا مستعد.»

سألني بلياري وهو ينظر إلي متعجباً «هل ستأتي هكذا ؟»

قلت «لماذا ؟»

ولكني لاحظت فوراً أن قلنسوة السفر التي كنت معتاداً أن أرتديها في المنزل كانت لا تزال فوق رأسي. وضعتها في جيبي والتقطت القبعة من الشماعة بينما كان السيد أنسلمو يضحك، كان يضحك وكأنه ...

«أين أنت ذاهب، يا سيد أنسلمو ؟»

أجاب وهو يضحك ويشير إلى الخف في قدميه «انظر كيف كنت على وشك الخروج أنا أيضاً. اذهب، اذهب إلى هناك، أدريانا موجودة ...»

سألته «وهل تأتي هي أيضاً ؟»

قال بلياري وهو يتجه نحو حجرته «كانت لا تريد المجيء ولكني أقنعتها. اذهب، هي في قاعة الطعام، وهي مستعدة ...»

يالها من نظرة جامدة، نظرة توبيخ استقبلتني بها في تلك القاعة الآنسة كابورالي : هي، التي عانت كثيراً بسبب الحب والتي شعرت مرات كثيرة بمواساة الفتاة الحلوة عديمة الخبرة، والآن وقد عرفت أدريانا الحب، والآن وقد جرحت أدريانا، كانت هي تريد بدورها أن تواسيها، عرفاناً واهتماماً، وكانت تثور ضدي لأنه كان يبدو لها من الظلم أن أجعل مخلوقة بهذا الجمال وبهذه الطيبة تتألم وتعاني . هي، نعم، فهي لم تكن جميلة ولم تكن طيبة، وبالتالي فإذا كان الرجال معها يظهرون أشراراً، فلهم على الأقل شيء من العذر . ولكن لماذا تجعل أدريانا تعاني هكذا؟

قالت لى هذا نظرتها، ودعتنى أن أنظر إلى تلك التى كنت أتسبب فى آلامها .

كم كانت شاحبة ! كان مازال ظاهراً فى عينيها أنها قد بكت . ومن يعلم مقدار الجهد الذى بذلته - فى ضيقها - لكى تتجمل لتخرج معى ...

على الرغم من الحالة النفسية التى ذهبت بها فى تلك الزيارة، فإنّ شخصية المركيز چيليو داوليتا وبيته قد أثارا فىّ شيئًا من الفضول.

كنت أعلم أنه كان موجوداً فى روما، لأنه فى سبيل إعادة مملكة الصقليتين لم يعد يرى وسيلة إلا الصراع من أجل نصرة السلطة الزمنية، ومتى أعيدت روما إلى البابا، فإن وحدة إيطاليا ستنفصم، وعندئذ ... من يعلم ! لم يكن المركيز يريد المخاطرة بإعلان توقعاته. فى تلك اللحظة، كان واجبه محدداً تحديداً دقيقًا : الكفاح دون هوادة، هنالك، فى حقل رجال الدين. وكان يتردد على بيته أكثر أساقفة الكنيسة تشدداً، وأكثر أنصار الحزب الأسود تحمساً.

ولكن فى ذلك اليوم، لم نجد أحداً فى حجرة الاستقبال الواسعة والمؤثثة تأثيثًا باهراً. لا، لا. كان يوجد فى المنتصف، حامل موضوعة عليه لوحة رسم نصفها، وهى عبارة عن صورة مينرڤا، كلبة ببيتا، وهى سوداء بالكامل، وتضطجع على مقعد أبيض بكامله، ورأسها ممتدة فوق رجليها الأماميتين .

أخبرنا ببيانو بنبرة تدل على الأهمية وكأنه يقوم بتقديمها تقديمًا يتطلب منا انحناءة كبيرة «اللوحة من عمل المصور برنالديز.»

فى البداية دخلت ببيتا بنتوجادا والمربية، السيدة كانديدا.

كنت قد رأيت الواحدة والأخرى فى حجرتى شبه المظلمة، والآن، وفى النور، بدت لى الآنسة بنتوجادا فتاة أخرى، ليس فى كل شىء حقيقة، ولكن أنفها ... هل من الممكن أنها كانت بذلك الأنف فى بيتى ؟ كنت قد تصورتها بأنف صغير متجه إلى أعلى، بأنف جسور ؛ وعلى العكس كان أنفها مثل منقار النسر، وضخماً . ولكنها كانت

مع هذا جميلة هكذا: سمراء، لامعة العينين، وبشعر لامع وأسود ومتموج، وبشفتين رفيعتين وحادتين ومتقدتين. وكان رداؤها الغامق المنقط باللون الأبيض مرسومًا على قدها الممتلئ رشيق الحركة. وكان جمال أدريانا الأشقر الهادئ بجانبها، شاحبًا.

وأخيراً استطعت أن أفهم ماذا كان فوق رأس السيدة كانديدا! كانت باروكة عظيمة مجعدة وصفراء تميل إلى اللون الأحمر، وفوق الباروكة منديل كبير من الحرير سماوى اللون، بل هو شال معقود بطريقة فنية أسفل الذقن . وبقدر ما كان الإطار زاهى الألوان بقدر ما كان وجهها النحيف المترهل شاحبًا وإن كان مبيضًا ومنعمًا ومجملاً .

وفى تلك الأثناء كانت مينرڤا، الكلبة العجوز، بنباحها الأجش المجهد، لا تدع مجالاً للمجتمعين. لكن الكلبة المسكينة لم تكن تنبح علينا، كانت تنبح على الحامل، كانت تنبح على المقعد الأبيض، اللذين كانا بالضرورة يمثلان لها أداتى تعذيب ؛ اعتراض وتنفيس نفس غاضبة . كانت تتمنى إخراج ذلك الجهاز اللعين ذى الأرجل الثلاث الطويلة من حجرة الاستقبال ؛ ولكن بما أنه باق هناك، ثابتًا ومهددًا فإنها كانت تنسحب، وهى تنبح، ثم كانت تهجم عليه مكشرة عن أنيابها ثم تعود إلى التقهقر غاضبة.

كانت مينرڤا قبيحة الشكل حقيقة ؛ فهى صغيرة وقصيرة وسمينة البدن وسيقانها الأربع القصيرة نحيفة غاية النحافة، وكانت عيناها معتمتين بسبب تقدمها فى السن، وشعر رأسها قد صار أبيض، وكان ظهرها، عند التقائه بذيلها قد سقط شعره بسبب عادة حكه بشدة تحت الأرفف وفى عوارض المقاعد وحيثما وكيفما حكته. وكنت أعلم شيئًا عن هذا.

وفجأة أمسكت بيبيتا بعنقها وألقت بها فوق ذراع السيدة كانديدا، قائلة لها «اسكتى .»

فى تلك اللحظة دخل دون أنياتسيو چيليو داوليتا مسرعًا . جرى إلى مقعده بالقرب من النافذة، منحنيًا وكأنه مقسوم نصفين، وما إن جلس واضعًا عصاه بين

ساقيه، حتى سحب نفسًا عميقًا وابتسم لتعبه المميت . كان وجهه المنهك، المجعد كله بتجاعيد رأسية، والحليق، شاحبًا شحوب الموت، ولكن عينيه، على عكس هذا، كانتا مليئتين بالحيوية، لامعتين، وكأنهما عينا شاب . وكانت تنسدل بنسق غريب على وجنتيه وعلى صدغيه خصلات كثيفة من الشعر تبدو كألسنة من الرماد المبلل.

استقبلنا بمودة كبيرة متحدثًا بلهجة أبناء نابولى المتميزة، ثم رجا سكرتيره أن يستمر فى أن يعرض علىّ التذكارات التى كانت قاعة الاستقبال مليئة بها، والتى كانت تشهد بإخلاصه لأسرة البربون الملكية . وعندما وقفنا أمام لوحة صغيرة مغطاة بستر أخضر مطرزة عليه باللون الذهبى العبارة التالية : " لا أحجب، أحمى، ارفعنى واقرأ " طلب من بيبانو أن يرفع اللوحة الصغيرة عن الحائط، وأن يأتيه بها . وكان تحت الستر إطار وزجاج يحمى رسالة من بيترو أوللوا[1] بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٨٦٠، أى عندما كانت الملكة تلفظ أنفاسها الأخيرة، يدعو فيها المركيز چيليو داوليتا للاشتراك فى الوزارة التى لم يمكن تشكيلها بعد ذلك، وبجوار هذه الرسالة مسودة رسالة المركيز بالقبول ؛ رسالة شجاعة كانت تدمغ كل أولئك الذين رفضوا تحمل مسئولية السلطة فى تلك اللحظة بالغة الخطورة التى اتسمت بالاضطراب الشديد فى مواجهة العدو، المغامر العسكرى غاريبالدى الذى كان قد وصل تقريبًا إلى أبواب نابولى.

فى أثناء قراءته بصوت جهورى لهذه الوثيقة، تحمس العجوز وتأثر تأثرًا كبيرًا . وعلى الرغم من أن ما كان يقرؤه كان مخالفًا لمشاعرى، فقد أثار إعجابى . لقد كان هو أيضًا من جانبه بطلاً وجاءنى دليل أخر على هذا، عندما أراد هو نفسه أن يروى لى تاريخ زنبقة من الخشب المذهب، كانت موجودة هناك، فى حجرة الاستقبال . فى صباح يوم ٥ سبتمبر ١٨٦٠ خرج الملك من القصر الملكى بنابولى فى مركبة مكشوفة مع الملكة ونبيلين من رجال البلاط، وعندما وصلت المركبة إلى شارع كيايا، اضطرت للتوقف بسبب إعاقة عربات (الكارو) وعربات الحنطور للطريق أمام صيدلية كانت على لافتتها

---

(١) بيترو أوللوا كالا (١٨٠٢ - ١٨٧٩) سياسى من نابولى من أنصار البربون حتى سقوط مملكة الصقليتين (المترجم).

الزنابق الذهبية[1]. كان سلم مستنداً على اللافتة يمنع المرور. وكان بعض العمال الذين صعدوا على ذلك السلم يخلعون الزنابق من اللافتة. لاحظ الملك ذلك وأشار بيده للملكة ليريها ذلك التصرف الاحتراسي الدنيء من جانب الصيدلي الذي كان قد طلب في وقت سابق أن يحظى بشرف زخرفة محله بهذا الشعار الملكي. وفي تلك اللحظة كان هو «المركيز داوليتا» يمر بالصدفة هناك : وفي استياء وغضب دخل الصيدلية مسرعًا وأمسك بياقة سترة ذلك الخسيس، وأشار إلى وجود الملك هناك بالخارج، ثم بصق على وجهه وأخذ يهتف وسط الجموع، رافعًا إحدى تلك الزنابق المنزوعة : « يحيا الملك! » .

وهذه الزنبقة الخشبية كانت تعيد إلى ذاكرته، هناك في حجرة الاستقبال، ذلك الصباح الحزين من شهر سبتمبر، وإحدى أخريات نزهات عاهله في شوارع نابولي ؛ وكان يفخر ويعتز بها مثلما كان يفخر تقريبًا بالمفتاح الذهبي الذي يحمله بوصفه نبيلاً ومستشاراً للملك، وبوسام فارس سان چيناور وبغيرهما من الأوسمة الأخرى المعروضة في أماكن بارزة بحجرة الاستقبال، تحت الصورتين الزيتيتين الكبيرتين لفرديناندو وفرانشسكو الثاني.

وبعد وقت قصير، وحتى أنفذ خطتي الشريرة، تركت المركيز مع بلياري وببيانو، واقتربت من ببيتا .

لاحظت فوراً أنها كانت عصبية جداً ونافذة الصبر. أرادت أول ما أرادت أن تعلم مني الساعة.

«الرابعة والنصف ؟ حسنًا! حسنًا!»

ولكنها لم تكن بكل تأكيد سعيدة بأن تكون الساعة الرابعة والنصف، فهمت هذا من قولها « حسنًا ! حسنًا ! » من بين أسنانها ومن حديثها المتقلب العدواني الذي اندفعت تتحدث فيه بعد هذا مباشرة ضد إيطاليا وبوجه خاص ضد روما المنتفخة بذاتها لماضيها التليد. وقالت لي، فيما قالت، إنهم هم أيضًا في إسبانيا لديهم كذلك

(١) الزنابق الذهبية : شعار البربون (المترجم) .

كولوسيوم مثل الموجود فى روما، وأثرى مثله، ولكنهم ليسوا مهتمين به فى قليل أو كثير :

«حجر ميت .»

كانت حلبة ثيران تساوى ما هو أكثر بكثير بالنسبة لهم. نعم، وبالنسبة لها هى على وجه الخصوص، كانت لوحة مينرڤا تلك التى يرسمها المصور مانويل برنالديز، الذى تأخر فى الحضور، تفوق فى قيمتها روائع الفن القديم كلها. كان نفاد صبر ببيتا لا يرجع إلى سبب آخر، وكان قد وصل إلى ذروته. كانت تنفعل فى حديثها، وكانت بين الفينة والفينة تمرر أحد أصابعها بسرعة كبيرة على أنفها، وتعض شفتها، وتفتح يديها وتضمهما، وكانت عيناها تتجهان دوما إلى هنالك، نحو الباب .

وأخيراً أعلن الخادم عن وصول برنالديز، الذى دخل حرانًا، يتصبب منه العرق، وكأنه كان يجرى. وفى الحال أدارت ببيتا له ظهرها واجتهدت أن يكتسى مظهرها بالبرود واللامبالاة، ولكن بعد أن حيا المركيز واقترب منا، أو من الأفضل واقترب منها، واعتذر لها عن التأخير وهو يحدثها بلغتها، لم تستطع هى أن تتماسك وأجابته بسرعة مذهلة :

«قبل كل شىء عليك أن تتكلم الإيطالية، لأننا هنا فى روما، وهؤلاء السادة لا يفهمون الإسبانية، ولا يبدو لى أن من الكياسة أن تكلمنى بالإسبانية . ثم أقول لك إن تأخرك لا يهمنى فى شىء وأنه كان يمكنك أن توفر لنفسك الاعتذار.»

ابتسم الرجل بعصبية وانحنى، وقد شعر بالهوان، ثم طلب منها إن كان يستطيع أن يستأنف رسم اللوحة نظراً لأن الوقت لايزال نهاراً .

أجابته هى، بالطريقة نفسها وباللهجة نفسها «تفضل ! يمكنك أن ترسم بدونى أو يمكنك كذلك أن تمحو الرسم، كما يحلو لك .»

عاد مانويل برنالديز ينحنى واتجه إلى السيدة كانديدا التى كانت لاتزال تحمل الكلبة على ذراعها .

وبدأ عندئذ من جديد تعذيب مينرڤا . ولكن لتعذيب أقسى بكثير خضع جلادها : أخذت ببيتا، حتى تعاقبه على التأخير، تتظاهر بتدللها الشديد عليّ، بدا لى مبالغًا فيه بالنسبة للهدف الذى كنت أرمى إليه . وعندما كنت ألتفت بنظرى التفاتة خاطفة نحو أدريانا كنت ألاحظ مقدار ما كانت تعانيه. لم يكن التعذيب إذن هو تعذيب برنالديز ومينرڤا فحسب، بل كان من نصيبى ونصيبها كذلك. كنت أشعر بوجهى محمومًا وكأن الغيظ الذى كنت أعلم أننى أسببه لذلك الشاب، الذى لم يكن يوحى لى بالشفقة، كان يسكرنى شيئًا فشيئًا . كانت من توحى لى بالشفقة هناك بالداخل، هى أدريانا فقط، ولأنه كان يجب أن أسبب لها الشقاء، لم يكن يعنينى أن يشقى هو أيضًا ويعانى الألم نفسه، وشيئًا فشيئًا زاد العنف الذى كان يمارسه كل منا مع نفسه وامتد لدرجة أنه كان بالضرورة سيتفجر بشكل ما .

وقدمت مينرڤا الذريعة لهذا . كانت فى ذلك اليوم لا تشعر بنظرة صاحبتها الشابة التى تأمرها بالخضوع، فأخذت، كلما حول المصور عينيه عنها إلى اللوحة، تقوم من وضعها المفروض وتضع سيقانها وخطمها فيما بين مسند المقعد وقاعدته وكأنها تريد أن تدخل بينهما لتختبئ هناك، وكانت تعرض على المصور مقعدتها الجميلة المكشوفة مثل الرقم [٥] وهى تهز ذيلها المستقيم وكأنها تهزأ هزءًا. ولمرات كثيرة أعادتها السيدة كانديدا إلى وضعها الصحيح.وكان برنالديز فى أثناء انتظاره يزفر، ويلتقط بسرعة إحدى كلماتى التى أوجهها إلى ببيتا ويعلق عليها مهمهمًا بصوت خفيض . ولأكثر من مرة، ولأنى لاحظت هذا، كنت على وشك أن آمره :

« تكلم بصوت عال ! » ولكنه فى النهاية لم يعد يحتمل وصرخ فى ببيتا :

«أرجوك، على الأقل اجعلى الحيوان يقف ثابتًا !»

اندفعت ببيتا وهى تحرك يديها فى الهواء ثائرة «حيوان، حيوان . لعلها حيوان، ولكن لا يجب أن يقال لها هذا !»

أردت أن أبدى ملاحظة للاعتذار، وأنا أتوجه إلى برنالديز «من يدرى ما تفهم، مسكينة ...

فى الحقيقة كان يمكن تأويل عبارتى بمعنيين ؛ أدركت هذا بعد أن نطقت بها . كنت أريد القول : « من يعلم ماذا تتصور ما يجرى لها » . ولكن برنالديز فسر كلماتى تفسيراً آخر وبعنف بالغ أجابنى وهو يحملق بعينيه فى عينىّ .

«هذا ما يبين أنك أنت لا تفهم !»

ولم أستطع أمام نظرته الثابتة والمستفزة، وفى ثورتى التى كانت تتأجج فى نفسى أنا أيضًا، إلا أن أرد عليه :

«ولكنى أفهم، يا سيدى، أنك قد تكون مصوراً كبيراً ...»

وسأل المركيز وقد لاحظ تصرفنا العدوانى «ما هذا ؟»

ونهض برنالدين، وقد فقد كل سيطرته على ذاته، وجاء ليقف فى مواجهتى :

«مصور كبير ... أكمل !»

«مصور كبير، هاك ... ولكن قليل الذوق، على ما يبدو لى، ويخيف الكلبة» قلت له هذا بحزم واحتقار .

قال «حسنًا، سنرى إن كنت أخيف الكلاب فقط !»

وانسحب .

وفجأة انفجرت ببيتا فى بكاء متشنج غريب، وسقطت مغشياً عليها بين ذراعى السيدة كانديدا وذراعى ببيانو .

فى حالة الفوضى التى عمت المكان، وبينما كنت مع الآخرين أحاول النظر إلى بنتوجادا وقد وُضعت على الأريكة، شعرت بمن يمسك بذراعى ورأيت من جديد برنالديز أمامى وقد عاد أدراجه . تحاشيت فى الوقت المناسب يده التى رفعها علىّ ودفعته بقوة،

ولكنه اندفع نحوى مرة أخرى ولمس وجهى بيده لمسًا هيِّنًا. اندفعت فى غضب، ولكن ببيانو وبلياري هرعا ليمسكاني، بينما أخذ برنالديز ينسحب صارخًا فيَّ :

«إن كنت تريد المبارزة ! أنا رهن إشارتك ! ... هم هنا يعرفون عنواني !»

كان المركيز قد همَّ بالوقوف من مقعده متوترًا، وكان يصرخ ضد المعتدى ؛ وفى تلك الأثناء كنت أحاول التخلص من بليارى وببيانو اللذين كانا يمنعاننى من العدو للحاق بالرجل. وحاول المركيز كذلك أن يهدئنى قائلاً لى إننى كرجل شريف يجب أن أرسل صديقين ليلقنا ذلك الوغد، الذى تجرأ ولم يبد احترامًا كاملاً لبيته درسًا جيداً .

اعتذرت له عن هذا الحادث المؤسف وجسدى كله يرتجف ونفسى يتهدج وانطلقت خارجًا وفى إثرى بليارى وببيانو . وظلت أدريانا بجانب المغشى عليها، التى نقلت من مكانها.

كان عليّ أن أدفع لسارقى حتى يكون شاهداً لى، هو وبليارى ؛ فلمن غيرهما كنت أستطيع اللجوء؟

هتف السيد أنسلمو بصفاء واندهاش «أنا ؟ ما هذا ؟ لا يا سيدى ! هل أنت جاد ؟ (وأخذ يبتسم) - أنا لا أفهم فى هذه الأمور، يا سيد مايس ... دعك من هذا ... دعك، فهذه أمور صبيانية، وتفاهات، معذرة ...»

صرخت فيه بقوة إذ كنت غير قادر على الدخول فى مناقشة معه فى تلك اللحظة «ستفعل هذا من أجلى . ستذهب مع زوج ابنتك إلى ذلك السيد، و ...»

قاطعنى «ولكنى لن أذهب ! ماذا تقول ! اطلب منى أى خدمة أخرى، وسأكون مستعداً لخدمتك، ولكن هذا، لا، ليس هذا دوراً يناسبنى، قبل كل شيء، ثم دعك من هذا، قلت لك : أمور صبيانية ! ولا ينبغى أن تعطى اهتمامًا ... ما دخل هذا بـ ...»

تدخل ببيانو فى الحوار وهو يرانى متمسكًا «هذا لا ! هذا لا ! له دخل تمامًا ! للسيد مايس كل الحق فى المطالبة بترضية، بل أقول إنه واجب، بكل تأكيد ! يجب، يجب ...»

قلت وأنا لا أنتظر منه هو أيضًا رفضًا «إذن ستذهب أنت مع أحد أصدقائك.» ولكن ببيانو رفع ذراعيه مبديًا تألمه .

«لتتصور كم أود أن أقوم بهذا !»

فصرخت فيه بقوة، فى وسط الطريق «ألن تفعل هذا ؟»

رجانى هو بخضوع «مهلاً، يا سيد مايس، انظر ... اسمع : ضع فى اعتبارك ... ضع فى اعتبارك ظروفى المتواضعة كمرءوس ... سكرتير بائس للمركيز ... خادم، خادم، خادم ...»

«وما دخل هذا ؟ فالمركيز نفسه ... هل سمعته ؟»

«نعم يا سيدى ! ولكن غدًا ! ذلك المؤيد للإكليروس ... أمام الحزب ... وسكرتيره الذى يتورط فى مسائل فروسية ... آه، يا ألله القدوس، أنت لا تعلم مقدار المآسى! ثم، هل رأيت تلك الطائشة؟ إنها تعشق المصور، ذلك الوغد، عشقًا كبيرًا ... وغدا يتصالحان، وعندئذ، معذرة، ماذا يكون موقفى؟ أتورط ! أرجوك، يا سيد مايس، اعتبرنى ... الأمر هكذا »

اندفعت محتدًا مرة أخرى فى غيظ «إذن تريدان تركى وحدى فى هذا الظرف الصعب؟ أنا لا أعرف أحدًا هنا فى روما !»

أسرع ببيانو بتقديم النصيحة لى « ... لكن يوجد حل ! يوجد حل ! كنت أريد أن أقوله لك فورًا ... سواء أنا أو حماى، صدقنى، قد ننخدع، فلسنا مناسبين لهذا الأمر ... لك حق ... أنت منفعل، أرى هذا ! فالدم ليس ماءً، إذن عليك باللجوء فورًا إلى ضابطين بالجيش الملكى، لا يستطيعان الامتناع عن تمثيل رجل شريف مثلك فى مبارزة على الشرف. عليك بتقديم نفسك، واعرض عليهما المسألة ... ليست هذه هى المرة الأولى التى يقومون فيها بتقديم هذه الخدمة للغرباء.»

كنا قد وصلنا إلى باب البيت، قلت لببيانو «حسنًا ! وتركته هنالك، مع حميه، ومضيت وحدى، ممتقع الوجه، على غير هدى.

وبرزت أمامى مرة أخرى الفكرة الساحقة عن عجزى الكامل. هل كنت أستطيع القيام بمبارزة فى ظروفى هذه ؟ أمازلت لا أريد أن أفهم أننى كنت عاجزًا عن عمل أى شىء ؟ ضابطان ؟ نعم. ولكنهما سيريدان أولاً أن يعرفا، ولهما كل الحق فى هذا، من أنا، آه، وكانا يستطيعان كذلك أن يبصقا علىّ، وأن يصفعانى، ويضربانى ، وكان علىّ أن أرجوهما أن يضربانى ضربًا مبرحًا، نعم، بقدر ما يريدان، ولكن دون أن يصيحا، ودون أن يثيرا ضجة ... ضابطان ! ولو كشفت لهما عن حالتى الحقيقية تقريبًا، فإنهما أولاً وقبل كل شىء لن يصدقانى، ومن يدرى ماذا يشتبهان، ثم لن يجدى هذا شيئًا، تمامًا كما هو الحال بالنسبة لأدريانا، لو أنهما صدقانى، فسينصحاننى أن أعود أولاً للحياة، لأن الميت لا مكان له فى الشروط المنصوص عليها فى قانون الفروسية ... إذن هل كان علىّ أن أكابد الإهانة فى سلام، مثلما كابدت السرقة ؟ هل أنصرف جبانًا وقد شُتمت، وكدت أن ألطم، وتم توجيه التحدى لى، وأختفى هكذا فى ظلمة المصير المحتوم الذى لا طاقة لى به، مهانًا وبغيضًا أمام نفسى؟

لا، لا! وكيف لى أن أعيش بعد هذا ؟ وكيف أتحمل حياتى ؟ لا، لا، كفى ! كفى ! وتوقفت . ورأيت كل الأشياء تتداعى من حولى، وشعرت بأنى أنهار عند ظهور شعور غامض مفاجئ سَرت على إثره رعشة من رأسى حتى أخمص قدمى.

قلت لنفسى وأنا أهذى «ولكن على الأقل فى البداية، فى البداية ... على الأقل أحاول فى البداية ... لم لا ؟ أن يفعلا هذا لى ... أحاول على الأقل ... حتى لا أبقى أمام نفسى جبانًا هكذا ... لو فعلا هذا بى ... فسأتقزز من نفسى تقززًا أقل ... عمومًا، لم يعد عندى ما أخشى فقدانه ... لماذا لا أحاول ؟»

كنت على بعد خطوتين من مقهى أرانيو[١]. « إلى هناك، هناك، للمخاطرة! » وبرغبتى العمياء التى كانت تستثيرنى، دخلت .

---

(١) مقهى معروف فى روما كان الأدباء يجتمعون فيه (المترجم) .

فى القاعة الأولى كان يجلس خمسة أو ستة ضباط مدفعية حول إحدى المناضد، وما إن رآنى أحدهم أقف هنالك بالقرب منهم متكدرًا ومترددًا حتى استدار لينظر إلى، فأشرت له بالتحية وبصوت متهدج من ضيق النفس، قلت له :

«عفوًا ... أرجوك ... هل أستطيع أن أقول لك كلمة ؟»

كان شابًا صغيرًا، بلا شارب، ربما تخرج فى تلك السنة نفسها فى الأكاديمية، ملازمًا . نهض حالاً، واقترب منى بأدب جم.

«تكلم، سيدى ...»

«هاك، أقدم لك نفسى : أدريانو مايس . أنا غريب، ولا أعرف أحدًا ... وقعت معى ... مشاجرة، نعم ... وأحتاج إلى شاهدين للمبارزة ... لا أعلم إلى من ألجأ ... فإن شئت أنت مع أحد زملائك ...»

أصابته المفاجأة، فبقى مترددًا وأخذ يرقبنى، ثم استدار نحو زملائه ونادى :

«يا جريليوتى !»

كان هذا ملازمًا قديمًا له شاربان كثيفان مرفوعان إلى أعلى، والعدسة موضوعة على عينه، وكان شعره مصفَّصًا ومدهونًا، ونهض واقفًا وهو مستمر فى الحديث مع زملائه (كان ينطق الراء كما تنطق بالفرنسية) واقترب منا، وانحنى لى انحناءة خفيفة متزنة.

عندما رأيته ينهض، كنت على وشك أن أقول للملازم الصغير : « ذلك، لا، أرجوك! ذلك، لا! » . ولكن ماكان أحد آخر من المجموعة، كما عرفت فيما بعد، أنسب منه لهذا الغرض بكل تأكيد. كان يعرف معرفة كاملة مواد قانون الفروسية.

لن أستطيع هنا أن أنقل حرفيًا كل ما تلطف بقوله لى حول قضيتى، وكل ما طلبه منى ... كان على أن أرسل برقية، لا أعلم كيف، ولا أعلم لمن، وأعرض فيها وأحدد وأذهب إلى الكولونيل ... وبالتأكيد سيتم كل شيء ... كما فعل هو، ولم يكن بعد تحت

السلاح، ووقع له فى باقيا ماحدث لى نفسه ... لأنه، فى موضوع الفروسية ... وأخذ يذكر ويذكر موادَّ وسوابق واختلافات فى الرأى وهيئات قضائية فى شئون الشرف وغيرها .

كنت قد بدأت أشعر بالقلق منذ أن رأيته، فما بالى بعد أن سمعته يسهب فى حديثه هكذا ! عند لحظة معينة، لم أعد أقوى على الاحتمال، فصعد الدم إلى رأسى واندفعت قائلاً :

«نعم يا سيدى ! لكنى أعلم هذا ! حسنًا ... ما تقوله حسن، ولكن كيف تريد منى أن أرسل برقية، الآن ؟ إننى وحدى ! أريد أن أخوض المبارزة، هذا كل ما فى الأمر! أخوض المبارزة فورًا، غدًا، إن أمكن ... دون مقدمات طويلة ! وماذا تريد منى أن أعلم عن هذا ؟ لقد لجأت إليكم راجيًا ألا تكون هناك حاجة لشكليات كثيرة، لتفاهات كثيرة، ولإجراءات كثيرة لا قيمة لها، معذرة !

بعد هذه الزوبعة، تحولت المحادثة تقريبًا إلى مشاحنة وانتهت فجأة بأن انفجر أولئك الضباط كلهم فى الضحك ضحكًا فظًا . مضيت خارجًا، فى غضب، وقد احتقن وجهى وكأنهم جلدونى بالسِّياط . رفعت يدى إلى رأسى وكأنى أستوقف عقلى الذى يطير منى، وابتعدت مسرعًا، تلاحقنى تلك الضحكات، حتى أختبئ فى أى مكان ... أين ؟ فى البيت ؟ شعرت بشناعة هذا . ومضيت، ومضيت بلا هدف، ثم رويدًا رويدًا خففت من سرعة خطواتى، وفى النهاية وقفت لاهثًا، وكأننى لم أعد أستطيع أن أجرّ نفسى وقد جلدها ذلك الهزء، وهى متوترة ومليئة بكآبة رمادية موجعة. بقيت لفترة مبهوتًا، ثم تحركت من جديد، دون أن أفكر، وقد تخففت فجأة، بطريقة غريبة، من كل ضيق، وكأنى قد تبلدت، واستأنفت التسكع، لا أدرى لكم من الوقت، متوقفًا هنا وهناك لأنظر فى واجهات المحلات، التى كانت تغلق شيئًا فشيئًا، وكان يبدو لى أنها تغلق من أجلى، إلى الأبد ؛ وأن الشوارع تخلو من المارة رويدًا رويدًا، حتى أبقى وحدى فى الليل، متسكعًا بين بيوت صامتة ومظلمة وقد أغلقت أبوابها كلها، ونوافذها كلها، مغلقة من أجلى، إلى الأبد ؛ كانت الحياة تنغلق، وتظلم، وتصمت مع ذلك الليل ؛ وكنت أنا

أراها وكأنى عن بعد، وكأنها لم يعد لها معنى أو هدف بالنسبة لى . وفى النهاية ها أنا، ودون إرادة منى، وكأن الإحساس المبهم الذى تملكنى كلى، ونما بداخلى شيئًا فشيئًا يقودنى، ها أنا قد وجدت نفسى من جديد فوق كوبرى مرجريتا، أستند إلى سوره، لأنظر بعينين محملقتين النهر الأسود فى الليل.

انتابتنى قشعريرة من الفزع، جعلت كل طاقاتى الحيوية تنتفض بانفعال غاضب وقد تسلحت بمشاعر كراهية عنيفة ضد اللتين، كانتا تجبراننى من بعيد، على أن أنتهى، كما أرادتا، هنالك، فى طاحونة ستيا . كانت روميلدا وأمها، قد ألقيتانى فى هذه الظروف الصعبة : آه ! لم أكن أنا لأفكر فى تصنع انتحار حتى أتحرر منهما . وهاأنذا الآن، وبعد أن درت وتجولت لسنتين وكأنى خيال، فى وهم الحياة بعد الموت ذاك، كنت أرى ذاتى مجبرًا، ومضطرًا، ومشدودًا من شعرى حتى أنفذ فى نفسى حكمهما . كانتا قد قتلتانى حقًّا ! وهما، هما فقط تحررتا منى ...

هزتنى ارتجافة تمرد. ألا أستطيع أنا أن أثأر منهما، بدلاً من أن أقتل نفسى؟ من ذا الذى أوشك أن أقتله ؟ ميت ... لا أحد ...

بقيت وكأن نورًا مفاجئًا غريبًا قد بهرنى. أنتقم لنفسى ! إذن، هل أعود إلى هناك، إلى ميرانيو ؟ وهل أخرج من تلك الكذبة التى كانت تخنقنى، وقد صارت لا تحتمل، وأعود حيًا عقابًا لهما، باسمى الحقيقى، وبأحوالى الحقيقية وبتعاساتى الحقيقية ؟ وتعاساتى الحالية ؟ هل كنت أستطيع أن أنفضها عنى هكذا، وكأنها عبء ثقيل يمكن إلقاؤه بعيدًا ؟ لا، لا، لا ! كنت أشعر أنى لا أستطيع عمل هذا. وكنت أثور هنالك، فوق الكوبرى، وأنا مازلت متحيرًا من مصيرى.

فى تلك الأثناء كنت أتحسس فى جيب معطفى وأضغط بأصابعى المضطربة على شىء لم أستطع أن أفهم كنهه. وفى النهاية وفى اندفاعة غضب أخرجته خارجًا . كانت قلنسوة السفر، تلك التى وضعتها فى جيبى عندما خرجت من البيت لزيارة المركيز چيليو، دون أن أتنبه إلى هذا . هممت أن ألقيها فى النهر، ولكن عند هذا خطرت لى فكرة ؛ تأمل فكرت فيه فى أثناء الرحلة من ألنجا إلى تورينو عاد واضحًا إلى ذاكرتى.

قلت فى نفسى دون وعى : « هنا، فوق هذا السور ... القبعة ... العصاة ... نعم! مثلهما هما هناك، فى قناة الطاحونة، ماتيا باسكال، أنا، هنا، الآن أدريانو مايس ... لكل واحد دور ! أعود حيًا، سأثأر لنفسى » .

قفزت فرحًا، بل انتابتنى موجة عارمة من جنونه . نعم ! نعم ! ما كان يجب علىّ أن أقتل نفسى، وأصير ميتًا، بل يجب علىّ أن أقتل ذلك الوهم المجنون والعبثى الذى عذبنى ومزقنى سنتين، أدريانو مايس ذاك الذى قضى عليه بأن يكون جبانًا، وكاذبًا، وبائسًا ؛ كان يجب علىّ أن أقتل أدريانو مايس ذاك، ولأنه اسم وهمى، كما كان فعلاً، فلابد أن مخه من القش، ومن الورق المقوى قلبه، ومن المطاط عروقه، يجرى فيها شىء من الماء المصبوغ، بدلاً من الدم ؛ إذن، نعم ! فلتمض إذن، ولتسقط، لتسقط، أيها المسخ البائس الكريه ! ولتغرق هناك، مثل ماتيا باسكال ! لكل واحد دوره ! فخيال الحياة ذاك، الذى قام على أكذوبة شنيعة، كان ينبغى أن ينتهى نهاية جديرة به هكذا، بأكذوبة شنيعة ! وكنت أقوّم كل شىء ! وأى تكفير آخر كنت أستطيع أن أقدم لأدريانا عن الشر الذى اقترفته فى حقها ؟ ولكن هل كانت إهانة ذلك الدنىء ستبقى ملتصقة بى ؟ كان قد هاجمنى النذل على حين غرة ! أوه ! لقد كنت واثقًا من أنى لا أخشاه . لست أنا، لست أنا، بل أدريانو مايس هو الذى تلقى الإهانة. والآن، هاهو، أدريانو مايس يقتل نفسه.

لم يكن هناك سبيل آخر للنجاة أمامى !

فى تلك اللحظة انتابتنى رعدة، وكأنى على وشك أن أقتل حقيقة شخصًا ما. ولكن عقلى زال عنه الضباب فجأة، وخف قلبى، وتمتعت بصفاء روحى بهيج .

نظرت حولى. ارتبت أن يكون هناك أحد بأعلى كورنيش نهر التيبر، شرطى توقف بعد أن رآنى واقفًا منذ فترة فوق الكوبرى، ليراقبنى . أردت أن أتأكد من هذا ؛ مضيت، ونظرت فى البداية بياتسا ليبرتا، ثم كورنيش نهر التيبر مللينى . لا أحد ! عندئذ عدت أدراجى، ولكن قبل أن أخطو نحو الكوبرى، وقفت بين الأشجار، تحت أحد أعمدة الإنارة، ونزعت ورقة من مفكرتى وكتبت عليها بالقلم الرصاص : أدريانو مايس.

ومـاذا أيضًا ؟ لا شيء . العنوان والتاريخ . كان هذا يكفى . كان كل شيء هناك، أدريانو مـايس، فى تلك القبـعـة، وفى تلك العـصـا . وكنت سـأترك كل شيء هنالك، فى البـيت، الملابس والكتب ... والمال، بعد السرقة، كنت أحتفظ به معى .

عدت فـوق الكوبرى، هـادئًا، منحنيًـا . كـانت سـاقـاى ترتعـشـان، وكـان قلبى يعـصـف بى فى صـدرى . اخـتـرت أقل الأمـاكن التى تنيرهـا أعـمـدة النور، وفى الحـال خلعت قبعتى، وغرست الورقة المطوية فى شريطها، ثم وضعتها على السور وبجوارها العصا، ووضعت فوق رأسى قلنسوة السفر العجيبة التى أنقذتنى وانطلقت باحثا عن الظل مثل لص، دون أن أنظر إلى الخلف.

وصلت إلى مـحطـة القـطـار فى مـوعد قطار الثانية عشرة وعشر دقائق المتجه إلى بيزا.

(١٧)

عود على بدء

وبعد أن أخذت التذكرة، انزويت في عربة من عربات الدرجة الثانية وحافة القلنسوة نازلة حتى أنفي، ليس لأخفي وجهي ولكن بالأحرى حتى لا أرى. وعلى الرغم من هذا كنت أرى، بفكري، كان كابوس تلك القبعة وتلك العصا، اللتين تركتهما هنالك، فوق سور الكوبري يؤرقني. هوذا، لعل شخصًا ما، في تلك اللحظة، لمحهما ... أو لعل شرطيًا ليليًا قد جرى إلى المباحث العامة للإبلاغ ... وكنت لا أزال في روما! لماذا هذا الانتظار ؟ لم أعد أتنفس...

وأخيرًا اهتز القطار. لحسن الحظ كنت وحدي في المقصورة . نهضت واقفًا، ورفعت ذراعي، وتنفست الصعداء، وكأن حجرًا كبيرًا قد انزاح عن صدري . آه ! كنت عائدًا لأكون حيًا، لأكون أنا، أنا، ماتيا باسكال. كنت أتوق أن أصرخ بصوت عال للجميع، الآن : « أنا، أنا، ماتيا باسكال ! أنا هو ! لم أمت ! هاأنذا هنا !» وألا أضطر بعد ذلك للكذب، وألا أضطر بعد ذلك للخوف من أن ينكشف أمري ! لا، ليس بعد، في الحقيقة، ما دامت لم أصل إلى ميرانيو ... هناك، كان يجب علي، أولاً، أن أعلن عن نفسي، وأن أجعلهم يقرون بأني حي، وأن ألتصق من جديد بجذوري الدفينة ... مخبول ! كيف توهمت أن يستطيع الحياة جذع قطع من جذوره ؟ ومع هذا هاأنذا، كنت أتذكر الرحلة الأخرى، ذلك السفر من ألنجا إلى تورينو، لقد عددت نفسي أنذاك سعيدًا بالطريقة نفسها. مخبول ! التحرر ! كنت أقول ... كان قد بدا لي ذلك تحررًا ! نعم، بعباءة كذب ثقيلة من الرصاص ! بعباءة من الرصاص فوق خيال ...

ولكن الزوجة كانت ستجثم عليّ من جديد، حقًا، وتلك الحماة ... ولكن ألم تكونا جاثمتين عليَّ أيضًا وأنا ميت ؟ ولكنى على الأقل عدت حيًا، ومناضلاً. آه ! سنتصرف..

كان الطيش الذى دفعنى إلى أن ألقى بنفسى فى طريق الصدفة، منذ عامين مضيا، خارجًا على أى قانون، يبدو لى، عندما أمعن التفكير فيه، أمرًا غير حقيقى . وكنت أستعيد النظر إلى نفسى فى الأيام الأولى، سعيدًا فى عدم الوعى أو بالأحرى فى الجنون، فى تورينو ومن بعدها فى المدن الأخرى على التوالى، هائمًا وصامتًا ووحيدًا ومنغلقًا على ذاتى وفى الشعور بما كان يبدو لى آنذاك سعادتى، وهاأنذا فى ألمانيا فوق نهر الراين على إحدى البواخر ؛ هل كان حلمًا ؟ لا، لقد كنت هناك حقًا، آه لو أنى استطعت أن أستمر دومًا فى تلك الظروف ؛ أسافر، غريبًا على الحياة ... ولكن فى ميلانو، ثم ... ذلك الجرو المسكين الذى كنت أريد شراءه من بائع كبريت عجوز، كنت أبدأ فى أن أفطن وبعد ... آه ثم !

عرجت بفكرى على روما، دخلت كخيال فى البيت المهجور . هل كانوا نائمين جميعًا؟ أدريانا، ربما، لا ... لا تزال تنتظرنى، تنتظر عودتى للبيت ؛ لعلهم قالوا لها إنى ذهبت بحثًا عن شاهدين، لأبارز برنالديز ؛ لا تشعر حتى الآن بعودتى للبيت، وينتابها الخوف وتبكى ...

ضغطت بيدى بقوة على وجهى وأنا أشعر بقلبى ينقبض لوعةً .

تنهدت «ولكن إن لم أكن أستطيع أن أكون حيًا بالنسبة لك، ياأدريانا، فمن الأفضل أن تعلمى الآن أنى ميت ! ميتتان الشفتان اللتان قطفتا قبلة من فيك، ياأدريانا المسكينة ... انسِ ! انسِ !.»

آه، ماذا كان سيحدث فى ذلك البيت فى الصباح التالى، عندما سيصل أحد رجال المباحث ليبلغهم بالخبر ؟ وبعد أن يفيقوا من ذهولهم الأول ما هو الدافع الذى سيرجعون إليه انتحارى ؟ هل إلى المبارزة الوشيكة ؟ لا ! سيكون، على الأقل، من

الغريب جدًا، أن رجلاً، لم يثبت بالدليل إطلاقًا أنه جبان، يقتل نفسه خوفًا من مبارزة ... وماذا إذن ؟ هل لأنى لم أستطع أن أجد شاهدين ؟ سبب واه ! أو ربما ... من يعلم !.

كان من الممكن أن يكون هناك سبب غامض فى حياتى الغريبة تلك ... أوه ! نعم : كانوا سيفكرون فى هذا بلا شك ! قتلت نفسى هكذا، دون أى سبب ظاهر، ودون أن أظهر أولاً نية الانتحار بأى طريقة من الطرق . نعم ؛ بعض الغرائب اقترفتها، وأكثر من أمر غريب فى الأيام الأخيرة تلك : مشكلة السرقة تلك، التى وُجه الاتهام بشأنها فى البداية، ثم جرى تكذيبها فجأة ... أوه ! هل يمكن ألا تكون تلك النقود نقودى ؟ هل كان على أن أعيدها إلى شخص ما ؟ هل استوليت بطريقة غير مشروعة على جانب منها وحاولت أن أتظاهر بأنى ضحية لعملية سرقة، ثم ندمت، وفى النهاية، انتحرت ؟ من يدرى ! من المؤكد أنى كنت رجلاً غامضًا للغاية ؛ فلا صديق، ولا خطاب إطلاقًا من أى ناحية ...

كان من الأفضل لو أنى كتبت شيئًا فى تلك الورقة، بالإضافة إلى الاسم والتاريخ والعنوان، أى سبب للانتحار . ولكن فى تلك اللحظة ... ثم، أى سبب ؟

فكرت مضطربًا «من يدرى كيف وكم ستصرخ الجرائد الآن بأدريانو مايس الغامض هذا – فسوف يظهر بكل تأكيد ابن عمى المشهور ذاك، فرانشسكو مايس، من تورينو ويعمل مندوبًا مساعدًا، ليدلى بمعلوماته للمباحث ، وسوف يجرى البحث على أثر هذه المعلومات، ومن يدرى عما ستسفر . نعم، ولكن النقود ؟ الميراث ؟ لقد رأت أدريانا أوراقى المالية تلك كلها ... ولنتخيل ببيانو ! هجوم على الخزانة ! ولكنه سيجدها خاوية ... إذن، هل ضاعت ؟ فى قاع النهر ؟ حرام ! حرام ! ياالغضبه من أنه لم يسرقها كلها مرة واحدة ! ستصادر المباحث ملابسى، وكتبى ... لمن ستئول ؟ أوه ! ولو تذكار واحد على الأقل لأدريانا المسكينة ! كيف ستنظر هى إلى حجرتى الخالية ؟

وهكذا، أسئلة وافتراضات وأفكار ومشاعر كانت تضطرب فى نفسى، بينما كان القطار يدوى فى الليل. كانت لا تتركنى فى سلام .

وتوخيًا للحذر قدرت أن أتوقف بعض الأيام فى بيزا حتى لا تظهر علاقة بين ظهور ماتيا باسكال من جديد فى ميرانيو واختفاء أدريانو مايس فى روما، وهى علاقة قد تظهر بسهولة للعيان، وخاصة إذا تحدثت جرائد روما كثيراً عن هذا الانتحار. كنت سأنتظر فى بيزا صحف روما، صحف المساء وصحف الصباح، ثم إذا لم تكن هناك ضجة، فإننى قبل أن أذهب إلى ميرانيو، سوف أمضى إلى أونيليا، عند أخى روبرتو، لكى أجرب تأثير قيامتى عليه . ولكن كان يجب على أن أمتنع تماماً عن أن أشير أبسط إشارة إلى إقامتى فى روما، وإلى مغامراتى، وإلى الأحوال التى مررت بها. وعن هاتين السنتين والشهرين اللذين غبتهما كنت سأقدم أخباراً خيالية، عن رحلات بعيدة ... آه، والآن وأنا أعود للحياة فلعلى أستطيع أن أستمتع بأن أقول أكاذيب كثيرة كثيرة، وفى قوة أكاذيب الفارس تيتولنتسى، وأضخم منها أيضًا !.

بقيت معى اثنان وخمسون ألف ليرة . ومن المؤكد أن الدائنين، وقد عرفوا منذ سنتين أنى قد توفيت، قد اكتفوا بضيعة ستيا والطاحونة، ولن يزعجونى . كان على أنا أن أفكر فى ألا أتعرض للإزعاج بعد الآن لو أنهم سعوا لذلك . وباثنين وخمسين ألف ليرة، فى ميرانيو، إذن، لا أقول إنى سأعيش غنيًا، ولكننى سأستطيع أن أعيش حياة معتدلة.

ما إن نزلت من القطار فى بيزا، حتى ذهبت أولاً وقبل كل شيء لشراء قبعة بشكل ومقاس القبعات التى كان ماتيا باسكال معتاداً أن يلبسها فى أيامه، وبعد ذلك ذهبت مباشرة لحلاقة شعر ذلك الأبله المدعو أدريانومايس .

قلت للحلاق : قصير، قصير جداً، هه ؟

كانت لحيتى قد صارت طويلة شيئًا ما، والآن وبشعرى القصير ها أنا قد بدأت فى استعادة شكلى الأول، ولكنه تحسن كثيراً، فقد صار أرق ... نعم صار أكثر لطفًا. فلم تعد العين غير مستقيمة، هه ! لم تعد تلك العين المميزة لماتيا باسكال .

على كل حال، سيبقى فى وجهى شيء ما من أدريانو مايس . ولكنى الآن أشبه إلى حد كبير روبرتو ؛ أوه، هذا ما لم أكن أظنه أبداً.

كانت المشكلة، عندما وضعت القبعة التى اشتريتها منذ قليل - بعد أن تخلصت من شعرى القبيح ذلك - أنها نزلت حتى القفا ! واضطررت إلى حل المشكلة بمساعدة الحلاق، بأن وضعت شريطًا من الورق تحت البطانة.

وحتى لا أدخل هكذا، خاوى اليدين، فى أحد الفنادق، اشتريت حقيبة كنت سأضع بداخلها مؤقتًا البدلة التى كنت أرتديها ومعطفى الثقيل . كان على أن أتزود بكل شىء من جديد، فما كان لى أن آمل أن تكون زوجتى قد احتفظت، بعد زمن طويل، فى ميرانيو ببعض ملابسى وكذلك بملابسى الداخلية . اشتريت بدلة جاهزة من أحد المحال وتركتها فوق جسمى ونزلت بالحقيبة الجديدة فى « هوتيل » نتونو .

سبق لى أن جئت إلى بيزا عندما كنت أدريانو مايس، ونزلت آنذاك فى فندق لندن. وشاهدت وقتها عجائب المدينة الفنية كلها، ولكنى فى هذه المرة كنت خائر القوى بسبب الانفعالات العنيفة، وعدم تناول أى طعام منذ صباح اليوم السابق، فكنت أسقط من الجوع والنعاس . تناولت بعض الطعام، ثم خلدت إلى النوم حتى المساء تقريبًا.

ولكن ما إن استيقظت حتى وقعت فريسة لاضطراب كئيب متنام. فذلك النهار الذى لم أشعر به، فيما بين المشاغل الأولى وذلك النوم العميق الذى سقطت فيه بعد ذلك، من يدرى كيف مضى هناك، فى بيت بليارى . اضطراب، وذهول، وفضول الغرباء المُرضى، وتحريات متسرعة، وشكوك، وافتراضات غريبة، وتلميحات، وبحث بلا جدوى، وملابسى وكتبى، هنالك ينظرون إليها بذلك الحزن الذى توحى به الأشياء الخاصة بشخص توفى بطريقة مأساوية .

وأنا نمت ! والآن، وفى هذا القلق المؤلم، كان على أن أنتظر حتى صباح اليوم التالى، لأعرف شيئًا من صحف روما .

وفى تلك الأثناء، إذ لم أكن قادرًا على الذهاب إلى ميرانيو، أو على الأقل إلى أونيليا، كان على أن أبقى فى ذلك الحال الجميل فى فترة انتقالية من يومين أو ثلاثة

أو ربما أكثر ؛ فأنا ميت من ناحية، في ميرانيو بوصفي ماتيا باسكال، وميت من ناحية أخرى، في روما بوصفي أدريانومايس .

ولما كنت لا أعلم ماذا أفعل، وعلى أمل أن أسهو شيئًا ما عن جزعي البالغ، حملت هذين الميتين للتنزه في بيزا .

أوه !، كانت نزهة تبعث على الفرح والبهجة . كان أدريانو مايس، الذي سبق له أن كان بهذه المدينة، يريد أن يقوم بدور المرشد لماتيا باسكال ؛ ولكن هذا وقد قهرته أمور كثيرة كان يقلبها في ذهنه، كان يرفض بتجهم، ويهز ذراعه وكأنه يريد أن يبعد عنه ذلك الخيال الكريه، ذا الشعر والرداء الطويل والقبعة القبيحة ذات الحواف العريضة والذي يضع نظارة .

« اذهب بعيدًا ! اذهب ! عد إلى النهر، أيها الغريق !» .

ولكني كنت أذكر أن أدريانو مايس شعر هو أيضًا في أثناء تجواله منذ سنتين مضتا بشوارع بيزا بالضيق والانزعاج بالطريقة نفسها من خيال ماتيا باسكال الكريه بالقدر نفسه، وكان يريد بالحركة نفسها لو تخلص منه ورماه مرة أخرى في قناة الطاحونة، هناك، في ستيا . كان أفضل شيء ألا أسمح بالألفة لأي منهما . أيها البرج الأبيض[1]، يمكنك أنت أن تميل إلى ناحية، أما أنا بين الاثنين فلن أميل إلى هنا أو هناك .

وكما أراد الله، وصلت أخيرًا إلى قضاء ذلك الليل الجديد الذي كان بلا نهاية، ليل كله لوعة، وإلى أن آخذ صحف روما بين يدي .

لن أقول إنني عند القراءة قد شعرت بالارتياح : لم يكن هذا ممكنًا . ولكن سرعان ما انقشع الذعر الذي كان يتملكني عندما رأيت أن خبر انتحاري قد أعطته الصحف حجم خبر من أخبار الحوادث المعتادة . كانت كلها تذكر، تقريبًا، الشيء نفسه: عن القبعة، والعصا اللتين وجدتا على كوبري مرجريتا ومعهما الورقة والكتابة المقتضبة،

(١) يقصد برج بيزا المائل (المترجم) .

وأننى كنت من تورينو، وكنت رجلاً فريداً جداً، وأن الأسباب التى دفعتنى لهذه الخطوة التعيسة مجهولة.ولكن أحدها كان يطرح احتمال أن يكون الدافع «عاطفيًا»، وأسندت هذا الاحتمال إلى «خلاف مع مصور إسبانى شاب فى بيت شخصية معروفة من عالم المناصرين لرجال الدين».

وكانت صحيفة أخرى تقول « ربما بسبب بعض المشاكل المالية». كانت كلها - عامة - أخباراً مبهمة وموجزة. صحيفة واحدة فقط من صحف الصباح، وهى معتادة على رواية أحداث اليوم باستفاضة، أشارت « إلى ذهول أسرة الفارس أنسلمو بليارى وألما، وكان رئيس قسم فى وزارة التعليم العام، وهو الآن بالتقاعد، وكان أدريانو مايس يقيم عنده، ويتمتع بالتقدير لتحفظه وأسلوبه الرقيق فى التعامل » - شكراً ! - وكانت هذه الصحيفة أيضًا، عند ذكرها للتحدى الذى وقع من المصور الإسبانى م.ب.، توحى بأن الدافع من وراء الانتحار ينبغى البحث عنه فى علاقة عاطفية سرية.

وخلاصة القول، إننى قتلت نفسى من أجل ببيتا بنتوجادا . فى النهاية، هذا أفضل. لم يرد اسم أدريانا، كما لم ترد أية إشارة إلى أوراق البنكنوت . فالمباحث إذن ستقوم بتحرياتها سراً. ولكن ما الآثار التى ستتحرى على أساسها ؟

كنت أستطيع السفر إلى أونيليا.

وجدت روبرتو فى البيت الريفى، لجمع المحصول . إن ما شعرت به عندما رأيت مرة أخرى ساحلى الجميل، الذى كنت أعتقد أنى لن أطأه مرة أخرى، يمكن إدراكه بسهولة . ولكن فرحى كان ينغصه قلق الوصول، والخوف من أن يتعرف على فى الطريق أحد الغرباء قبل الأقرباء، والانفعال المتزايد لحظة بعد لحظة والذى كان يسببه لى التفكير فيما كانوا سيشعرون به عند رؤيتى حيًا فجأة أمامهم . كانت عيناى تمتلئان بالدموع عند التفكير فى هذا، والسماء والبحر يظلمان أمامى، والدم يغلى فى عروقى، والقلب ينبض باضطراب. وكان يبدو لى أنى لن أصل أبداً !.

عندما جاء الخادم، أخيراً، ليفتح لى بوابة البيت الريفى الجميل، الذى قدمته

لروبرتو زوجته دوطة، بدا لى، وأنا أعبر الطريق، أنى عائد حقيقة من العالم الآخر.

قال لى الخادم وهو يفسح لى الطريق عند مدخل الڤيلا : تفضل ! على أن أخبرهم بمن ؟ لم أجد صوتًا فى حنجرتى للإجابة عليه. وتلعثمت وأنا أخفى الجهد بابتسامة :

– قل ... قل ... قل له إن ... نعم، يوجد ... يوجد ... صديق له ... حميم ... آت من بعيد ... هكذا ...

لابد أن هذا الخادم قد ظن على الأقل أنى ألكن . ووضع حقيبتى بجوار المشجب ودعانى للدخول فى حجرة الاستقبال المجاورة .

فى أثناء الانتظار كنت أرتعد، وأضحك، وأنفخ، وأنظر حولى، فى حجرة الاستقبال الجميلة، ذات اللون الفاتح، والمؤثثة بأثاث جديد مدهون باللون الأخضر الفاتح . وفجأة رأيت عند عتبة الباب الذى دخلت منه، طفلاً جميلاً، فى الرابعة من عمره تقريبًا، ويمسك بإحدى يديه رشاشة صغيرة، وبيده الأخرى جاروفًا صغيرًا. كان ينظر إلى محملقًا.

شعرت بحنان لا يوصف ؛ لابد أنه أحد أبناء أخى، ابن برتو الأكبر، انحنيت ودعوته بيدىّ أن يتقدم نحوى، لكنه خاف منى، ومضى هاربًا.

سمعت عند ذاك باب حجرة الاستقبال الآخر ينفتح. انتصبت واقفًا، واعتكرت عيناى من التأثر، وقرقرت ضحكة مرتبكة فى حلقى.

وقف روبرتو أمامى، مضطربًا، ويكاد أن يكون مشدوهًا.

قال «مع من ؟»

صحت به، وأنا أفتح ذراعى «برتو ! ألا تعرفنى ؟»

صار شاحبًا للغاية عندما سمع صوتى، ومسح بيده جبهته وعينيه، وترنح وهو يتمتم :

«كيف ... كيف ... كيف ؟»

ولكننى كنت على أهبة الاستعداد لأسنده، على الرغم من أنه كان يتقهقر إلى الخلف، خائفًا تقريبًا.

«إننى أنا ! ماتيا ! لا تخف ! أنا لم أمت ! هل ترانى ؟ المسنى ! إننى أنا، ياروبرتو. إننى لم أكن حيًا أبدًا أكثر من الآن ! هيا، هيا، هيا ...»

«ماتيا ! ماتيا ! ماتيا !» أخذ يقول برتو المسكين، وهو مازال غير مصدق عينيه.

«لكن كيف ؟ أنت ؟ أوه يا الله ... كيف هذا ؟ أخى ! عزيزى ماتيا !» وضمنى بقوة، بقوة، بقوة. وأخذت أبكى مثل طفل.

«كيف هذا ؟ – عاد يسأل برتو الذى كان يبكى هو أيضًا ـــ كيف هذا ؟ كيف هذا ؟»

«هاأنذا هنا ... هل ترى ؟ لقد عدت ... لا من العالم الآخر، لا ... فقد بقيت دائمًا فى هذا العالم الردىء ... هيا ... الآن سأقول لك ...»

كان روبرتو لا يزال ينظر إلى مذهولاً وهو يمسك ذراعى بقوة، ووجهه ملىء بالدموع.

«ولكن كيف ... إن كان هناك ... ؟»

«لم أكن أنا ... سأقول لك. ظنوا أنه أنا ... أنا كنت بعيدًا عن ميرانيو وعلمت، ربما كما علمت أنت، من إحدى الصحف بانتحارى فى ستيا.»

هتف برتو : «لم يكن أنت إذن ؟ وماذا عملت ؟»

«الميت. اسكت. سأحكى لك كل شىء. ولكن الآن لا أستطيع. أقول لك هذا فقط، إنى ذهبت هنا وهناك ظنًا منى أنى سعيد فى البداية، أتعلم ؟ ثم لأحداث كثيرة، أيقنت

أنى قد أخطأت، إن التظاهر بالموت ليست مهنة جميلة، وهاأنذا هنا : أعود حيًا.»

هتف برتو «ماتيا، لقد قلت دائمًا أنا، ماتيا، معتوه ... معتوه ! معتوه ! معتوه ! آه للسعادة التى منحتنى إياها ! من كان يستطيع أن يتوقع هذا ! ماتيا حى ... هنا ! ولكن أتعلم أنى لازلت لا أصدق ؟ دعنى أنظر إليك ... تبدو لى شخصًا آخر !.»

«هل ترى أنى قد صححت نظرى أيضًا ؟»

«آه ! نعم ... ولهذا كان يبدو لى ... لا أعلم ... كنت أنظر إليك، كنت أنظر إليك ... حسنًا جدًا ! هيا، فلنذهب إلى هناك، عند زوجتى ... أوه ! لكن انتظر ... أنت ...»

توقف فجأة ونظر إلى بقلق :

«هل تريد أنت العودة إلى ميرانيو ؟»

«بكل تأكيد، الليلة.»

«أنت إذن لا تعلم شيئًا ؟»

وغطى وجهه بيديه وتنهد :

«أنت مصيبة ! ماذا فعلت ... ماذا فعلت ... ؟ ألم تعلم أن زوجتك ... ؟»

«هل ماتت ؟» هتفت، مذهولاً.

«لا ! أسوأ من هذا ! تزوجت بزوج ثان »

ذهلت.

«زوج ؟»

«نعم، بومينو، جاءتنى الدعوة لحضور زواجهما. منذ أكثر من سنة.

«بومينو ؟ بومينو، زوج ...» تمتمت؛ ولكن فى الحال قفزت إلى حلقى ضحكة مرة، وكأن مرارتى طفحت، وضحكت، ضحكت مقهقهًا.

كان روبرتو ينظر إلى مشدوهاً، لعله كان يخشى أن أكون قد فقدت عقلى.

«هل تضحك ؟»

صحت به، وأنا أهزه من ذراعيه «طبعًا ! طبعًا ! هذا أفضل كثيراً ! هذا هو منتهى حظى السعيد !»

اندفع روبرتو يقول بغضب تقريبًا «ماذا تقول ؟ حظ سعيد ؟ ولكن إن كنت تذهب الآن إلى هناك ...»

«سأجرى إلى هناك فوراً، تصور !»

«إذن أنت لا تعلم أنه سيكون عليك استعادتها ؟»

«أنا ؟ كيف ؟»

أكد برتو، بينما كنت أنا أنظر إليه مشدوهاً بدورى «طبعًا، بكل تأكيد، يلغى الزواج الثانى وتصبح أنت مضطراً لاستعادتها.»

شعرت بأنى أنقلب رأساً على عقب.

صرخت «كيف ؟ أى قانون هذا ؟ زوجتى تتزوج زوجًا آخر، وأنا ... ما هذا ؟ اسكت ! ليس هذا ممكنًا !»

أكد برتو «وأنا أقول لك على العكس إن هذا هو الحال تمامًا ! انتظر : هناك يوجد شقيق زوجتى . سيشرح لك الأمر بشكل أفضل، فهو متخصص فى القانون. تعالى ... أو من الأفضل لا، انتظر قليلاً هنا ؛ فزوجتى حامل، ولا أريد، رغم أنها لا تعرفك جيدا، أن يؤثر فيها انفعال قوى، تأثيراً سيئًا ... أنا ذاهب أمهد لها ... انتظر، هه ؟»

وظل ممسكًا بيدى حتى عتبة الباب، وكأنه لا يزال يخشى أن أختفى من جديد إذا ما تركنى للحظة.

عندما بقيت وحدى أخذت أدور فى تلك الحجرة كما يفعل الأسد فى قفصه :

«تزوجت من جديد! من بومينو ! بكل تأكيد ... والزوجة نفسها أيضًا ... هو - هه، نعم ! كان قد أحبها قبلى. لعله لم يصدق نفسه ! وهى أيضًا ... تخيل ! ثرية، وزوجة بومينو ... وبينما هى هنا وقد تزوجت، كنت أنا هناك فى روما ... والآن يجب على أن أستردها ! لكن هل هذا ممكن؟».

بعد قليل، جاء روبرتو ينادينى يشع منه الفرح كله . ولكن حالى كان قد انقلب رأسًا على عقب بسبب هذا الخبر غير المنتظر، حتى أننى لم أستطع الاستجابة للحفاوة التى استقبلتنى بها كل من زوجة أخى وأمها وأخوها. لاحظ برتو هذا، وعلى الفور سأل شقيق زوجته عما كانت معرفته تهمنى بشكل خاص.

سألت بحدة مرة أخرى «أى قانون هذا ؟ معذرة ! هذا قانون قاس !.»

ابتسم المحامى الشاب، وهو يعدل وضع نظارته على أنفه، بهيئة تدل على التعالى.

أجابنى «ولكن الأمر هكذا. روبرتو على حق. لا أذكر نص المادة بدقة، ولكن هذه القضية منصوص عليها فى القانون ؛ الزواج الثانى يصبح باطلاً عند ظهور الزوج الأول.»

هتفت بغضب «وعلىّ أنا أن أسترد امرأة كانت لمدة عام كامل - ويعلم الجميع - تقوم بعمل الزوجة مع رجل آخر، كان ...»

قاطعنى المحامى الشاب، وهو لا يزال مبتسمًا «ولكن، معذرة، فالذنب ذنبك، ياعزيزى السيد باسكال !»

قلت «الذنب ذنبى ؟ كيف ؟ تلك المرأة الصالحة تخطئ، أولاً وقبل كل شىء، بالتعرف على فى جثة مسكين مات غريقًا، ثم تتعجل الارتباط بزوج آخر، والذنب ذنبى ؟ وأنا يجب أن أستردها ؟»

رد المحامي «بكل تأكيد، ما دمت، ياسيد باسكال، لم ترد تصحيح خطأ زوجتك، وهو خطأ، لا أنكر، ربما حدث بنية سيئة، في الوقت المناسب، أي قبل الموعد المنصوص عليه في القانون لعقد زواج ثان. أنت قبلت هذا التعرف الزائف، وأفدت منه ... أوه ! انتبه، إني امتدحك لهذا ؛ بالنسبة لي أنت عملت عملاً جيداً ... بل إن ما يدهشني هو أن تعود لتسقط في حبائل قوانيننا الاجتماعية الغبية هذه. لو أني في مكانك، لما عدت للظهور مرة أخرى.»

استفزني هدوء هذا الشاب الصغير الذي تخرج حديثًا وتظاهره بعلمه واعتداده بنفسه . أجبته وأنا أهز كتفي «ولكن لأنك لا تعلم ماذا يعني هذا !»

استأنف حديثه هو «كيف ! هل يمكن أن يكون هناك حظ أوفر، وسعادة أكبر من هذه؟»

هتفت متوجهًا إلى برتو، حتى أوقفه بادعائه عند هذا الحد «نعم، جرّب ! جرّب ! ولكني وجدت في هذه الناحية أيضًا شوكًا.»

سألني أخي «أوه، بالمناسبة، وكيف تصرفت، طوال هذا الوقت، حتى ... ؟» وحك إصبعيه الإبهام والسبابة معًا، ليعني نقود.

أجبته «كيف تصرفت ؟ قصة طويلة ! لست الآن في حال يسمح لي بأن أرويها. ولكني حصلت على نقود، أتعلم ؟ نقود، ولازالت معي، لا تظن إذن أني أعود الآن إلى ميرانيو لضيق ذات اليد !»

ألح برتو «آه ! أنت مصر على الرجوع ؟ حتى بعد هذه الأخبار ؟»

هتفت «لكن، معلوم، سأعود ! هل تتخيل أنني، بعد ما جربت وعانيت، لا أزال أريد أن أقوم بدور الميت ؟ لا، ياعزيزي : هناك، هناك! أريد أن تكون مستنداتي قانونية، أريد أن أشعر من جديد أني حي، حي فعلاً، وإن كان الثمن أن أسترد زوجتي. قل لي، هل أمها لا تزال حية ... أرملة بسكاتوري ؟»

أجـاب برتو «أوه، لا أعلم. سـتـدرك أنى، بعـد الزواج الثـانى ... ولكنى أظن أنهـا، نعم، أنها لا تزال حية ...»

هتفت «أشعر أنى أفضل الآن ! ألا أهمية لهذا ! سأنتقم ! أنا لم أعد مثلما كنت من قبل، هل تعلم هذا ؟ إن مـا يؤسـفنى فـقط هو أن هذا سـيكون من حسن حظ ذلك الأبله بومينو !»

ضـحكوا كلهم. وعندئذ جـاء الخـادم ليـعلن أن المائدة جـاهزة. اضطررت للبـقـاء لتنـاول الطعـام؛ ولكننى كنت مـضطربًا من شـدة التلهف، حـتى أنى لم أدرك أنى آكل، ولكنى فى النهاية شعرت أننى قد التهمت الأكل التهامًا. كان الوحش بداخلى، قد تغذى حتى يعد نفسه للهجوم الوشيك.

عـرض على برتو أن أبقى تلك الليلة على الأقل فى البيت الريفى، وفى الصـبـاح التالى نذهب معًا إلى ميرانيو. كان يريد الاستمتـاع بمشهد عودتى غير المتوقعة إلى الحيـاة، وانقضـاضى ذلك مـثل الصـقر على عش بومينو هناك. ولكنى لم أعـد أحـتـمل الانتظار، ولم أرد أن يلح على بـه، رجـوته أن يتـركنى أمـضـى وحـدى، وفى تلك الليلة نفسها، دون تسويف آخر.

رحلت بقطار الثامنة، وبعد نصف ساعة، كنت فى ميرانيو.

(١٨)

الراحل ماتيا باسكال

بين القلق والغضب (ولا أعلم أيهما كان يثير اضطرابى أكثر، ولكن لعلهما كانا شيئًا واحدًا ؛ عضبًا مقلقًا، وقلقًا غضوبًا) لم أعد أهتم إن تعرف علىّ آخر قبل أن أهبط أو بمجرد هبوطى فى ميرانيو.

كنت قد انتحيت فى عربة من عربات الدرجة الأولى، وهو التدبير الوقائى الوحيد. كان مساء، ثم إن التجربة التى أجريتها على برتو، كانت تطمئننى ؛ فبعد أن تأصل اليقين لدى الجميع بوفاتى البائسة، والتى انقضى عليها عامان، لن يستطيع أحد أن يظن أنى أنا ماتيا باسكال.

حاولت أن أطل برأسى من نافذة القطار، آملاً فى أن توقظ رؤية الأماكن المعروفة فى نفسى تأثيرًا آخر أقل عنفًا، ولكن لم ينفع إلا فى زيادة قلقى وغضبى. وتحت القمر، لمحت من بعيد رابية ستيا .

صفرت من بين أسنانى «أيتها القاتلتان ! هناك ... ولكن الآن ...»

كم من الأشياء، من هول الخبر غير المنتظر، نسيت أن أسأل روبرتو عنها ! الضيعة والطاحونة هل بيعتا حقًا ؟ أم أنهما لا تزالان، طبقًا لاتفاق مشترك بين الدائنين، تحت إدارة مؤقتة ؟ وهل مات ملانيا ؟ والعمة سكولاستيكا ؟

لم يبد لى أن سنتين وبضعة شهور فقط قد انقضت؛ كان يُبدو لى دهرًا، وأنه - كما وقعت لى أحداث غريبة - لابد كذلك أن تكون قد وقعت أحداث مثلها فى ميرانيو.

ومع هذا فلعله لم يحدث شيء غير زواج روميلدا وبومينو، وهو أمر طبيعى جداً فى ذاته، وأنه الآن فقط، بسبب ظهورى من جديد، قد يتحول إلى حدث غريب.

إلى أين كنت سأذهب، بمجرد نزولى فى ميرانيو ؟ وأين أقام الزوجان الجديدان عشهما ؟ كان متواضعًا غاية التواضع بالنسبة لبومينو، وهو الثرى والابن الوحيد، البيت الذى سكنت فيه أنا، المسكين. ثم إن بومينو، رهيف القلب، وما كان ليجد بالتأكيد راحة أو سكنًا هناك، مع ذكراى المحتومة. لعله أقام مع أبيه، فى القصر. تخيل أرملة بسكاتورى، بمظاهر ربة القصر، الآن ! والفارس بومينو المسكين ذاك، چيرولامو الأول، الرقيق واللطيف والوديع بين مخالب الشمطاء ! ياللمشاهد ! فلا الأب، بكل تأكيد، أو الابن وانتهما الشجاعة لإبعادها عن سبيلهما. والآن، هاأنذا – أه ياللغضب ! – سوف أحررهما أنا ...

نعم، إلى هناك، إلى بيت بومينو، كان يجب أن أتجه، فلو لم أجدهم هنالك ؛ فلسوف أستطيع أن أعلم من الحارسة أين أجدهم.

أوه ! يابلدتى الحبيبة الناعسة، كم ستضطربين غداً، عند سماع خبر بعثى !

كان القمر ساطعًا، تلك الليلة، ولهذا كانت أعمدة الإنارة كلها مطفأة كالعادة فى الشوارع شبه الخالية ؛ لأنها كانت ساعة تناول العشاء بالنسبة للأغلبية.

ولشدة الإثارة العصبية كنت قد فقدت تقريبًا حساسية ساقىّ وكنت أمضى، وكأنى لا ألمس الأرض بقدمى. لا أعرف التعبير عن حالتى النفسية التى كنت فيها : لدى فقط الانطباع بأن ضحكة هوميروسية ضخمة كانت تثير أحشائى، فى اضطرابى العنيف، دون أن تستطيع الانفجار، لو أنها انفجرت لخلعت، كالأسنان، بلاط الطريق، ولارتجت لها البيوت.

وصلت فى لحظة إلى بيت بومينو، ولكنى لم أجد الحارسة العجوز فى مكان الحراسة الواقع فى الممر الطويل؛ كنت أنتظر منفعلاً منذ عدة دقائق، عندما رأيت على أحد مصراعى البوابة شريط حداد حائل اللون ومتربًا، مثبتًا هناك، كما هو واضح،

منذ عدة شهور. من مات؟ أرملة بسكاتورى ؟ الفارس بومينو ؟ أحدهما، بكل تأكيد. ربما كان الفارس. فى هذه الحالة سأجد حمامتىّ العزيزتين فوق، بلا شك، مقيمين فى القصر. لم أستطع الانتظار وقتًا أطول ؛ اندفعت أقفز طالعًا درجات السلم، وعند مجموعة الدرج الثانية، ها هى الحارسة.

«الفارس بومينو ؟»

من الدهشة التى نظرت إلىّ بها تلك السلحفاة العجوز، أدركت أن الفارس المسكين كان هو بالتأكيد الذى توفى.

صححت كلماتى فوراً، وأنا أستأنف الصعود «ابنه ! ابنه !»

لا أعلم بماذا همهمت العجوز فى سرها فوق السلالم. وأسفل مجموعة السلالم الأخيرة، اضطررت للتوقف ؛ كنت لا أستطيع التنفس ! نظرت إلى الباب، فكرت « ربما هم يتناولون العشاء، الثلاثة حول المائدة دون أن ينتابهم شك. وبعد لحظات قليلة، وبمجرد أن أقرع على الباب، ستنقلب حياتهم ... هكذا، مازال فى يدى مصيرهم المسلط على رءوسهم».

صعدت السلالم الأخيرة، بحبل الجرس فى يدى، بينما كان قلبى يقفز فى حلقى، أرهفت السمع. لا ضجيج. وفى هذا الصمت سمعت دقات الجرس البطيئة تن – تن، الذى شددته بالكاد، ببطء شديد.

اندفع الدم كله فى رأسى، وبدأت أذناى فى الطنين وكأن هذا الرنين الخفيف الذى انتهى فى الصمت، قد رن على العكس رنينًا قويًا بداخلى يصمنى ويزعجنى.

بعد قليل تعرفت برجفة، من الناحية الأخرى من الباب، على صوت أرملة بسكاتورى:

«من؟»

لم أستطع الرد بسرعة، ضممت قبضتىّ إلى صدرى وكأنى أمنع قلبى من القفز خارجًا. ثم، بصوت كئيب، وكأنى أحدد مقاطع الاسم، قلت :

«ماتيا باسكال.»

صرخ الصوت من الداخل «من ؟!»

كررت مضخمًا صوتى بشكل أكبر «ماتيا باسكال.»

سمعت الشريرة العجوز تهرب منفزعة بكل تأكيد، وتصورت فى الحال ماذا كان يحدث فى تلك اللحظة هناك. الآن سيأتى الرجل : بومينو، الشجاع !

ولكن قبل أن يأتى اضطررت إلى شد الجرس كالسابق، ببطء شديد.

بعد أن انفتح الباب بعنف على مصراعيه، وبمجرد أن رآنى بومينو واقفًا، وصدرى بارزًا، أمامه - حتى تراجع مرعوبًا. تقدمت صارخًا :

«ماتيا باسكال ! من العالم الآخر.»

سقط بومينو محدثًا دويًا هائلاً ليجلس على ردفيه فوق الأرض، وذراعاه ممدودتان إلى الخلف، وعيناه محملقتان :

«ماتيا ! أهو أنت ؟!»

عندما هرعت أرملة بسكاتورى بالمصباح فى يدها، صرخت صرخة حادة، صرخة امرأة على وشك الولادة. أغلقت أنا الباب بركلة من قدمى، وقفزت وانتزعت منها المصباح الذى كاد أن يسقط من يدها.

صرخت فى وجهها «اسكتى ! هل تعتقدون حقًا أنى شبح ؟»

قالت هى مبهوتة، ويداها بين شعرها «حى ؟»

أردفت أنا بفرح شرس «حى ! حى ! حى ! تعرفتم على جثتى، أليس كذلك ؟ غريقًا هناك ؟»

سألتنى فى فزع «من أين تأتى ؟»

صرخت فيها «من الطاحونة، أيتها الشمطاء ! امسكى المصباح، وانظرى إلىّ جيداً! ألست أنا ؟ هل تعرفيننى ؟ أم لا أزال أبدو لك ذلك المسكين الذى غرق فى ستيا ؟»

«ألم تكن أنت ؟»

«موتى، أيتها الشمطاء ! أنا هنا، حى ! هيا، قف أنت، أيها الرجل الجميل ! أين روميلدا ؟ »

تأوه بومينو وهو ينهض بسرعة «الرحمة ... الطفلة ... أخاف ... اللبن .»

أمسكت بذراعه، مندهشاً أنا، الآن، بدورى :

«أية طفلة ؟»

«طفلتى ... ابنتى ...» تمتم بومينو.

صرخت بسكاتورى «أه ياللإجرام !»

لم أستطع الرد، وأنا لا أزال تحت تأثير هذا الخبر الجديد.

همست «ابنتك ؟ ووصل الأمر إلى، ابنة ؟ ... وهذه، الآن ...»

توسل بومينو «ماما، عند روميلدا، من فضلك ...»

ولكن كان قد فات الأوان. ظهرت روميلدا وشداد جذعها مفكوك، والرضيعة على صدرها، غير مهندمة وكأنها - عند الصياح - قامت من الفراش بسرعة وعجلة، وتقدمت ورأتنى «ماتيا !» وسقطت بين ذراعى بومينو وذراعى أمها اللذين سحباها بعيداً تاركين - لاضطرابهما - الصغيرة على ذراعى، عندما هرولت معهم.

بقيت فى الظلام، هناك، فى قاعة المدخل، ومعى تلك الطفلة النحيلة على ذراعى، وكانت تصرخ بصوتها الحمضى بتأثير لبن أمها. مرتاعاً ومضطرباً، كنت لا أزال أسمع فى أذنى صراخ المرأة التى كانت امرأتى، والتى صارت الآن أماً لهذه الطفلة وهى ليست طفلتى، ليست طفلتى ! بينما طفلتى، آه، لم تحبها، هى عندئذ ! وإذن، لا، أنا الآن، لا، أقسم بالله ! لم يكن على أن أشفق على هذه، أو عليهم. هل تزوجت

مرة أخرى ؟ وأنا الآن ... – ولكن تلك الصغيرة كانت مستمرة فى الصراخ، والصراخ؛ وماذا أفعل ... إذن حتى أجعلها تهدأ ؟ وضعتها فوق صدرى وأخذت أربت بخفة بيدى على كتفيها الصغيرين وأتمايل بها وأنا أتمشى. تلاشت كراهيتى، وخف انفعالى. وشيئًا فشيئًا سكتت الطفلة.

نادى بومينو فى الظلام برعدة :

«ماتيا ! ... الصغيرة !»

أجبته «اصمت ! هى معى هنا.»

«وماذا تفعل ؟»

«أكلها ... ماذا أفعل ! ... ألقيتموها فوق ذراعى ... والآن اتركها لى ! لقد هدأت. أين روميلدا ؟»

عندما اقترب منى وهو يرتعد مرتابًا، مثل كلبة ترى جروها فى يد صاحبها، سألنى :

«روميلدا ؟ لماذا ؟»

أجبته فى غلظة «لأنى أريد التحدث إليها !»

«فاقدة الوعى، هل تعلم ؟»

«فاقدة الوعى، سنجعلها تفيق.»

وقف بومينو أمامى حائلاً، مستعطفًا :

«الرحمة ... اسمع ... أنا خائف ... كيف، أنت ... حى ! أين كنت ؟ ... آه، ياألله ... اسمع ... ألا تستطيع الحديث معى ؟»

صرخت فيه «لا ! معها يجب أن أتكلم. أنت، هنا، لم تعد تمثل شيئًا.»

«كيف ! أنا ؟»

«زواجك يلغى.»

«كيف ... ماذا تقول ؟ والصغيرة ؟»

قلت من بين أسنانى «الصغيرة ... الصغيرة ... ياقليل الحياء ! فى سنتين، زوج وزوجة، وابنة ! اسكتى، يالطيفة، اسكتى ! لنذهب عند ماما ... هيا، أمامى ! من أين نذهب ؟

بمجـرد أن دخلت حـجـرة النوم والطفلة على ذراعى، همت أرملة بسكاتورى بالهجوم على، مثل الضبعة.

دفعتها بدفعة قوية من ذراعى :

– اذهبى، هناك، أنت ! هنا يوجد زوج ابنتك، إذا كان عليك أن تصرخى، اصرخى له. أنا لا أعرفك !

انحنيت نحو روميلدا، التى كانت تبكى بحرقة، وقدمت لها الابنة :

«هيا، امسكى ... هل تبكين ؟ لماذا تبكين ؟ تبكين لأنى حى ؟ هل كنت تريديننى ميتًا؟ انظرى إلى ... هيا، انظرى إلى وجهى ! هل أنا حى أم ميت ؟»

حـاولت هى، بين دموعها، أن ترفع عينيها نحوى، وفى صوت متهدج بالبكاء، تمتمت:

«ولكن ... كيف ... أنت ؟ ماذا ... ماذا فعلت ؟»

قهقهت استهزاء «أنا، ماذا فعلت ؟ أتسألينني أنا، ماذا فعلت ؟ أنت تزوجت بزوج ... ذلك الأبله ! وأنجبت طفلة، ولديك الشجاعة أن تسألينى ماذا فعلت ؟»

تأوه بومبينو، وهو يغطى وجهه بكفيه «والآن ؟»

أخذت بسكاتورى تزعق، وهى تتقدم نحوى رافعة ذراعيها «وأنت، أنت، أين ذهبت ؟ إن كنت تظاهرت بالموت وهربت ...»

قبضت على أحد ذراعيها، ولويته وصرخت فيها :

«اخرسى، أكرر لك ! ابقى صامتة، أنت، لأنى لو سمعتك تتنفسين، أفقد الشفقة التى أشعر بها نحو هذا الأبله زوج ابنتك، ونحو تلك الطفلة وأنفذ القانون ! هل تعلمون ماذا يقول القانون ؟ أن أسترد أنا الآن روميلدا ...»

ثارت فى وجهى بجرأة «ابنتى ؟ أنت ؟ أنت مجنون !»

لكن بومينو، تحت تهديدى، اقترب منها فوراً يستحلفها أن تصمت، وأن تهدأ، حباً فى الله. عندئذ تركتنى الشمطاء، وأخذت تصرخ فى وجهه هو، بليد، عبيط، لا يصلح فى شىء، وأنه ما كان يعرف إلا البكاء والعويل وكأنه أنثى ...

انفجرت ضاحكاً، حتى شعرت بالألم فى جنبى.

صرخت عندما استطعت كبح ضحكى «كفى ! سأتركها له! أتركها له بكل سرور! هل تعتقدين حقًا أنى مجنون لدرجة أن أصبح من جديد زوج ابنتك؟ آه، مسكين يابومينو! مسكين ياصاحبى، أتسامحنى ؟ إن كنت قلت إنك أبله، ولكن هل سمعت ؟ لقد قالتها لك هى أيضًا، حماتك، ويمكننى أن أقسم لك أن روميلدا، زوجتنا، قد قالتها أيضًا من قبل ... نعم، هى بنفسها، إنك تبدو لها أبله، وأحمق، ولا طعم لك ... وغير هذه من الأوصاف. أليس كذلك ياروميلدا ؟ قولى الحقيقة ... هيا، هيا، توقفى عن البكاء، ياعزيزتى ؟ أصلحى من شأنك، انتبهى، من الممكن أن تصيبى هكذا الصغيرة بضرر ... أنا الآن حى ـــ هل ترين ؟ وأريد أن أكون مبتهجًا ... مبتهجًا ! كما كان يقول صديق لى مخمور ... مبتهجًا يابومينو ! هل يبدو لك أنى أريد أن أترك طفلة بلا أم ؟ كلا ! عندى ابن بدون أبيه ... أترين، ياروميلدا ؟ لقد تعادلنا : أنا لى ابن، وهو ابن ملانيا، وأنت لك ابنة، هى ابنة بومينو. وإن شاء الله، نزوجهما فى يوم من الأيام ! وذلك الابن لا يجب أن يسبب لك الغيظ بعد الآن ... فلنتحدث عن أمور بهيجة ... قولوا لى كيف استطعت أنت وأمك أن تتعرفا علىّ ميتًا، هنالك، فى ستيا...؟»

هتف بومينو غاضباً «ولكن، وأنا كذلك. البلدة كلها ! وليس هما وحدهما !»

«شاطرين ! شاطرين ! وهل كان يشبهني إذن إلى هذا الحد ؟»

«له طولك نفسه ... ولحيتك ... وملابسه مثل ملابسك، سوداء ... ثم، كان مختفياً من أيام كثيرة ...»

«طبعًا، لأني هربت، هل سمعت ؟ وكأنهما لم يدفعاني هما للهرب ... تلك، تلك ... ومع هذا كنت على وشك الرجوع، أتعلم هذا ؟ نعم، محملاً بالذهب ! عندما ... حدث، لم يحدث، مات، غرق، تحللت جثته ... وتعرفوا عليه، هكذا ! وأشكر الله أني عشت حياة ترف وبذخ لمدة عامين، بينما أنتم، هنا : الخطوبة، والزواج، وشهر العسل، والحفلات، والأفراح، والابنة ... من مات انزاح، هه ؟ ومن عاش استراح ...»

كرر بومينو وهو يتأوه قلقًا «والآن ؟ ماذا نفعل الآن ؟ هذا ما أقوله أنا !»

نهضت روميلدا لتضع الطفلة في المهد.

قلت أنا «لنذهب، لنذهب ! إلى هناك، فالصغيرة نامت، سنتناقش هناك.

مضينا إلى قاعة الطعام، حيث كانت المائدة لا تزال عليها الأطباق، وما بقي من العشاء.

كان بومينو يهرش جبهته وهو يرتعد كله، غاضباً وقد تبدلت سحنته بعد أن صار شاحبًا كالموتى، وهو يغمض ويفتح جفنيه باستمرار ليكشفا عن عينين صغيرتين صارتا شاحبتين، ومثقوبتين في المنتصف بنقطتين سوداوين، وحادتين من الألم، وأخذ يقول وهو يكاد أن يهذي :

«حي ... حي ... ما العمل ؟ ما العمل ؟»

صرخت فيه «لا تضايقني ! الآن سنرى، أقول لك.»

جاءت روميلدا لتلحق بنا بعد أن ارتدت "الروب". وبقيت أنا أتطلع إليها في النور، معجبًا : لقد استعادت جمالها، مثلما كانت في الماضي، بل صارت أكثر امتلاءً.

قلت لها «دعينى أرك ... هل تسمح لى، يابومينو ؟ ليس هناك أى عيب ؛ فأنا أيضًا زوجها، بل قبلك وأكثر منك. لا تخجلى، ياروميلدا ! انظرى، انظرى، كيف يتلوى مينو ! ولكن ماذا يمكننى أن أفعل مادمت لم أمت حقًا ؟»

قلت وأنا أغمز لروميلدا «يفقد هدوءه ! لا، ليس كذلك، اهدأ، يامينو ... قلت لك إنى سأتركها لك، وأفى بكلمتى. فقط، انتظر ... عن إذنك !»

اقتربت من روميلدا وقبلتها قبلة مدوية على خدها.

صرخ بومينو برعدة «ماتيا !»

انفجرت ضاحكًا من جديد.

«غيور ؟ منى ؟ لا تكن أحمق ! فأنا لى حق الأسبقية. هيا ياروميلدا، امحها، امحها ... انظر، فى أثناء مجيئى كنت أتوقع (معذرة ياروميلدا)، كنت أتوقع، ياعزيزى مينو، أنى سأقدم لك جميلاً كبيراً، بأن أحررك منها، وأعترف لك أن هذا التفكير كان يسبب لى غمًا كثيراً، لأنى كنت أريد الانتقام، ولا أزال أريد، لا تصدق، وأنا أنتزع منك روميلدا، الآن وأنت تحبها وهى ... نعم، تبدو لى حلمًا، تبدو لى فتاة سنين كثيرة مضت ... هل تذكرين ياروميلدا ؟ ... لا تبكِ ! أتستأنفين البكاء ؟ آه، أزمنة جميلة ... نعم، ولن تعود ! دعكم من هذا؛ أنتما الآن لديكما ابنة، فلا مجال للحديث ! أترككما فى سلام، أفٍ !»

صاح بومينو «ولكن هل سيتم إبطال الزواج ؟»

قلت له «دعه يبطل ! سيبطل شكلاً، إن بطل لن أطالب بحقوقى، ولن أطالب بالاعتراف بى حيًا بشكل رسمى، إلا إذا أجبرونى على هذا. يكفينى أن يرانى الجميع وأن يعلموا أنى حى فعلاً، حتى أخرج من هذا الموت، وهو موت حقيقى، صدقونى ! وأنت ترى فعلاً : استطاعت روميلدا أن تصير زوجتك ... فيما عدا ذلك لا يهمنى شىء ! من ذا الذى يهتم بعد الآن بقيمة زواجها الأول الشرعية ؟ أمور انتهت ومضت ... كانت روميلدا زوجتى، والآن، ومنذ سنة، هى زوجتك، وأم لطفلتك. بعد شهر واحد لن يتحدث أحد فى الموضوع. هل كلامى صحيح، أيتها الحماة المزدوجة ؟»

بـرأسـهـا صـدقت بسكاتورى وهى مغمومة مكتئبة. ولكن بومينو سألنى فى قلق متنام :

«وأنت، هل ستبقى هنا، فى ميرانيو ؟»

«نعم، وسأحضر فى بعض الليالى لأحتسى فنجان قهوة فى بيتك أو لأشرب كأساً من الخمر فى صحتكم.»

اندفعت بسكاتورى، وهى تنهض واقفة، لتقول «هذا، لا !»

قالت روميلدا وعيناها تنظران إلى أسفل «ولكنه يمزح !»

وأخذت أضحك مثلما ضحكت قبلاً.

قلت لها «هل ترين ياروميلدا ؟ يخافان أن نستأنف علاقة الحب ... قد يكون جميلاً! لا، لا: علينا ألا نعذب بومينو ... يعنى إذا كان هو لا يريدنى بعد الآن فى بيته، فإننى سآخذ فى المشى بالطريق تحت نافذتك. هل هذا حسن ؟ وسأنشد لك أغنيات حب كثيرة.»

كان بومينو شاحباً، ومرتعداً يقطع الحجرة ماشياً، وهو يغمغم :

« ليس ممكنًا ... ليس ممكنًا ...»

وفى لحظة معينة توقف وقال :

«الواقع أنها ... وأنت هنا، حيًا، لن تكون زوجتى ...»

أجبته بهدوء «وأنت ضع فى حسبانك أننى ميت !»

«هذا الحسبان لم يعد ممكنًا أن أضعه !»

«إذن، لا تضعه. ولكن، هل تظن فعلاً – هكذا أضفت – أننى سأريد مضايقتك، لو أن روميلدا لم ترد ؟ يجب أن تقول هى هذا ... هيا، قولى، ياروميلدا، من منا أجمل ؟ أنا أم هو ؟»

صاح وهو يتوقف عن السير من جديد «إننى أقول أمام القانون، أمام القانون !»

كانت روميلدا تنظر إليه، حانقة ومتحيرة.

أبديت له ملاحظة قائلاً «فى هذه الحالة، يبدو لى أن، معذرة، أكثر المتضررين هو أنا، لأنى من الآن فصاعداً سأرى نصفى الحلو تعيش حياة زوجية معك .»

رد بومينو «ولكنها هى كذلك، بما أنها لم تعد زوجتى ...»

زفرت «أوه، القصد، كنت أريد الانتقام، ولن أنتقم، أترك لك الزوجة، وأتركك فى سلام، ألا يكفيك هذا ؟ هيا، ياروميلدا، قومى ! فلنمض من هنا، نحن الاثنين !» أعرض عليك رحلة زواج جميلة ... سنستمتع ! اتركى هذا الموسوس المزعج. يطالبنى بأن أذهب لألقى بنفسى حقيقة فى قناة الطاحونة، فى ستيا.»

انفجر بومينو وهو فى قمة «الغيظ لا أطلب منك هذا ! ولكن انصرف على الأقل ! انصرف بعيداً، ما دام قد أعجبك أن يظنك الناس ميتًا ! امض حالاً، وبعيداً، دون أن تظهر لأحد. لأنى أنا هنا ... معك ... أعيش ...»

نهضت واقفًا؛ وربت براحة يدى على كتفه حتى يهدأ وأجبته، بأنى، أولاً وقبل كل شىء، كنت فى أونيليا، عند أخى، ولهذا فالجميع هناك، كانوا فى هذه الساعة يعرفون أننى حى، وأن الخبر سيصل غداً، ولا شك، إلى ميرانيو، ثم هتفت :

«ميتًا من جديد؟ بعيداً عن ميرانيو ؟ إنك تسخر، ياعزيزى! امض: كن زوجًا فى سلام، وبلا خوف ... فزواجك، على كل حال، تم إشهاره. وسيحبذه الجميع، على أساس وجود طفلة صغيرة.أعدك وأقسم لك أنى لن آتى أبدًا لمضايقتك، ولو من أجل فنجان قهوة بائس، أو من أجل الاستمتاع بمشهد حبكما الحلو البهيج، ووفاقكما وسعادتكما القائمة على وفاتى ... أيها الجاحدان ! أراهن أنكما، ولا أنت ياصديقى العزيز، أراهن ألا أحدَ منكما قد ذهب ليضع إكليلاً أو زهرة على قبرى، هناك فى المدافن ... قل، أليس كذلك، أجب !»

قال بومينو وهو يترنح «تريد أن تمزح !»

«أمزح ؟ إطلاقًا ! هناك يوجد جثمان إنسان، وليس هذا محل مزاح ! هل ذهبت إلى هناك ؟»

همهم بومينو «لا ... لم ... لم تواتنى الشجاعة ...»

«لكنها واتتك لأن تأخذ منى زوجتى، يانذل !»

قال عندئذ بسرعة «وأنت منى ؟ ألم تنتزعها منى أولاً وأنت حى ؟»

هتفت «أنا ؟ ياسلام ! ولكنها هى التى لم تردك ! هل تريد إذن أن أكرر عليك أنك كنت تبدو لها أبله وعبيطًا ؟ قولى له أنت، ياروميلدا، من فضلك : انظرى، يتهمنى بالخيانة ... ولكن، ما دخل هذا ! هو الآن زوجك، ولا داعىَ للإفاضة فى الكلام، ولكنى بلا ذنب ... هيا، هيا. غداً سأذهب أنا لزيارة ذلك المتوفى المسكين، المهجور هنالك، بلا زهرة، وبلا دمعة ... قل، هل يوجد شاهد على الأقل فوق الحفرة ؟

أسرع بومينو بالجواب «نعم، على نفقة المجلس البلدى ... أبى المسكين ...»

«قرأ النعى، أعلم هذا ! لو أن ذلك الرجل المسكين كان يسمع ... وماذا كتبوا على الشاهد؟»

«لا أعلم ... أملاه لودوليتا.»

تنهدت «تخيلوا ! كفى ! فلندع كذلك هذا الموضوع. احكِ لى، احكِ لى كيف تزوجتما سريعًا هكذا ... آه، كم بكيت على قليلاً، ياأرملتى الشابة ... ربما لم تبك إطلاقًا، هه؟ قولى، هيا، أمن الممكن ألا أسمع صوتك ؟ انظرى : لقد تقدم الليل ... وبمجرد طلوع النهار، سأنصرف، وكأننا لم نعرف بعضنا أبدًا ... فلنستغل هذه الساعات القليلة. هيا، قولى لى ...»

رفعت روميلدا كتفيها، ونظرت إلى بومينو، وابتسمت فى عصبية، ثم قالت وهى تخفض بصرها وتنظر فى يديها :

«ماذا أستطيع أن أقول ؟ بالتأكيد بكيت ...»

تبرمت بسكاتورى «ولم تكن تستحق البكاء !»

استطردت «شكراً ! ولكنه فى النهاية كان بكاءً قليلاً، أليس كذلك ؟ هاتان العينان الجميلتان، اللتان رغم كل شىء قد انخدعتا بسهولة ويسر، لم يكن من المناسب أن تذبلا، بكل تأكيد.»

قالت روميلدا وكأنها تعتذر «بقينا فى أحوال سيئة للغاية، ولو لم يكن هو ...»

هتفت «شاطر، يابومينو ! ولكن ذلك الدنىء، ملانيا، ألم يقدم لكما شيئًا ؟

أجابت بسكاتورى بعنف وقسوة «إطلاقًا. قام هو بكل شىء ...»

وأشارت إلى بومينو.

صحَّح بومينو «أى ... أى ... أبى المسكين ... أتعلم أنه كان فى المجلس البلدى ؟ حسنًا، استصدر قراراً بمنح معاش صغير، بسبب المصيبة ... ثم ... »

«ثم وافق على الزواج ؟»

«بسعادة غامرة ! وأراد أن نكون كلنا معه، هنا ... وللأسف ! منذ شهرين ...»

وأخذ يحكى لى عن مرض أبيه ووفاته، وعن حبه لروميلدا ولحفيدته، وعن الحزن الذى شمل البلدة كلها على وفاته. عندئذ سألته عن أخبار العمة سكولاستيكا، التى كانت صديقة حميمة للفارس بومينو. تململت أرملة بسكاتورى على المقعد، وكانت لا تزال تذكر كرة العجين التى لطخت بها وجهها العمة العجوز الرهيبة. أجابنى بومينو أنه لم يرها منذ أكثر من سنتين، ولكنها كانت على قيد الحياة؛ ثم سألنى بدوره عما فعلت أنا، أين ذهبت، ... إلخ. قلت له ما كان يمكن أن أقول دون أن أذكر أسماء أماكن أو أشخاص، حتى أبين أننى لم أكن ألهو وأتنزه فى هاتين السنتين. وهكذا انتظرنا، ونحن نتبادل الحديث معًا، بزوغ فجر اليوم الذى كان ينبغى أن يتأكد فيه علنًا بعثى.

كنا منفعلين من السهر ومن الانفعالات الشديدة التى شعرنا بها، وكنا كذلك نعانى من البرد. وحتى نستدفئ قليلاً، أرادت روميلدا أن تعد لنا بيديها القهوة. وعند تقديمها الفنجان، نظرت إلى، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة حزينة، كأنها ابتسامة بعيدة، وقالت :

«أنت، كالمعتاد، بدون سكر، أليس كذلك.»

ماذا قرأت فى عينى فى تلك اللحظة، شعرت بحلقى ينقبض بحالة من البكاء غير المنتظر، ونظرت إلى بومينو نظرة كراهية. ولكن القهوة كانت ترسل دخانها تحت أنفى، وتنشينى بنكهتها، فأخذت أرتشفها ببطء. عندئذ طلبت من بومينو أن يأذن بترك حقيبتى فى بيته، حتى أجد لى مسكنًا، وبعد هذا سأرسل أحدًا ليتسلمها.

أجابنى هو بحماس «طبعًا ! طبعًا ! بل لا تشغل بالك أنت بها ؛ سأتولى أنا إرسالها إليك ...»

قلت «أوه، عمومًا هى خالية، أتعلم ؟ ... بالمناسبة، ياروميلدا : هل مازال لديك، بالصدفة، شىء من ... ملابسى، وملابسى الداخلية ؟»

أجابتنى، متألمة، وهى تفتح كفيها «لا، لا شىء ... وبعد المصيبة ...»

هتف بومينو «ومن كان يتصور هذا !»

ولكنى أقسم أنه، بومينو البخيل، كان يضع حول رقبته منديلاً من مناديلى الحريرية القديمة.

قلت أنا، محييًا، وعيناى مثبتتان على روميلدا، التى لم تشأ أن تنظر إلى : «كفى. وداعًا، هه ! حظًا سعيدًا !»

ولكن يدها ارتعشت، وهى تبادلنى التحية. «وداعًا ! وداعا !»

عندما نزلت بأسفل إلى الطريق، وجدت نفسى مرة أخرى ضائعًا هنا أيضًا، فى بلدتى نفسها، التى ولدت فيها : وحيداً، بلا بيت، وبلا هدف.

سألت نفسى : « والآن ؟ أين أذهب ؟» .

انطلقت ناظراً الناس الذين كانوا يمرون. ولكن هيهات. ألم يتعرف على أحد ؟ مع أنى لم أتغير ؛ كان يمكن للجميع، عندما يروننى، أن يفكروا على الأقل : « انظر ذلك الغريب، كيف يشبه المسكين ماتيا باسكال ! لو كانت عينه منحرفة قليلاً، لقلنا إنه حقًا هو» . لكن هيهات ! لم يكن أحد يتعرف على، فلم يعد يفكر فى أحد. ولم أكن أثير فضولهم، أو أدنى دهشة فيهم ... وأنا الذى تصورت انفجاراً، واضطراباً بمجرد أن أظهر فى الطرقات ! عندما زال وهمى العميق، شعرت بمذلة وكدر، ومرارة لا توصف؛ وكانت المذلة والكدر يمنعاننى من أن أثير انتباه أولئك الذين كنت أتعرف عليهم جيداً، من ناحيتى : أتحدى ! بعد عامين ... آه، أى معنى للموت ! لم يعد يذكرنى أحد، أى أحد، وكأننى لم أوجد أبداً ...

قطعت البلدة من أحد أطرافها إلى الآخر مرتين، دون أن يوقفنى أحد. فى قمة سخطى، فكرت أن أعود إلى بومينو، لأعلن له أن اتفاقاتنا لا تناسبنى وأن أنتقم لنفسى منه على المهانة التى كان يبدو لى أن البلدة كلها تهيننى بها بعدم تعرفها على. ولكن لا روميلدا كانت ستتبعنى بالحسنى، ولا أنا كنت أعلم إلى أين آخذها. كان يجب على أولاً، وعلى الأقل، أن أبحث لى عن منزل. فكرت فى الذهاب إلى البلدية، وإلى مكتب الأحوال المدنية، حتى يشطبوا اسمى من سجل الوفيات؛ ولكنى فى أثناء الطريق، غيرت فكرى، وملت إلى هذه المكتبة فى سانتا ماريا ليبرالى، حيث وجدت فى مكانى الصديق الجليل دون إليچو بللجرينوتو، الذى لم يتعرف على هو الآخر، فوراً. ويؤكد دون إليچو حقًا أنه قد تعرف على فوراً وأنه انتظر فقط أن أنطق باسمى حتى يلقى بذراعيه ليعانقنى، إذ بدا له مستحيلاً أن أكون أنا، وإذ كان لا يستطيع أن يعانق فوراً شخصاً يبدو له أنه ماتيا باسكال. ليكن هذا ! كان منه أول ترحيب نلته، وكان ترحيبًا حاراً جداً؛ ثم أراد هو بالقوة أن يذهب معى إلى البلدة، ليمحو عن نفسى الانطباع السيىء الذى سببه لى نسيان أهل بلدتى.

ولكنى الآن – نكاية – لا أريد وصف ما تبع هذا فى صيدلية بريزيجو أولاً، ثم فى مقهى الأنيونى، عندما قدمنى دون إليچو، وهو لا يزال فرحًا، وقد بعثت إلى الحياة. انتشر الخبر بسرعة البرق، وهرول الجميع ليرونى ويمطرونى بالأسئلة. كانوا يريدون أن يعرفوا منى من الذى غرق إذن فى ستيا، وكأنهم لم يتعرفوا على هم كلهم : واحدًا واحدًا. وإذن كنت أنا، نعم أنا : ومن أين عدت ؟ من العالم الآخر ! وماذا عملت ؟ الميت ! قررت ألا أتخلى عن هاتين الإجابتين، وأن أتركهم كلهم غاضبين فى قلق فضولهم، الذى استمر أيامًا وأيامًا كثيرة. ولم ينل الصديق لوبوليتا حظًا أوفر، الصديق الذى جاء ليجرى معى حديثًا صحفيًا لجريدة الفوليتو. وحاول أن يحرك مشاعرى وأن يجذبنى للحديث فأحضر لى نسخة من صحيفته ترجع إلى قبل عامين، وبها رثائى، ولكن عبثًا. قلت له إنى أحفظه عن ظهر قلب، لأن الفوليتو كان ذائع الانتشار فى جهنم.

«إيه، شىء آخر ! شكرًا ياعزيزى ! وعلى الشاهد أيضًا ... سأذهب لأراه، أتعلم هذا ؟ أتغاضى عن نقل مقاله المهم الجديد فى عدد يوم الأحد التالى الذى كان عنوانه مكتوبًا بحروف ضخمة : **ماتيا باسكال حى !**»

من بين الذين لم يريدوا أن أراهم، بالإضافة إلى دائنى، باتًا ملانيا، الذى على الرغم من هذا، كما قالوا لى، فقد أبدى قبل سنتين ألمه الشديد لانتحارى البربرى. أصدق هذا.

وكما كان ألمه عند ذاك، إذ علم باختفائى إلى الأبد، كان أسفه الآن، إذ عرف بعودتى للحياة. وأرى سبب هذا وذاك.

وأوليفا ؟ التقيت بها فى الطريق، فى يوم أحد، عند الخروج من القداس، وبيدها طفلها فى الخامسة من العمر نضيرًا وجميلاً مثلها «ابنى ! نظرت» إلى بعينين ودودتين وضاحكتين، قالتا لى فى لمح البصر أشياء كثيرة ...

كفى. أنا الآن أعيش فى سلام، مع عمتى العجوز سكولاستيكا، التى أرادت أن تقدم لى مأوى فى بيتها. ولقد رفعت مغامرتى الغريبة فجأة من شأنى لديها. أنام فى الفراش نفسه الذى توفيت أمى المسكينة فوقه. وأقضى جانبًا كبيرًا من اليوم هنا، فى المكتبة، بصحبة دون إليچو، الذى لا يزال ينأى كثيرًا عن تنظيم الكتب القديمة المتربة وتربيتها .

قضيت ستة أشهر تقريبًا فى كتابة حكايتى الغريبة هذه، بمساعدته. وسيحتفظ هو بسر كل ما هو مكتوب هنا، وكأنه علم به فى سر الاعتراف.

لقد ناقشنا معًا وباستفاضة أحوالى، وكثيرًا ما صرحت له بأنى لا أرى ماهية النتيجة التى يمكن الحصول عليها منها.

يقول لى هو «عمومًا الأمر هكذا، خارج إطار القانون وخارج تلك الخصائص سواء السعيدة أم التعيسة، والتى نحن فى ظلها نكون نحن، ياعزيزى السيد باسكال، لا يمكننا أن نحيا.»

ولكنى أنبهه إلى أنى لم أدخل مرة ثانية فى إطار القانون أو فى خصائصى الذاتية. فزوجتى زوجة بومينو، وأنا لا أعرف تمامًا أن أقول من أنا.

فى مقابر ميرانيو، وفوق حفرة ذلك المجهول المسكين الذى انتحر فى ستيا، لا يزال شاهد القبر الذى أملاه لودوليتا قائمًا :

أصابت أقدار مناوئة

ماتيا باسكال

أمين المكتبة

قلب فياض ونفس سمحاء

هنا باختياره

يستريح

محبة مواطنيه

هذا الشاهد وضعت

حملت إكليل الزهور الموعود ؛ ومن وقت إلى آخر أذهب لأرى نفسى ميتًا ومدفونًا هناك. أحد الفضوليين يتبعنى من بعيد؛ ثم يصطحبنى فى طريق العودة، ويبتسم، وفى تأمله لحالى، يسألنى :

«ولكن أنت، هل يمكن أن أعرف من تكون ؟»

أرفع كتفى، وأرخى عينى وأجيبه :

«إيه، ياعزيزى ... أنا الراحل ماتيا باسكال.»

تنبيه عن محاذير الخيال

يفكر السيد ألبرتوهاينتز، من بفالو بالولايات المتحدة، وهو فى مفترق الطرق بين حبه لزوجته، وحبه لآنسة فى العشرين، أن يدعو الواحدة والأخرى إلى اجتماع لتتخذا معه قرارًا .

وتصل المرأتان، ويصل السيد هاينتز كذلك فى الموعد المضروب والمكان المحدد ؛ ويتناقشون طويلا، وفى النهاية يتفقون .

يقررون أن ينتحروا ثلاثتهم .

تعود السيدة هاينتز إلى البيت ؛ وتطلق عيارًا ناريا من المسدس على نفسها وتموت. وعندئذ فإن السيد هاينتز وحبيبته الآنسة ذات العشرين ربيعًا، نظرًا لأنه بموت السيدة هاينتز لم يعد هناك وجود لأى عائق فى سبيل ارتباطهما، يعترفان بأنه لم يعد هناك داع لانتحارهما، ويقرران البقاء على قيد الحياة، وأن يتزوجا . أما السلطة القضائية فترى عكس هذا وتقبض عليهما .

الخاتمة مبتذلة .

(انظر صحف نيويورك بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٢١، الطبعة الصباحية) .

* * *

لنفترض أن كاتبا مسرحيا تعسًا أراد أن يعرض على المسرح حالة مشابهة . ونكاد نجزم أن خياله سيسعى لأن يكون صادقا قبل كل شيء، بالنسبة لتصحيح سخافة انتحار السيدة هاينتز بحلول شجاعة تجعله بشكل ما مشابهًا للواقع .

ولكن نكاد نجزم كذلك أنه على الرغم من كل الحلول الشجاعة التى يتخيلها كاتب المسرحيات، فإن تسعة وتسعين بالمائة من نقاد المسرح سيحكمون على ذلك الانتحار بأنه سخيف وعلى المسرحية بأنها غير محتملة الحدوث فى الواقع[١] .

فالحياة على الرغم من كل أشكالها السخيفة السفيهة، صغيرها وكبيرها، والتى تذخر بها، تتمتع بميزة لا تقدر بثمن وهى أنها تستطيع أن تستغنى عن محاكاة الواقع السخيفة[٢] تلك التى يظن الفن أن واجبه هو اتباعها .

إن سخافات الحياة لا تحتاج أن تظهر محاكية للحقيقة لأنها حقيقة . على النقيض من سخريات الفن التى تحتاج إلى محاكاة الحقيقة حتى تبدو حقيقية . وعندئذ فإن محاكاة الحقيقة لن تكون سخافة .

---

(١) فى الجزء الأول من هذا التنبيه يجرى بيرندللو حوارا جدليا مع نقاد المسرح وخاصة أولئك الذين لم يستقبلوا آخر مسرحياته بما تستحقه وهى مسرحية "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" التى تم عرضها فى روما فى ٩ مايو ١٩٢١ . ومن المعروف أن هذه المسرحية عرضت أيضا فى القاهرة فى الستينيات .

(٢) أعمال بيرندللو كلها، سواء كانت قصصية أو روائية أو مسرحية تقف موقفا مناهضا لمذهب الطبيعة فى الأدب ؛ فبدلا من محاكاة الواقع الظاهرة، يسعى الكاتب الحديث (الساخر) إلى البحث عن الحقيقة (المترجم) .

قد تكون حالة من حالات الحياة سخافة، أما العمل الفنى، فإن كان عملا فنيا، فلا.

وينتج عن هذا أن وصم عمل فنى باسم الحياة، بأنه سخيف، وغير محاك للحقيقة، هو غباء محض .

باسم الفن، نعم، وباسم الحياة، لا .

* * *

فى التاريخ الطبيعى توجد مملكة تجرى دراستها من جانب علم الحيوان، لأنها مملكة الحيوان، ومن بين الحيوانات التى تشملها هذه المملكة الإنسان .

ويستطيع عالم الحيوان، نعم، أن يتحدث عن الإنسان ويقول على سبيل المثال، إنه ليس من ذوات الأربع، وإنما هو يمشى على قدمين، وأنه لا ذيل له مثل ذيل القرد أو الحمار أو الطاووس، إن أردت .

وهذا الإنسان الذى يتحدث عنه المتخصص فى علم الحيوان لا يمكن أن يقع له حادث يفقد فيه إحدى ساقيه، فرضاً، وأن يضع بدلا منها ساقا من خشب ؛ وأن يفقد إحدى عينيه ويضع بدلا منها عينا من زجاج ؛ فالإنسان المتخصص فى علم الحيوان له دائما ساقان، ليست إحداهما من خشب، وله دائما عينان ليست إحداهما من زجاج .

ومن المستحيل مخالفة المتخصص فى علم الحيوان . لأنكم إذا قدمتم لعالم الحيوان شخصا ما بساق من الخشب، أو بعين من زجاج، سيرد عليكم بأنه لا يعرفه، لأن ذاك ليس هو الإنسان، ولكنه إنسان .

ولكن فى الحقيقة نستطيع جميعا، بدورنا، أن نرد على عالم الحيوان، أن الإنسان الذى يعرفه هو لا وجود له، وأنه يوجد على عكس البشر، الذين لا يتساوى

الواحد منهم مع الآخر ويمكن أن يكون لهم، بسبب إحدى الحوادث، ساق من الخشب أو عين من الزجاج .

وعند هذا لابد أن نتساءل إن كان أولئك السادة الذين يحكمون على رواية أو على قصة قصيرة، أو على مسرحية ويدينون هذه الشخصية أو تلك، وتمثيل الأحداث أو المشاعر هذا أو ذاك ليس باسم الفن كما ينبغي لهم أن يحكموا، وإنما باسم إنسانية يبدو أنهم يعرفونها في كمالها، وكأنها موجودة حقيقة نظرياً ؛ أي خارج ذلك التنوع من البشر القادرين على اقتراف كل أشكال السخافات التي لا تحتاج إلى أن تظهر محاكية للحقيقة، لأنها حقيقية ، نسألهم إن كانوا يريدون أن نعتبرهم متخصصين في علم الحيوان أم نقاداً أدبيين ؟

* * *

وعلى كل، فإنه من خلال التجربة التي قمت بها من جانبي عن هذا النقد، فإن الأمر الجميل هو هذا : أنه بينما يعترف عالم الحيوان أن الإنسان يتميز عن الحيوانات الأخرى كذلك ؛ لأن الإنسان يفكر والحيوانات لا تفكر، والتفكير (وهو خاصية من أهم خصائص الإنسان) بدا في أحيان كثيرة للسادة النقاد، ليس باعتباره تزيدا وياليتهم قالوا هذا، وإنما باعتباره عيبا إنسانيا في كثير من شخوصي غير المرحة، لأنه يبدو أن الإنسانية ، بالنسبة لهم، هي شيء يتمثل في الشعور أكثر مما يتمثل في التفكير .

ولكن إن أردنا الحديث بشكل مجرد هكذا مثلما يفعل أولئك النقاد، أليس من الحقيقي أن الإنسان يفكر بشغف أكبر (أو لا يفكر بمنطق، وهو الشيء نفسه) عندما يعاني لأنه يريد أن يرى أصل معاناته، ومن تسبب له فيها ؟ وإذا كان من العدل أن يتسبب له فيها ومقدارها، بينما هو عندما يتمتع فإنه يأخذ المتعة ولا يفكر وكأن المتعة هي حق من حقوقه.

إن واجب الحيوانات هو أن تعاني دون تفكير . إن من يعاني ويفكر (لأنه يعاني)، في نظر هؤلاء السادة النقاد ليس من البشر ؛ فعلى ما يبدو، أن من يعاني لابد أن يكون فقط حيوانا، وأنه فقط عندما يكون حيوانا، عندئذ يكون بالنسبة لهم من البشر.

* * *

ولكنى وجدت مؤخرا ناقدا، أعترف له اعترافا كبيرا بالجميل .

ففيما يتعلق " بعقلانيتى " غير الإنسانية والتى لاشفاء منها، وغرابة محاكاة الحقيقة فى قصصى وفى شخوصى، سأل أولئك النقاد الآخرين من أين استمدوا معيار الحكم على عالمى الفنى ؟

وسأل « هل استمدوه مما يطلق عليه الحياة العادية ؟ »« ولكن ما هى هذه إن لم تكن منظومة علاقات، نختارها نحن من فوضى الأحداث اليومية والتى نصفها بالعادية بشكل اعتباطى ؟» ويختتم حديثه قائلا : «لا يمكن الحكم على عالم فنان بمعيار حكم مأخوذ من غير هذا العالم نفسه» .

ويجب أن أضيف، حتى أعطى مصداقية لهذا الكاتب لدى غيره من النقاد،إنه على الرغم من هـذا، بل لهذا، يحكم هو أيضا في غير صالح أعمالى ؛ إذ يبدو له أنى لا أعرف إعطاء قيمة ومغزى إنسانى جامع لقصصى ولشخوصى، حتى أن من يجب أن يحكم عليها يجد نفسه مترددا إن لم أقصد أنا الاقتصار على حالات غريبة بعينها، وعلى مواقف نفسية خاصة جداً.

ولكن إن كانت القيمة والمغزى الإنسانى الجامع لبعض قصصى ولبعض شخوصى، كما يقول هو، يكمنان فى التناقض بين الواقع والوهم، وبين الوجه الفردى والصورة الاجتماعية له، وتتمثل أول ما تتمثل فى المغزى وفى القيمة التى يجب إعطاؤها لذلك التناقض الأول الذى – لما بالحياة من سخرية متواصلة – نكتشف دائما ألا قوام له،

لأن كل حقيقة من حقائق اليوم مصيرها المحتوم للأسف هو أن نكتشف أنها وهم غدا، ولكنه وهم ضرورى، نتساءل إن لم يكن هناك خارجه واقع آخر بالنسبة لنا ؟ وإن كان يتمثل فى هذا تحديدا، أن نجد رجلا أو امرأة وضعهما آخرون أو وضعا نفسيهما فى موقف مؤلم، وغير عادى اجتماعيا، وسخيف إلى درجة كبيرة، فيصبران عليه ويتحملانه، ويمثلانه أمام الآخرين، ما داما لا يريانه بسبب عماهما أو سذاجتهما سذاجة لا تصدق ؛ فلماذا متى رأياه موضوعا أمامهما، وكأنه فى مرآة، لا يعودان يتحملانه ويشعران بفظاعته ويحطمانه؟ وإذا لم يستطيعا تحطيمه، يشعران بأنهما يموتان ؟ وإذا كان يتمثل فعلا فى هذا، أن موقفا غير عادى اجتماعيا يتم قبوله حتى عندما تتم رؤيته فى مرآة تقدم أمامنا وهمنا نفسه، وعندئذ يجرى تمثيله ومعاناة آلامه كلها، ما دام تمثيله كان ممكنا داخل القناع الخانق الذى وضعناه نحن بأيدينا أو الذى فرضه علينا آخر أو ضرورة قاسية، أى أنه ما دام لم يتم جرح أحد مشاعرنا الحية تحت هذا القناع، جرحا غائرًا، حتى تثور ثائرتنا ويتمزق ذلك القناع ويتم دوسه بالأقدام ؟

ويقول الناقد : « عندئذ، يغزو فيض من الإنسانية هذه الشخوص فجأةً، وتصبح الدمى فجأة مخلوقات بشحمها ولحمها وكلماتها التى تحرق النفس وتمزق القلب تخرج من شفاهها » .

وأتحدى ! لقد اكتشفوا وجوههم الشخصية العارية تحت تلك الأقنعة التى كانت تجعل منهم دمى لأنفسهم أو فى أيدى آخرين، كانوا يظهرونها فى البداية جامدة، وخشبية، وغير مشذبة، وغير مكتملة، غير ناعمة، ومعقدة ، مثل كل شىء مركب ومقام بلا حرية ولكن للضرورة فى موقف غير عادى وغريب، حتى أنهم فى النهاية لم يستطيعوا تحملها وكسروها.

والفوضى، إن كانت موجودة، فهى مقصودة، والآلية، إن كانت موجودة فهى مقصودة، ليس من جانبى، وإنما من جانب القصة نفسها، ومن الشخوص نفسها، وفى الحقيقة يتم فورا اكتشاف أنه: كثيرا ما يتم التوافق عمدا ويوضع تحت الأعين

فى أثناء عملية التوفيق والترتيب : قناع التمثيل، ولعبة الأدوار، ما نريد وما يجب أن يكون، ما نبدو عليه للآخرين، بينما ما نحن عليه، فلا نعرفه حتى حد معين، نحن أنفسنا، الصورة المجازية السخيفة غير المؤكدة عنا، البنيان الذى كثيراً ما نقيمه فى تكلف، لأنفسنا، أو الذى يقيمه الآخرون عنا : إذن فهى آلية، نعم آلية يكون فيها كل فرد دمية نفسه إراديا، وفى النهاية تأتى الركلة التى تهدم كل شىء .

وأعتقد أنه لم يبق لى إلا أن أهنىء خيالى، إن كان بكل محاذيره قد أظهر كعيوب حقيقية تلك العيوب التى كان يريدها ؛ عيوب ذلك البناء المختلق الذى بنته الشخوص نفسها عن أنفسها وعن حياتها، أو الذى بناه غيرها لها، أى عيوب القناع قبل أن يكتشف أنه عار .

* * *

ولكن جاءنى عزاء أكبر من الحياة أو من أخبار الحوادث اليومية بعد عشرين سنة من نشر روايتى هذه، الراحل ماتيا باسكال ، لأول مرة والتى لا تزال تعاد طباعتها إلى اليوم .

ولم تسلم هذه الرواية كذلك، عندما ظهرت لأول مرة، وعلى الرغم من الاتفاق العام حولها ممن اتهمها بأنها لا تحاكى الحقيقة .

وعلى كل حال أرادت الحياة أن تقدم لى الدليل على حقيقة هذه الرواية بطريقة عجيبة حتى فى أدق التفاصيل التى رسمها خيالى بشكل تلقائى .

ها هو ما نقرؤه فى كوربيرى ديللا سيرا فى يوم ٢٧ مارس ١٩٢٠ .

تكريم إنسان حى لمقبرته

ظهرت حالة غريبة من الزواج برجلين فى هذه الأيام ؛ وهى حالة نتجت عن تأكيد وفاة زوج وليس عن وقوعها بالفعل . فلنسترجع باختصار ما سبق هذا الحدث. فى منطقة كلفايراتى وفى يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٦ استخرج بعض الفلاحين من مياه قناة "شينكوى كيوزى" جثة رجل يرتدى قميصا وسروالا بنى اللون . وتم إبلاغ الشرطة باستخراج الجثة فبدأت تحرياتها . وبعد قليل قامت ماريا تدسكى، وهى امرأة جميلة فى الأربعين من عمرها تقريبا، وقام لويجى لوتجونى ولويجى مايولى بالتعرف على صاحب الجثة ؛ وهو الكهربائى أمبروچو كزاتى دى لويجى من مواليد ١٨٦٩، زوج تدسكى . وفى الحقيقة كان الغريق يشبه كزاتى شبها كبيرا .

وظهر الآن من هذه الشهادة أنها كانت شهادة مغرضة، وخاصة بالنسبة لمايولى وللسيدة تدسكى ؛ لأن كزاتى الحقيقى كان لايزال حيا ! ولكنه كان فى السجن منذ ٢١ فبراير من السنة السابقة فى جنحة اعتداء على الملكية الخاصة، وأنه كان منذ زمن منفصلا عن زوجته وإن كان انفصالا غير قانونى . وبعد سبعة شهور من الحداد، تزوجت تدسكى من مايولى دون أن تصطدم بأى عائق من الإجراءات الإدارية . وفى ٨ مارس ١٩١٧ انتهى كزاتى من قضاء عقوبة السجن وعرف فقط فى هذه الأيام أنه ... ميت، وأن زوجته قد تزوجت ثانية واختفت . علم كل هذا عندما توجه إلى مكتب الأحوال المدنية فى ميدان ميسورى، لحاجته للحصول على إحدى الوثائق . وقال له موظف الشباك بصلف :

– ولكنك ميت ! ومحل إقامتك القانونى هو مدافن موزوكو، المقابر العمومية ٤٤، والمقبرة رقم ٥٥٠ .

ولم يُجد أى اعتراض من جانب من كان يريد اعترافًا بأنه لا يزال على قيد الحياة . ويطالب كزاتى بأن يجرى الاعتراف بحقوقه فى الـ ... قيامة من الموت، وما إن يتم تصحيح الحالة المدنية، فيما يخصه، فإن الأرملة المزعومة التى تزوجت مرة ثانية،

ستجد زواجها الثانى ملغيا . وعلى كل حال، فإن الواقعة الغريبة لم تثر حفيظة كزاتى: بل لعلنا نقول إنها جعلته فى مزاج حسن ؛ ولرغبته فى اختبار انفعالات جديدة أراد الذهاب إلى... مقبرته، وتكريما لذكراه وضع على قبره باقة زهور وأضاء مصباحًا صغيراً !

الانتحار المزعوم فى إحدى القنوات، والجثة التى استخرجت وتم التعرف عليها من قبل الزوجة وممن سيصبح زوجها الثانى، وعودة الميت المزعوم، وكذلك التكريم الذى يقدمه ! كل هذه الأحداث فعلية، باستثناء كل الأمور الأخرى التى كان عليها أن تعطى للحدث قيمة ومغزى إنسانيا جامعًا .

لا أستطيع أن أزعم أن السيد أمبروچو كزاتى - الكهربائى - قد قرأ روايتى وأنه حمل الزهور إلى مقبرته تقليداً للراحل ماتيا باسكال .

وعلى كل حال فإن الحياة مع ازدرائها بكل ما يحاكى الواقع، وجدت قسا وموثقا جمعا برباط الزواج السيد مايولى والسيدة تدسكى دون أن يهتما بمعرفة إحدى الحقائق، التى ربما كان من السهل الوصول إليها، ألا وهى أن الزوج السيد كزاتى كان فى السجن وليس تحت الأرض .

ومن المؤكد أن الخيال كان سيحذر من التغاضى عن حادث حقيقى مثل هذا ؛ وهو الآن يستمتع وهو يسترجع اتهامه بعدم محاكاته للواقع الذى اتهم به كذلك آنذاك، أن يبين ماهية عدم محاكاة الواقع الفعلية التى تستطيع أن تقدمها الحياة، فى الروايات التى تنقلها كذلك عن الفن دون أن تدرى .

المؤلف فى سطور

لويجى بيرندللو (١٨٦٧ - ١٩٣٦)

ولد ونشأ ودرس فى صقلية ثم أكمل دراسته فى روما وبون بألمانيا التى عاد منها ليمارس التعليم فى معهد المعلمين العالى بروما .

وفى روما أسهم بمقالاته فى مجلات أدبية عديدة، واتسم إنتاجه الأدبى بالانتقال من المحلية إلى العالمية، كما انتقل من قبل، أثناء دراسته، من جزيرة صقلية إلى ألمانيا . بدأ بيرندللو مشاوره الأدبى منتميًا إلى تيار الواقعية المحلية التى التقى بأحد روادها فى روما وهو كبوانا والتى كان ڤيرجا ودى روبرتو من كبار أتباعها، ولكنه سرعان ما تحرر من هذا التيار وانتقل إلى الكتابة الساخرة من أحوال البشر التى لا يمكن وضعها فى إطار من الواقعية والحقيقة لأن الحقيقة نسبية، وغير مطلقة .

وكتب بيرندللو الشعر والرواية والقصة القصيرة، كما كتب للمسرح وأخرج رواياته به واستحدث فيه المسرح داخل المسرح مما أعطاه شهرة عالمية كبيرة فحصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٣٤ .

المترجم فى سطور

محب سعد إبراهيم

- أستاذ الأدب الإيطالى الحديث والمعاصر فى كلية الألسن - جامعة عين شمس .

- ترجم أشعاراً للشاعرين چاكومو ليوباردى وچوزيبى أونجاريتى .

- ترجم قصصًا للكتاب الإيطاليين ڤيرجيليو ومورافيا وباڤيزى وكوارانتوتو جامبينى وإيتالو كالڤينو .

التصحيح اللغوى : أحمد نزيه
الإشراف الفنى : حسن كامل